المركز القومى للترجمة



مقبرة الصدأ

أندره فيش

الطبعة الثانية

ترجمة

نافع معلا

مقبرة الصدأ

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٩٤٩/ ٢
- مقبرة الصدأ
- إندره فيش
- نافع معلا
- الطبعة الثالثة ٢٠٠٩

هذه ترجمة

Rozsdatemetö

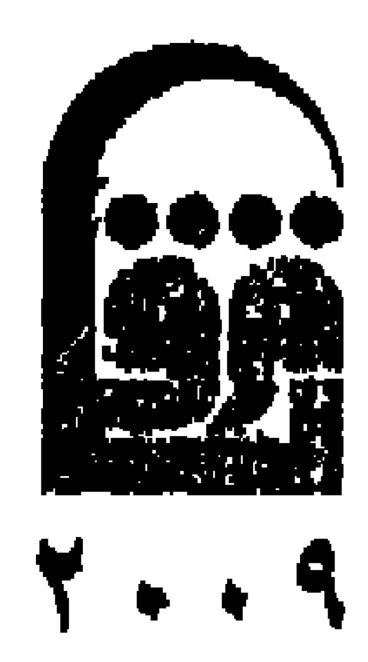
Fejes Endre

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦
فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526
Fax: 27354554

مقبرة الصدأ

تأليف: إندره فيش
ترجمة: نافع معلا



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١١٦٥٤ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 6 - 390 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

ليس الإنسان أكثر من عود قصب قابل للكسر. لكنه عود قصب مفكِّر، لا تحتاج القدرة الكلية أن تحشد سلاحًا من أجل سحقه. لأن بوسع قطرة ماء صغيرة أن تقضي عليه. ولكن حتى لو كان بمكنة هذه القدرة الكلية أن تسحق الإنسان ، فإنما يبقى هو أكثر نبلاً. لأنه مدرك أنه سوف يموت. في حين أنها لا تعرف شيئًا عن هذه الميزة التى بها يتربع الإنسان فوق عرش الأرض.

هكذا فإن كل ما نتمتَّع به من رفعة ، خبيء في تفكيرنا . من هذا المنطلق علينا أن ننتفض كبشر ، وليس من منطلق التحرك في المكان والزمان. مسئوليتنا كبشر أن نفكر جيداً . وهذا هو منطلقنا الأخلاقي.

باسكال

كل ما خلّفته الحرب الطويلة فى نفس هابتلر يانوش اثنتان من الذكريات كان يرويهما أحيانًا إلى جانب أقداح النبيذ.

الأولى أن أحد القتلى فى الحرب الإيطالية راح يتحرك. دبت فيه الحياة، وكان مثقوب الجبين، كامد الوجه. تحركت مؤخرته أولاً، ثم تحرك منتصف جذعه، ودبت الحركة، أخيرًا إلى رأسه. كان الخلد يخرج من وكره تحت الجندى الميت. وهذا ما جعل الجنود الأحياء يتضاحكون مرتعدين، شاحبى الوجوه.

أما ذكرى الحرب الثانية، فكان يرويها، بنبرة رصينة يشوبها شىء من الحياء.

ذات مساء خريفى تمكن فصيلهم من إسقاط طائرة معادية. وحين صدمت الطائرة الأرض على مقربة منهم، دوى هدير هائل، وتدحرج طياراها قتيلين على التراب. خرج هايتلر برفقة زميله من الغابة، وركضا نحو الطائرة المشتعلة، وأخذا يجردان الطيارين من لباسهما الجلدى.

وهكذا استسلم زميله لنومته الأبدية، مشلوحًا على العشب، شاخصًا، إلى جانب الطيارين، فى الغيوم الداكنة.

أما هابتلر يانوش فقد انبطح يدب عائدًا إلى موقعه فى الغابة، مجرجرًا نفسه مثل عنكبوت تحت وابل من الرصاص.

ومن يومها تنسك. وأقسم أن يكمل بقية عمره باستقامة ويعيش حياته بشرف. ولم يحدث أن نكث بهذا الوعد أبداً.

في الربيع انتقلت كتيبته إلى بودابست، وكان يومذاك قائد مجموعة، وحاصلاً على وسام تقدير يقلد خصيصًا لجرحى الحرب، كما كان صاحب ميدالية "يوجف فرنتس" الفضية، وميداليته البرونزية، ومتقلداً صليب "كاروى" العسكرى. وكان فى الوقت نفسه من مستحقى وسام ذكرى الحرب. وهذا الوسام الأخير بالذات، كان محببًا إلى قلبه كثيراً، فقد نقش عليه، فوق الشارة المجرية، بحروف نافرة "برو ديو إن باتريا". وقد ترك هذا المعنى، بعد أن ترجم له، بالغ الأثر فى نفسه.

حطَّت الكتيبة فى بودا، وحصل أفرادها على مأوى فى مدرسة أخليت من الطلاب، حيث تفرَّغ الجنود للأكل ولعب الورق. وأخذ وزن هابتلر يانوش يزداد، حتى بلغ سبعين كيلو غرامًا. ومع ذلك لم يبد بدينًا لأن هذه الزيادة قد تركزت فى صدره وعضلاته فضخمتها، وأخفت التجاعيد العميقة فى وجهه الغائر.

فيما بعد، كلَّفه الرائد الدكتور "ماتياش" بمهمة حراسية فى المحطة الجنوبية. فكان يتمشى منذ ساعة الفجر الأولى، حتى العاشرة مساء، بين السكك الحديدية، يمضى مهمته فى الاستماع إلى هدير قطارات الشحن، دون أن ينزل البندقية عن كتفه لحظة واحدة.

وكان ينهى نوبة الحراسة وحده، دون تنفيذ الإجراءات المعروفة الشائعة فى نظام تبديل الحرس. فعندما يحين الموعد، ولا يأتى البديل

يبادر رفاقه بالاحتجاج حانقًا ،ويحملهم تبعات مجيئه من الحراسة ، لأنهم تناسوه فى المحطة وحيدًا . وحتى الرائد الدكتور "ماتياش فيلموش" لم ينج من صدمة المباغتة الاحتجاجية. فطلب من هابتلر الصفح ، وقدم له كأسًا من البالينكا(*) وقال مهدئًا: ما من مشكلة. سأتدبر أمر الحراسة الليلية حالاً. إلا أن الواقعة ظلت تتكرر فيما يلى من أيام. وظل الدكتور ينسى دائمًا أن نوبة حراسة قائد المجموعة هابتلر يانوش قد انتهت.

لم يجد بعد ذلك أملاً فى الاحتجاج ، فلزم الصمت. وظل يتنكب بندقيته جائلاً بين السكك الحديدية يراقب حركات الناس وأرداف النساء المترجرجة ، حتى العاشرة مساءً. ثم يعود. يتعشى ، ثم يوصى على غداء اليوم التالى ،ويدلف إلى القاعة ، حيث يغفو على فراش القش تحت مصور أوروبا الطبيعية ، بعد أن يقيم صلاة العشاء.

لم يكن محبا للضجيج. كان متدينًا يتمتع بروح شفافة بريئة وكانت نكتته اللاذعة اللطيفة ، بين حين وآخر ، تثير دهشة رفاقه الجنود الذين يطلبون منه كل مرة أن يغنى لهم. وكان يستجيب لطلبهم بقلب نقى ، ويردد بصوت لا يقل نقاءً ودفئًا ، الأغانى الشعبية والألحان القديمة ، التى يبرع فى أدائها.

(*) المشروب الكحولى الشعبى فى المجر .

كان هابتلر يانوش شابا سليم الجسم ، معافى ، فائض الطاقة ، تتلبسه رغبة عميقة لعناق امرأة ، وبعد تردد وعناء طويل اتخذ قراره بإشباع رغبته. وكان له ذلك فى نهاية حزيران "يوليو" حين أرشده أحد العرفاء إلى نادى (الصياد الأخضر) الغني بالمرتادات من الجنس الآخر. وهذا ما يتيح لذائقته حرية الاختيار.

كان النادى في شارع "إرينا" وكان الجنود يراقصون الفتيات فى حديقته الواسعة ، ويغنون بصوت قوى (ماما تخبز ، والخباز يخبز ، ماما تخبز ثلاث فطائر...). وكانت الفرقة الموسيقية النحاسية العسكرية تعزف تحت شادر أحمر بين أشجار الكستناء.

قدم العريف الخبير بالمكان نصيحته الواثقة ، قائلاً ليانوش هابتلر:

– اختر فتاة. راقصها حتى تكل ، مظهراً إعجابك بحركاتها الراقصة. ثم تناول معها قدحين من النبيذ ، وابحث بعدئذ عن مقعد بين الأشجار ، بعيداً عن مصابيح الغاز.

اغتسل هابتلر بالماء البارد. وشذب شاربيه بالمقص ، وعلق نياشينه على صدره ، ثم اندفع بخطوات كبيرة ، وجذع محنى قليلاً ، قاصداً نادى "الصياد الأخضر" الموعود.

وقع اختياره على "ماريا بيك". حياها ، وقادها إلى حلبة الرقص حيث راقصها فى جو من الحر الشديد ، دون كلل حتى المساء.

لما أضيئت المصابيح اتخذا مجلساً حول طاولة طليت بالدهان تحت شجرة الكستناء. وكان قائد الفصيلة هابتلر يانوش يمسح العرق عن جبينه ووجهه.

وكانت ماريا بيك ضاحكة. إنها فتاة نحيلة ، قصيرة القامة ، صلبة النهدين ، يطلو عينيها فتور. وكانت الوحيدة من بين فتيات حديقة النادى ، بثياب مخملية سوداء وياقة بيضاء. طلبت كأسًا من النبيذ من نوع "كوفيدك" الحامض ، وقالت:

– أنا لا أتعرق مطلقًا. لذلك فإن بشرتى تطفح صيفًا بالبقع والبثور.

حين مالت برأسها كشفت له عن جيد قصير ظهرت عليه فعلاً بقع دائرية صغيرة.

حامت حول المصابيح المضيئة هوام دقيقة. وكان فى وسط الإسفلت حديقة زهور تنتظر قطرات المطر ، محدقة فى الراقصين ببراءة.

قطف هابتلر زهرة وقدمها لفتاته. ثم جلس راشقًا إياها بعبارات الإطراء الهادئة المحرجة ، حتى كادت أن تكون مخنوقة.

رفعت ماريا بيك وجهها النحيل واتسعت حدقتاها مما زاد فى بريق عينيها.

لم يتل هابتلر آيات صلاته هذا المساء ، بل استلقى حال دخوله القاعة تحت مصور أوروبا الطبيعية ، وغفا على الفور.

فى أول يوم أحد من شهر آب تقابلا ثانية فى حديقة النادى. كان الطقس حارا ،والجنود المأذونون الذين دوّخوا الفتيات بالرقص المتواصل والغناء، قد تصببوا عرقًا فوق الإسفلت المرصوص.

ضاغطة بيدها على منديل، جاءت ماريا بيك بلباسها المخملى الأسود المعهود، تتهادى بساقيها القصيرتين. ولابد أن كراسى الحديقة قد تأوهت تحتها ، كما ارتعشت قطفة الزهر على شعرها. طلبت قدحًا كبيرًا من النبيذ الحامض وقالت تكسوها حمرة:

– أنا حامل

فأجاب هابتلر:

– ما من مشكلة.

ثم لم يتفوه بشيء. ظلت عيناه فى الفرقة النحاسية إلى أن سرح فى البعيد. بغتة تبسم.

وفى صباح اليوم التالى طرق باب الدكتور "ماتياش فيلموش" فأجاب الرائد بصوت خافت:

– ادخل.

صحح يانوش من هيئته ودخل. أغلق الباب. وأسقط المزلاج ، وظل واقفًا على العتبة مغمضًا عينيه نصف إغماضة ، لأن الستائر السميكة التى تنسدل على النوافذ جعلت حدقتيه لا تألفان ظلام المكان إلا بعد حين.

كان الرائد واقفًا في أبعد أركان مستودع الوسائل الفيزيائية، وأكثرها ظلمة، حيث لا أثاث هنا إلا رف خشبي استقر فوقه ميزان حديدي صدئ. جلس على الأرض وقال بابتسامة رقيقة، بعد أن حدق طويلاً في الميزان الصدئ:

ـ اقترب، وأصغ لما أقول، سأتلو عليك وصيتي الأخيرة.

كان في القرب منه شمعدان فضي، وإلى جانبه منديل قذر ومزمار خشبي، ونوتات موسيقية تبعثرت هنا وهناك عند قدميه.

تقدم يانوش هابتلر في الغرفة المظلمة، وجلس قرب الشمعة التي تحترق في رمقها الأخير، واضعًا يديه على ركبتيه، محدقًا بفضول شديد في وجه الرائد.

كان وجهًا جميلاً، ما تزال جلدته مشدودة على عظامه القوية. إنه وجه رجل حقا. إلا أن صوته المتهدج وتكاسل حركة عينيه، إضافة إلى حالته المشهودة هذه، قد أوحت جميعًا، بانقضاء أجله المحتوم.

كان، من تأثير "البالينكا" خدرًا تمامًا. فارتخت نظراته إلى أمام. مسح أنفه المزكوم، وسعل سعالاً قويا. إلا أن حالة السكر من تأثير النبيذ أيضًا ما زالت سارية، فأجهضت الابتسامة على شفتيه وأسكنته في جزيرة أشباح تتوافد كالجَيوش.

إن في وسعه، في حالات كهذه، أن يضحك، لكن ضحكًا حبيسًا. وفي وسعه أن يطلق مكنوناته الخبيئة التقية، لكن بصوت واهن وابتسامة تأمل جامح ملجومة.

حزم أمره الآن. وجمع أفكاره فى المستودع الرطب وائتلق الضوء القديم فى عينيه ، فانتشل مزماره الخشبى بيديه النحيلتين ، وسرح قائلاً بصوت أجش ، وحسرة شاعرية مشوبة باللوعة والرثاء:

- سوف يأتى زمان ينفض فيه البشر غبار الحرب عن ذاكرتهم ويبيع فيه الشمّاعون الموز بدلاً من الشموع فى الشوارع. زمان تمتطى فيه النساء الفاتنات المنمقات الخيول فى الدروب الخضراء ، وينسى الناس أحاديثهم عن الدم المسفوك ، والموت المجانى. زمان لن يبقى فيه واحد منا يكن الحقد للألمان فى هذا البلد المسكين.

سرح القائد بعيداً ، مندمجًا فى نشيد ملحمى مؤثر ، وهو قابع بين الشمعدانين الفضيين ، وانبثت نجواه وقد داهمته نوبة مرضية ، وراح يجهش بالبكاء ، دافنًا وجهه بين كفيه النحيلتين.

قال يهذى: استحق أن أكون ملفوظًا ـ كان قد بعث فى لحظة جنون نوتاته ، وتناثرت على الأرض ـ وتابع هذيانه متوسلاً ألا يتركوه وشأنه ، وألا يسمحوا له بالتخلص من مؤلفاته الموسيقية ، وأن يحفظوها من الضياع ، لأنه فقد القدرة على صونها والحفاظ عليها ، لاسيما أنه بعد قليل سوف يمثل بين يدى الله فى مملكته العليّة. وأن السيمفونية مستوحاة من بحار الدماء المسفوكة والموت اللامشروع ، لكى تدين الحرب فى ذاكرة المجريين الخالدة.

رثى هابتلر كثيراً لحال الرائد المحزنة. وانقبض قلبه وأقسم بكلمات مؤثرة أنه سوف يرعى النوتات بريف العين ، وسوف يحملها معه

إلى "بروغتش "مسقط رأسه. وأنه يستعد الآن للزواج ويرجو إجازة مدتها عشرة أيام.

عندئذ راح الدكتور ماتياش يبحث عن منديله القذر وبدأت حالته تتحسن شيئًا فشيئًا. طلب صفحًا من هابتلر لأنه لا يفهم ما الذى أطاح به، وجعله يفقد عنان نفسه هكذا. لعل أيامه باتت معدودة على أصابع يد واحدة.

أكد يانوش هابتلز مخلصًا أن الرائد سوف يعمِّر طويلاً، إنما فى المقابل عليه أن يتجنب ما أمكن تناول النبيذ والبالينكا معًا.

لم يتفوه الدكتور فيلموش بشيء. بل أدار رأسه جانبًا لأن الدموع كانت تملأ مآقيه.

وبعد يومين سافر هابتلر يانوش مصطحبًا معه سيمفونية الرائد، وعروسه ماريا بيك.

وصل قطارهما مقاطعة (أكاتس) فى الصباح الباكر، وقطعا من هناك، فى الضباب الكثيف مسافة اثنى عشر كيلومترًا مشيًا على الأقدام لأن أسرته كانت تسكن فى "بروغتش" عند أطراف غابة الحور، بعيدًا عن المقاطعة وقراها.

إن أهالى بروغتش سكان أكواخ. يهم كاثوليكيون متشددون. ولكنهم مجدون فى أعمالهم، وعلى قدر من الطيبة والنزاهة يثير الدهشة والضحك، لذلك فهم يمضون أيامهم دون أية مشاكل تعترضهم. يعملون

خلال الأسبوع ويعزفون على القيثارات أيام الآحاد. وبين حين وآخر يغادرون غابة الحور، قاصدين المقبرة المحميَّة بكتل الرمل.

غضَّت العناية الإلهية الطرْف عن فلاحي "غروتش" الأتقياء وأهملتهم. وإن لم يكن كذلك، فإنها على الأقل قد أهملت الجثمان المسجى في دار "بال فرو". فالحر شديد وأسراب الذباب الأزرق جعلت الحالة أكثر سوءاً وفاقمتها. فمن بين تسعة أطفال لبال فرو، وبعد نواح قصير شغل الجميع هنا، انتقل الصبي آدم ليلة الأربعاء الماضي إلى جوار ملائكة الرحمن الصغار، قبل أن يبلغ السنتين من العمر. وها هو اليوم الرابع على التوالي، ولا تزال جثة آدم هامدة في صندوق الخزانة في باحة الدار، مما وتر الحالة وجعلها غير مقبولة، حتى بالنسبة لأذهان أهالي غروتش القاسية.

اجتمع الفلاحون الطيبون لتقديم العون للأسرة المفجوعة، إلا أن جيوبهم الفارغة خذلتهم، فطفحت قلوبهم بالشفقة الصادقة لكن القاصرة عن فعل شيء، حتى بعث السيد "بال نيار" تابوتاً أزرق، ودفع خمسة كورونات للقداس، وخمسة عشر "كريسار" لناقوس إعلان الوفاة. وبغتة وقعت الواقعة. وقفت "مشاهدة الموتى"(*) على طرف السياج وأبلغتهم أنه لا يجوز إدخال الصبي إلى المقبرة الممتدة من أطراف حقل الكرمة البرية، حتى خنادق المياه، لأنها مسكونة بالشياطين لافظي النار.

(*) التي تشاهد الجثث عرفاً للتعرف على هويتها أيضاً .

تهافت عندئذ فلاحو "بروغتش" ، بقلوبهم الطيبة ، ورسموا شارات الصليب على صدورهم ، موقنين أن عالمًا بشعًا لابد آت فهاجوا وماجوا وتفجعوا ، وولولوا ، وتبادلوا نظرات الدهشة وحدقات الريبة ، لما آل إليه مآل الإنسان فى الحياة الدنيا.

هذه الصورة المباغتة المثيرة لنبضات القلب ، هى التى استقبلت هابتلر يانوش وعروسه ، حين طلعا من خلف حقول الذرة الساكنة. فتسمرا يراقبان الطقوس الدينية فى دار "بال فرو".

أعلمت ماريا بيك على الفور بما يجرى. فاندفعت تخاطب جمع الأهلين بصوت من الفظاظة يفرض الاحترام والمهابة ، ونهرتهم دافعة ظهورهم بقبضتها الصغيرة. ثم تقدمتهم بثوبها المخملى الأسود ، وحذائها العالى كمتعهد لدفن الموتى ، قادم من جهة مجهولة. وأصدرت ، بلهجتها الحازمة ، أمرًا بالصمت. قالت إن جسد آدم بدأ يتفسخ ، وقد آن له أن يحمل ويدفن حالاً فى أى مكان بعيد من هنا ، ولتذهبوا أنتم وشياطينكم لافظة النار إلى الجحيم.

ذهب خطابها هباء. أمكن أن يستشف ذلك من الولولة والهياج ، لأن "مشاهدة الموتى" لا تخطئ ، ولم يحصل أن ارتكبت خطأ من قبل. وإن حفر قبر فى الأرض الواقعة ما بعد خنادق المياه يكلف خمسين كورونًا وأكثر. وهذا مبلغ لا يتوافر فى أكواخ "غروتش" مجتمعة. علاوة على ذلك أن آدم لن يستريح فى نومته بين القبور الحجرية حيث الأموات هناك ينامون بأحذيتهم.

ضاع كل رجاء عندما طلعت أم هابتلر من بين الحضور ، وصرخت بحماس مباغت حسم الموقف:

- يا إلهي! إلى بالثوم. يا ناس ، أسرعوا إلى المقبرة. الملكة ترسم الصليب حول القبر. ثم تظل ترسمه من أسفل حقل الكرمة حتى خنادق المياه.

وقف الناس ذاهلين. لا ينطقون حرفًا. حتى الملكة نفسها لم تنبس بحرف واحد. وحملقوا جميعًا في وجه "بال فرو" يستقرئون انطباعاته الطارئة. إلا أنه لزم الصمت أيضًا إثر نداء المرأة الحاسم. وتسمرت زوجته في مكانها ، لا تحرك جفنًا يبعث في زوجها الشجاعة. وشخصت في لون السماء الصارخ وقطرات العرق تسيل على جبينها.

عندئذ لوحت ماريا بيك بيديها في الهواء غاضبة. وطلبت إحضار الثوم على الفور ، وأمرت أن يرشدوها عن الطريق. هي نفسها ستخرج إلى المقبرة وترسم الصليب مرات عدة يجعل حتى العفاريت تغادر هذه القرية المجنونة.

اجتمعت النسوة ذوات السبحات ، وبدأن يتشاورن متحلقات حول الملكة "يوربالا" التي لم تستطع تحديد ما إذا كانت مطاردة الشياطين بالثوم تجدي نفعًا في مثل هذه الأيام التي تسبق موسم نضوج العنب. لذا ، وبناء على رغبة من ذوات السبحات ، فقد تقدمت الفتاة العرجاء من "مشاهدة الموتى" التي أدلت بفتواها حول أن طرد الشياطين بالثوم نافع

فقط فى يوم القديس لوقا الذى يصادف يوم الثالث عشر من أيلول أما فى أيام السنة الأخرى فلا يفيدهم الثوم فى شيء.

لم يوقع هذا النبأ المزعج البهجة إلا فى نفس أم يانوش هابتلر. لقد جاءت كنتها التى تراها للمرة الأولى، ولا تعرف عنها حتى اسمها لكى تلطخ بتصرفها الطائش سمعة عائلة هابتلر بالوحل. فما الذى تبغيه هنا هذه الأنثى؟ إن الطفل "آدم فرو" تتولى العناية الإلهية أمره، وسوف يدفن تحت التراب عاجلاً أو آجلاً. وهذا بديهى، لا يحتمل الشك فى نظر الجميع. فمن غير المعقول أن يبقى متروكا" هنا يتفسخ، ويعيش فيه الدود. هذه حقيقة ناصعة كالكتاب المقدس. فما ضرورة مجابهة الشياطين لافظى النار. لا سيما أن ألسنة نيرانها قد التهمت غير كوخ هنا.

ثم مَن منَ الحاضرين لا يعرف ما حصل لاشتفان كوكش السكير الذى كان يتبوّل على القبور من خارج سياج المقبرة، يوم اشتعلت عربته فى الليلة ذاتها، حتى ترمدت بفعل النيران المندلعة تحت المطر المدرار، وبالتحديد أمام الصليب، لأنه لم يرفع قبعته، خشوعًا، عن رأسه. لقد صحَّ ما توقعته أم يانوش هابتلر. ففى اليوم نفسه دفن الصبى آدم ونام قرير العين فى المقبرة الرملية. وجاء القس، وبارك التابوت الأزرق، وقرأ فوقه باللاتينية، ثم قرع ناقوس الموت، كما تجرى العادة.

وهكذا انفرجت هذه المحنة القاسية، وما لبثت أن تلاشت ذكراها من نفوس أهالى غروتش الصالحين.

بعد النبأ المزعج أدرك الأهلون الكاثوليك المؤمنون فى غروتش أن لا منقذ لهم سوى التعبد وإقامة الصلوات. فكانت النسوة ذوات السبحات يسجدون على الرمال الحارة ، يبتهلن ، ويتضرعن ، إلى مالك السماوات ، ويتوسلن إلى السيد المسيح أن يستجيب إلى أدعيتهن ، ويأخذ بيد من أشقته الحياة منهم ، وينتقل عابراً برعاياه من هوة الألم والعذاب إلى رحاب السلام والطمأنينة ، وأن يطرد جبرائيل كل الشياطين من القرية.

كانت الشمس تسطع فى وسط الباحة ، حين وصل تحت وهجها دركيان يتمهلان السير هوينى. كأنما لا شاغل يشغلهما أبداً . وبقدوم الدركيين ران سكون جعل الجميع فى باحة "بال فرو" ينصتون لهسهسة العليق تحت خطواتهما الرتيبة المترفة.

كان الدركيان ودودين. لم يوح وجهاهما الأسمران الداميان بأية نية عدوانية إزاء أحد. بل على العكس من ذلك ، فقد وزعا النظرات صريحة فى رقتها نحو الجمع الجافل.

وقفا فى باب الدار. وأخفضا البندقيتين عن الأكتاف مجردتين من الحربتين الثلاثيتى الحد. فلم يكن فى نية أى منهما طعن أحد فى بطنه ولا رفع النعش وتدويره فى الهواء. فقط أنزلا البندقيتين وسنداهما دون حراب على حذاءيهما.

وكما كان متوقعاً فقد بدأت النسوة ذوات السبحات باحتجاج هستيرى فارغ ، فهرولن صارخات ، ملوحات بأذرعهن ، وتحلقن حول

التابوت يرمزن بذلك إلى أنهن لا يسمحن بأى حال من الأحوال بأن يسلم جسد آدم فرو للشياطين.

بدا على تصرفاتهن من الغرابة ما جعلهن يبدين أشبه بالمعتوهات. جحظت عينا الملكة بوربالا ، وأطلقت من فمها الأدرد زعقات جعلت الديكة المتسكعة فى الباحة تصيح ، وتفر مذعورة ، والغبار يتطاير من حولها كأنما هى نوبة صرع.

سرى فى نفوس الناس ذعر شديد ، فانقصمت ظهورهم ، وهاجوا ، وراحوا يطلقون صيحاتهم المجنونة المتوعدة من كل صوب ، يهددون الدركيين. كان البعض يتوعد باسم السيد "كريشو فيتش" ، وآخرون باسم السيد "بال نيار" والبعض الآخر باسم "فاكرى" . أما بعضهم القليل فكان يذكر اسم الإقطاعي "كال ميهاى" بشيء من الحياء وبصوت أقل عنفًا وهياجًا ، كأنما يخجلون من أن ممتلكاته لا تزيد عن ثلاثمائة فدان. ليست الآمال ، بل الذعر هو الذى كان يبعث فى الجميع الحماس والهياج.

لا يجوز للدركى أن يتساهل ويتهاون. كان العريف بينهما دركيا خبيراً. حملق فى رجال "برونتش" مستعرضًا ، بدقة فاحصة وجوههم واحداً واحداً ، واختار من بينهم حفار الآبار "جورى فاركا" لأن له عينين مغموستين بوضاعة ظاهرة ، تقدم منه وتلقفه بصفعة. ساد هدوء. أغلقت / بور بالا/ مغارة فمها ، وتخلت النسوة ذات الصدريات الوردية عن

الولولة ، والتزمن الصمت. وكان يستحيل أن يلاحظ على وجه العريف أى ملمح للقلق ، بل ظل باسطاً كفه الصافعة وهو يحدق بترقب فى الشخص المصفوع. كان الدركى الآخر الفتى يعبث مشدوداً بحلقة حزام البندقية الجلدى.

ومن خلف غابة الحور سمعت أصوات النواقيس البعيدة.

رسم حفار الآبار "جورى فارغا" صليباً على صدره ، ومسح بمرفقه الدم عن فمه وخرج من الباحة. إن قاطنى الأكواخ من البشر سذج إلى حد مثير للضحك. فعندما نهرهم العريف قائلاً: كفوا عن جنونكم! وانصرفوا إلى منازلكم! لم يبد أى منهم استنكاراً ، بل تلملموا مقتنعين أن العريف على صواب.

كان ممكناً أن لا يكون ، ثمة حاجة لصفعات أخرى ، لكن الدركى الآخر ضاق بنفسه ولم يحتمل الحالة. لعله الحماس ، هو الذى ألهب الفتى النحيل الواسع الجبين. أو لعله أراد أن يجرب قواه ما دامت سلطته تسمح بذلك. وربما أيقظ الوحش داخله هذا الجبن المشهود أمامه ، وابتسامة "جورج فارغا" الملوحة بالوعيد. وربما قد أصابه الذعر فى مواجهة هذا الجمع الرث الخاضع المثقل بالكثير. لا أحد فوق هذا الفناء الأخرس يعرف سبباً لذلك حتى الدركى نفسه بغضب ما خفى راح يكيل صفعاته كيف ما وقعت كفه. وهز "بور بالا" من شعرها. وركل "بال فرو" ركلة لم يكن لها معنى فقد تبين أنها تنم عن سذاجة وغباء ، لأنها

فيما بعد جعلت "بال فرو" متثاقلاً وهو يدفع العربة الحقيرة على الدرب المؤدي إلى المقبرة. حتى إن العريف فقد صبره ، فصارت صيحاته هي التي تستحثه على السرعة ، تلك الصيحات الأشبه بصوت "فلوت" زاعق. وهكذا حتى انقضت مسافة ثلاثة كيلو مترات في القيظ الحارق.

وبسبب سلوك "ماريا بيك" الغريب ، اقتصرت إقامة الزوجين الشابين في بروغتش على ثلاثة أيام. وكانت أيامًا بشعة أيضًا ، من النكد الدائم. ولم ينقذ المرأة ذات الثياب السوداء من " القتلة" الأولى إلا صبر "هابتلر يانوش". وقد اضطر بعدها قائد المجموعة أن يشهر كفه غير مرة.

ليلة اليوم الثالث اعتكر الطقس. اختفت النجوم والقمر ، وعصفت الرياح حتى الصباح. وخيم الذعر في أرجاء المنطقة الريفية. صفرت الأشجار ، وارتجفت فروع شجيرات الكرمة في صفوف على مد النظر. وتلامعت في الهواء قطرات الندى. ومن البعيد شمالاً ، كان يتناهى إلى الأسماع غضب غابة الحور الكثيفة.

وبجهد جهيد ، وفم فاغر أخرس ، استنشقت "ماريا بيك" الهواء وهي تنطلق راكضة في مواجهة الرِيح. وبحذائها المودرن راحت تتعثر على الرمال الصفراء حتى بلغت السكة الحديد. توقفت. استدارت بسحنة مقهورة. صاحت ، صرخت ، ضربت قبضتيها في الفضاء العاصف. ثم انفجرت في نحيب شديد. لحق بها هابتلر يانوش ، ولفها بسترته. أمسك

أصابعها الخشنة المعقوفة، وسلك بها الطريق العام الخالي. وانطلقا صامتين تكتسح وجهيهما الريح العاتية.

أعقبت زفافهما الملعون مفاجأة غريبة، تمثلت في اختفاء الدكتور "فيلموش ماتياش" من الكتيبة كلها. كان يمكن لـ" هابتلر يانوش " أن يبحث عن مجموعته لو أنه عثر على أحد ما في المدرسة الواقعة في بودا(*). قصد بعدئذ، شارع "بايزا" - ١٤ إلى منزل المحامي كوليش ليناقش مع ماريا بيك الواقعة المشئومة. أجلسته "ماريا بيك" في المطبخ. وقدمت له اللحم المشوي، ونبيذ الدراق.

- بقي قسم من النوتات - قال هابتلر - سأعزفها على "الفورولا" كل مساء!

فقالت ماريا بيك: علينا التحدث مع السيد كوليش لأن المسألة ليست لعبة. إنها مسألة حياة أو موت، ولا مزاح في الموضوع.

وبعد الظهر دخل "هابتلر" إلى غرفة المحامي، يرجو استشارته. كان المحامي كوليش إنسانًا ودودًا، أجلس جندي الاستقلال، وأصغى إليه بانتباه. لكنه لم يعط جوابًا. خطا إلى النافذة. سحب الستارة ذات اللون العظمي، وجال بنظراته في الشارع. ثم عاد إلى طاولة مكتبه الأنيقة المنمقة، المزدانة بتمثال أسد يستقر فوقها. أحنى جبينه على

(*) بودا : نصف من بودابست يفصلها عن نصفها الآخر (بست) نهر الدانوب .

راحتيه. ظن هابتلر أن المحامي قد غرق فى النوم، فاحتار فيما يفعل. راح ينقل عينيه بين أثاث المكتب والكتب وآنية الزينة الفضية الكثيرة.

حين أطلت ماريا بيك بثيابها السوداء وقميصها الأبيض، تدخل القهوة، دبت الحركة فى المحامي. مسح نظارتيه، بقطعة من جلد حيوانى قرنى.

أضاف سكرًا إلى فنجانه المنمق بالذهب. وبينما كان يرتشف القهوة اللذيذة، راح يطمئن، بصوت تهكمي ساخر "هابتلر يانوش" قائلاً: ما من سبب للخوف والقلق. لقد بدأ يدرج فى المجر أيضاً الفرار من الخدمة العسكرية.

- هل لديك صنعة، مهنة!

- نعم. أنا نجار.

- برافو! نلتقى فى ساحة "غريف"

هز كتفيه موافقًا

- يمكنك البقاء هنا ريثما تستلم سلطتك - وأطلق ضحكة مدوية.

وفى اليوم نفسه انتقل هابتلر يانوش بأغراضه إلى البيت الكبير بغرفه الست. وسرعان ما تبين أن ماريا بيك أبرع منه بكثير. ولكنها أحسنت توظيف كل ما يمتلك من ميزات، وإن كان يتصف بأنه إنسان بطيء الحركة، يفتقر إلى المهارة قياسًا إلى جانب ماريا بيك.

كانت "ماريا" تنجز كل عمل. واقتصر عمل هابتلر على مهمتين اثنتين لا غير. إحضار الخشب من المستودع ، وطبخ الصمغ لـ "إلونا كوليش" السيدة الصغيرة التى كانت تملأ وقتها بتجليد الكتب. وفيما عدا ذلك بطلت مواهبه. وكان يشعره عجزه عن أداء أى عمل آخر ، بخجل شديد. كانت سعادته عامرة ومفهومة ، عندما استدعاه المحامى فى يوم حافل مطير ونصحه أن يتقدم للحرس الوطنى بالتحديد. ثم أضاءه ببعض المعلومات ، منوهًا ببعض كلمات إلى خطورة الحالة وصعوبة الوضع ، والتحرك الروسى ، والوفاق العالمى.

– قيادة اللواء المشترك على مقربة من هنا. وتستطيع كل مساء أن ترجع إلى زوجتك.

لم تبد ماريا بيك تحفظًا على الخدمة العسكرية.

وهكذا. بمزاج صاف ، وهمة عالية ، قصد هابتلر مبنى قيادة اللواء المشترك ، القريب حقا من منزل المحامى. ومن سخرية القدر أنه أرسل عصر ذلك اليوم إلى المحطة الغربية.

كانت خدمة مريحة. استقبلوا أثناءها التشكيلات المتنقلة وزودوا الجنود بالطعام ، والتبغ.

عندما تأسس الجيش الأحمر ، حصل هابتلر على النجمة الخماسية ، وعلقها على قبعته. وبروح متزنة رصينة خالية من الوقوع فى الأخطاء كان ينجز كل ما يوكل إليه من مهمات. لكن بطريقة غبية خسرا منزل

المحامي ، إثر حادثة بسيطة. ذات صباح انهمك الجميع يبحثون عن بطاقات الحليب الشهرية فلم يجدوها. زعمت زوجة المحامي أن ماريا بيك هي التي أضاعتها ، بل سرقتها. بكت "ماريا بيك". نبشت كل البيت للبحث عنها ، وعندما أخرجوها من أحد الأدراج ، ثارت ثائرتها ، وأهاجت حتى الهواء من حولها ، حتى استحالت تهدئتها. فبدأت ترشق امرأة المنزل بالعبارات الفاجرة. فقد المحامي صبره. جرّدها من الثياب المخملية السوداء والقميص الأبيض بالكم الأسود المطوق لمعصمها ، وطردها دون شهادة الخدمة. بدلت ماريا ثيابها وقالت بفورة غضب فاجرة : ما الذي عليه أن يفعله بشهادة الخدمة والثياب الفظيعة ، وانصرفت.

انصرفت إلى ابن خالها "يوجي شتاد نيفر" الحجار الذي صار متطوعًا مترقيًا في الجيش الأحمر. لكن لم يجدها ذلك نفعًا.

وضعت طفلتها الأولى في مشفى "زيتا" في العشرين من كانون الثاني "يناير" سنة ١٩٢٠ . وبعد إقامة طقوس المذهب الإصلاحي ، حصلت المولودة الصغيرة على اسم "غيزيلا".

كانت المدينة ناصعة في بياضها.

وبعد أيام تحول الطقس أيضًا وصار طقسًا قارسًا. توقفت ندف الثلج الكثيفة ، وراحت الرياح الحادة تسوق الغيوم. وفي "بودا" برزت الشمس فوق القلعة تحدق في المكان بصرامة الحاكم.

وخدمة لعملها الجديد فى التنظيف ، سكن الزوجان "هابتلر" فى شارع "فيومى" فى قبو يتسع لشواهد القبور ، ويطل بنوافذه الست على رصيف شارع "ليغاس" المعبد بالأحجار.

ولم يتوقف صياحهما وتخاصمهما بعد ذلك ، كل مساء حين يطفئان الشمعة بقصد الهجوع للنوم. وسبب الخصام الخوف من الإقامة بين الأحجار الرخامية وفقدان الأمل فى تغيير مصيرهما اللا إنسانى المنحوس.

وقد كان "يوجى شتاد نيفر" يناصر أحد الطرفين تارة والثانى تارة أخرى. حتى قال أخيراً . كلاكما محق ، كذلك المحامى كوليش. هنا صرخت ماريا بيك فى وجهه مجهرة غضبها المريع. حتى رشقته ذات مرة بمطرقة خشبية كانت قربها. ثم تلقفت ، بعدئذ ، طفلتها غيزيكا الباكية ، وحضنتها. وظلت تغنى لها ساعات بطولها:

من بابا إلى فراشة

ومن هنا إلى "كوما روم"

لقد كان "يوجى شتاد ينفر" شخصًا متلفًا للأعصاب. فكان كل مساء يلف نفسه ببطانية ويندس فى حضن "ملاك" حزينة مطبقة الجناحين يزيد ارتفاعها عن خمسة أمتار ، عاكفًا على الصلاة بصوت خشوع ، راسمًا بذراعيه الطليقتين حركات غريبة يوزعها فى كل اتجاه. كان مشهداً مريعًا تحت حزمة الأشعة الخضراء المصفرة ، المتسربة

من ضوء المصباح الغازى فى الشارع. لذا فإن هابتلر يانوش رجاه بلطف ألا يلوح بيديه لأن الرب لا يرى هذا بعين طيبة. فضلاً عن أن الطفل يصاب بالرعب جراء الكيس الذى يلبسه.

أصغى "يوجى" إليه جافلاً. ثم بدأ يتحرر من كيسه. وقال إنه يشعر بقشعريرة من البرد ، وطلب أن ينتقل بكيس اللباس إلى خلف شاهدة القبر ، حيث استأنف صلاته بتمتمات متخافتة مرتبكة.

نحو الساعة العاشرة قبل الظهر دخل الجنود عبر الباب الحديدى إلى باحة أحجار القبور. كانت ماريا بيك تشطف الدرجات المؤدية إلى المكتب ، يكاد الدم ينفر من وجنتيها.

خرج الحجار "بال بالازناى" من المكتب وسأل الملازم عما يريده هنا. ثم قاده إلى "يوجى شتاد ينفر" الذى كان منهمكًا فى عمله تحت السماء المفتوحة ، حتى اقترب منه تمامًا.

ارتعش يوجى حين خاطباه باسمه. وضع الإزميل والمطرقة ونهض عن حجر واطئ يقتعده ، ثم استدار فى مواجهة الملازم. وأجاب عن كل ما وجه إليه من أسئلة.

كان الملازم يدلى بأسئلته من دفتر بين يديه. وكان "يوجى" يتحدث بهدوء ووضوح. سرد له أنه ولد فى "تاج كاسى" فى العاشر من أيلول "سبتمبر" عام ١٨٩١ . والدته "جوفيا بيك". اعترف أنه خدم لدى الحمر. وقاتل فى "شالفو تريان" ونفى أى مشاركة له فى مكان آخر.

– أيها السيد الملازم (قال بغتة، وبارتباك وقد اعترت الحمرة وجهه). أيها السيد الملازم أنا مجرى ابن مجرى، متدين. وهذا سيؤكده لك أى شخص حتى السيد المحترم "باتاى". أنا رجل (شغيل) أعمل فى كل مكان هنا فى "ناج كاسى". فى الكنيسة، فى المقبرة، فى قصر "ميشاك". فى حديقته. فى نقش تزييناته. الجميع يشهدون باستقامتى فى العمل. تفضل واسأل عن كل هذا.

وبراحات مفتوحة معلنة الاستعداد، استجاب الجنود لأمر الملازم باعتقاله. وبينما كان الضابط يجرى حديثه مع حجار القبور كان الجنود يوقفونه إزاء السور مديراً ظهره إلى الباحة. وتكفل أحدهم بمنعه من الاستدارة. أما هو فقد سلك سلوكًا هادئًا نفض الغبار عن مريوله، وهز رأسه. واقتيد على الفور.

فى الطريق لم يبد عامل الحجارة أى سلوك من شأنه أن يسبب مشكلة. لم يحاول الهرب، بل مر بهدوء بين الجنود مطرقًا فى حذائه. وعند مدخل البناية الدكناء فى شارع "أولوى" توقف تحت الشمس الشتائية. استدار إلى الخلف. لكنه لم يبصر سوى قلة قليلة من البشر المسرعين، البردانين، سوى الجدران الصلعاء وعربة نقل متثاقلة على جسد الطريق تحمل سماداً. انبتر تجوال عينيه حين نهره الضابط لاكماً ظهره. فبوغت "شتادينفر" وفقد توازنه على الحجارة المرصوفة. وعند المدخل تمامًا سقط على بطنه. السقوط المفاجئ أنعشه، وأيقظ فيه الوحش فبدأ يزأر، ويزعق، ويمرغ نفسه على الأرض بين جزمات الجنود. كان تصرفه مقصوداً وعن سابق إصرار. زأر:

– لدى عـمـل. أطلقـوا سـراحى. وبـأمـر من الملازم رفـع الجنود العـارضـة البـيضـاء – الحمـراء – الخضـراء ، ينهالون عليـه ضربًا على رأسه ، حتى الموت.

فى السـادس عشر من شـهـر شـبـاط "فـبـراير" عام١٩٢٠، وفى ظـهـيـرة "يوم جـوليـان" حدث مـا حدث. وقـفت مـاريا فـى شـارع "ألوى". وضـعت بطـانيـة شتـادينفر على قدمـيها ، وأسندت ظـهرهـا علـى جذع شجرة شابكة أصابعها فوق بطنها. وأخذت تشهق بكاءً.

وليس بعـيداً من ثكنة "مـاريا تريـزا" أعلنت نـواقيس برج "كنيـسـة العبادة الأبدية" حلول الظهيرة. فى ذلك اليوم الذى لاحقه الجنود ، وبعد أقل من سـاعـتين من الحادثة ، كـان هـابتلر يـجلس فى القطار راحـلاً بطفلته إلى "بروغنتش". لم ترافقهما ماريا بيك التى أجهرت: ما إن أمه لم تعتذر إليها ، ستبقى محرماً على قدميها أن تطأ عتبة ذلك البيت.

لم يبد هابتلر رداً تجاه تصريحها. رتب مخطوطاته بعد أن أحرق بعضًـا من الأوراق خلف شـاهدة القبـر. ووقـف حـائراً فـيمـا هـو فـاعل بمتروكات " الدكتور فيلموش". تصفحها. تأمل فيها. هز كتفيه تعبيراً عن حيرته. ثم أعادها إلى جيب معطفه الشتوى الهدية من المحامى كوليش ، قبل وقوع الفضيحة إياها.

لفت مـاريا بيك غيزيكا بالقماش ، ثم أحكمت قماط الطفلة بدبوس. لم تكن طفلة جميلة. كان وجهها متطاولاً أشبه بوجه أبيها. أفاقت مرتعدة

من نومها. ارتجف فمها الأدرد. وصرخت ملء رئتيها. فكان من المرأة أن هزتها ، ناهرة لاعنة.

تناول هابتلر الطفلة منها قائلاً:

- كان المحامى كوليش محقا حين قال: حرام وجودك بين الناس.

وانصرف مجتازاً الصلبان ، وقطع الرخام والملاك الأطول من خمسة أمتار ، بجناحيه المطبقين. وصعد الدرجات مسرعًا.

جرت ماريا بيك وراءه. توقفت عند المدخل الحديدى وراحت تصرخ حتى ملأت الشارع المترامى تحت ضوء ما بعد الظهيرة ، بالعبارات الفاجرة.

كان يقف قرب السياج الأصفر الذى يسور مركز تعبئة الغاز ، أشخاص بثياب رثة وشعور طويلة شعثاء ، ولم يكتموا ابتهاجهم بمشهد السيرك المجانى هذا ، الذى تقدمه المرأة الشابة بإيماءاتها.

تابع هابتلر يانوش جريه ، حتى توقف قرب صندوق بريد فى شارع "برجينى". عدل من وضع الطفلة على ذراعه ، وانطلق بانحناءاته المعهودة يحث خطى طويلة صوب المحطة.

وجدت ماريا بيك عملاً. صارت تقوم بتنظيف الممرات ، والمكتب ثم تنتقل إلى الجناح الخلفى من فيلا "بال بلازناى" ترتب غرفها الثلاث الأرضية. تنظف السجاد. تمسح غبار الأثاث ، تغسل المطابخ والمرافق

المنزلية حتى صدمتها زوجة "بلازتاى" قائلة بأن لا مكان للعمل هنا بدون بطاقة خدمة.

باتت ماريا بيك ليلتين فى قبو جيش الإنقاذ المكتظ بفرشات القش ، حيث نصحت بالذهاب إلى جمعية "مارتا" ، وإذا ما كان الحظ حليفها فسوف تستقر هناك دون الحاجة لبطاقة خدمة. حسبها ببساطة أن تقول إنها كاثوليكية وإنها تؤم الكنيسة بانتظام ، وتصلى ، وتتبارك. وباختصار حسبها أن تقول ما تنتظر منها جمعية كاثوليكية.

وهذا ما حصل. ذهبت ماريا بيك إلى شارع "ريالتانودا" حيث قابلت هناك مسئولات الوحدة النسائية ، اللواتى استجوبنها بأدق التفاصيل ، وسجلن أقوالها ، ثم طلبن إليها المكوث فى غرفة الانتظار. جلست على البنك بين النساء الثرثارات ، وأخذت تلغو معهن. وكانت بين الحين والآخر تدخل إلى غرفة الانتظار إحدى النساء اللواتي يبحثن عن خادمة فيها ، فتتفحص الجالسات بنظرات مدققة. وكن عندئذ يلتزمن الصمت. وإذا انتقين منهن واحدة شهقن ، ثم استأنفن الثرثرة.

كان نصيب ماريا بيك أن تعمل لدى طبيب لأمراض الرئة. كان أعزب. نحيلاً ، قليل الكلام. وكان منزله ذو الطابقين مكتظا باللوحات الزيتية الدينية. وفى غرفة نومه علقت صورته الخاصة التى تميزت بعينين واهنتين ذابلتين ترنوان إلى الأسفل باتجاه سرير نومه وغطائه الحريرى قرب الجدار.

أكسبت يدا ماريا بيك المنزل ألقًا وروحًا. كانت وجبات الطعام التى تعدها شهية مختارة. ولم تفوِّت أن تفتح للمرضى باب المنزل عصر كل يوم. تأخذ عنهم معاطفهم ، وتعينهم فى جلوسهم. ولكنها ، فى العيادة ، لم تمسح الغبار عن الجمجمة على طاولة المكتب البيضاء ، لأنها لم تتمكن بحال من الأحوال من الوصول إليها.

وفى يوم الأحد من الأسبوع الثانى ، وبعد العودة من الكنيسة ، حيث استمع الطبيب إلى القداس الإكليلى لموزارت ، سمح لماريا بيك أن تستقبل هابتلر يانوش فى غرفة الخدم ، مدة ثلاثة أشهر ، شرط أن تقتصر إقامته على وقت النوم ، من التاسعة ليلاً ، حتى السابعة صباحاً.

وبحث هابتلر عن عمل ، فاشتغل عتالاً حينًا ، وباع الفاكهة والخضار على عربة بعجلتين حينًا. وكان سعيداً هكذا. وكان يودع دخله بالكامل ماريا بيك. وكانا كل سبت يذهبان إلى البريد ويرسلان إلى بروغتش نقوداً أكثر بكثير مما يحتاج أهله لتنشئة غيزيكا. أصرت ماريا بيك على ذلك.

اقتربت نهاية الشهر الثالث مع شعورها بالخطر ، وصار بيتهما فى غرفة الخدم قلقًا. وصل هابتلر إلى حل وحيد.

العودة إلى بروغتش والإقامة لدى الأهل ، والعمل لدى "غال ميهاى" أو فى أرض السيد "بال نيارى". لكن ماريا رفضت حتى الآن الإنصات إلى حديث من هذا النوع.

قصد عيادة الطبيب مهندس معماري قصير ، بدين يعاني من مرض في المعدة. ومن هذا المعماري ترقبت المعجزة. ذات عصر ساعدته في خلع معطفه ، وتناولت منه عصاه. وانتظرت حتى يستقر في جلسته على الكنبة. اقتربت منه بعد أن طلبت المعذرة ، وركزت عينيها الزرقاوين الباردتين ، على نظارتي الرجل البدين ، وسردت له مشكلتها بجرأة واختصار.

نظر المعماري في المرأة الصغيرة ذات الصدر المشدود. تبسم. أجاب بأنه سيحاول جاهداً ، ويأمل أن يقدم لهما العون. وطلب منها أن يراجعاه في المكتب في شارع "توكر".

قصد هابتلر المكتب. انحنى أمام المعماري. قال إنه عمل نصف عام لدى معلم النجارة "نيمت إمره" وحصل على الشهادة. ثم خدم جنديا في كتيبة الرماة. وحارب. وراح متمسكناً ، يسرد ما يتمتع به من مواهب.

تناول المهندس قصاصة وخط عليها شيئاً ، وأرسله بالقصاصة إلى مكان البناء في شارع "فاشوت". وقع ، هذا اليوم الحسن الطالع ، في السابع عشر من شهر آب عام ١٩٢٠ . انطلق هابتلر بالقصاصة إلى المكان وسلمها لرجل ألماني أحمر الوجه ، ببنطال ليموني من المخمل ، كان يصيح واقفاً أمام براكةٍ. قرأ الألماني القصاصة ، ثم شهادة الكفاءة وقال: حسناً. تعال غداً صباحاً الساعة الخامسة!

في اليوم التالي لم يلتق هابتلر الألماني ، ولم يمسك قدوم النجارين أبداً.

كان ينتظره فى بيت الطبيب استدعاء يبلغه حضوره الإلزامى إلى القسم السياسى لوزارة الدفاع الواقع فى شارع "المسرح" ـ ٧ . وذلك فى الثامن عشر من أب "أغسطس" الساعة العاشرة قبل الظهيرة. وكان الاستدعاء يحمل توقيع قائد الفصيلة الدكتور "فيلمون ماتياش" تحت الخاتم الرسمى.

لم ينم الزوجان ليلاً، بل أكثرا من اجتراع النبيذ. ولم يفارق الاستدعاء تفكيرهما واستغرقا فى تحليله مترقبين ما سيحدث فى اليوم التالى. قالت ماريا بيك: يجب أن تكذب. وبشعر منكوش وروح قلقة جلست فى السرير ، وقد جعدت بيديها البشعتين وأصابعها المنعقفة غطاء البوبلين ، وراحت تلعلع بصوت هيستيرى فى الهواء ، وعيناها الفاجرتان تبعثان الجنون فى نفس هابتلر.

اختلطت الأشياء في ذهنه ، وتشوش عقله ممتلئًا بالضباب. كان حديثه أهوج يفتقر إلى التركيز. بعثر المتروكات ، والنوتات فى كل مكان. ضرب بقبضته على الطاولة ، قائلاً إنه لا يخاف ، وإن من يكتب وصيته الأخيرة سيمثل عما قريب بين يدى الله. وإن الذى يمثل بين يدى الله لا يمكن أن يضمر نية سيئة.

طمأنته فكرته هذه. مسح جبينه المتعرق. أثنى على رجاحة عقله. انسل فى السرير الحديدى إلى جانب ماريا بيك. وراح يملى للمرأة ما سوف يقوله لقائد الفصيلة السكير. وبسحنة متوسلة وصوت برىء باك

أنشد: سيأتى زمان ينفض فيه البشر الحرب من ذاكرتهم ، ويبيع فيه الشماعون الموز بدلاً من الشموع فى الشوارع. زمان تمتطى فيه النساء الخيول فى الدروب الخضراء. وسوف ينسى الناس أحاديثهم عن الدم المسفوك والموت بلا سبب. زمان ليس فيه واحد منا يكن الحقد للألمان فى هذا البلد المسكين.

انفجرت الضحكة من ماريا بيك ، وغلب الزوجين ضحك لم يستطيعا كبحه لدقائق. لكن ما حدث فى اليوم التالى ، كان مخالفاً لما يمكن أن يدور فى أفق أحلامهما.

شارع المسرح كان فى الحى I فى القلعة. والبناء رقم ٧ قام فى منتصف الشارع القصير ، المستقيم ، بلاط جديد يغطى البناية بطوابقها الثلاثة. وقد طلى حديد نوافذها باللون الرمادى. اجتاز "هابتلر" عتبة الباب الخشبى إلى ممر هادئ أبيض اللون. وأقام مفترق سلم باتجاهين أوقفه ضابط شاب وطلب منه استدعاءه وبطاقة هويته وسأله عما إذا كان يحمل سلاحاً. وعند الجواب بالنفى قام الضابط بتفتيشه.

رافقه جندى إلى الطابق الثانى. وبصمت مطبق عبرا درجات السلم والممر الطويل بأبوابه المتشابهة حتى توقف الجندى ، وأشار لـ "هابتلر" ، فدخل إلى إحدى الغرف.

جلس فى الغرفة ضابطان. المقدم "أمرة تاشنادى" الأنيق. والقس الإنجيلى الرائد" أنتل بورباش "الذى تقلد فوق لباسه الرسمى البنى

اللون صليبيًا صغيراً. وبعد دقائق أدخلاه عبر باب بني إلى مكتب الآمر "ماتياش فيلموش".

كان الدكتور ماتياش فيلموش رصينًا شاحبًا. وكانت عيناه البنيتان رصينتين أيضًا ومنتعشتين. ظهر على الضابط ذي الخمسة والثلاثين ربيعًا اضطراب مفضوح. كانت يداه النحيلتان المضمدتان ترتجفان ويلتمع حوله إصبعه فص من حجر كريم ، يستقر وسط خاتم من البلاتين.

وبابتسامة توحي بالتقدير شكره على المتروكات ، والنوتات. انحنى ومسح جبينه. قلب الورقة الصفراء. وبنظرات مشتعلة حملق في البطاقات المكتوبة بالحبر. وبدا على وجهه أن روحه تلتهب من جديد ، وقد أطلقها نداء الموسيقى.

وضع الأوراق في الدرج وأغلقه. ثم بدأ حديثه العشوائي الحائر بعينين مشتعلتين.

لقد عجت كلماته النابعة من أعماق روحه بالمشاريع وعبقت بالأحلام. استشهد بعبارات دقيقة من رسائل الرسول الحواري "بال". وكان يروم أن يبدع سيمفونية إلهية ، تكون نشيداً للثالوث المقدس ، وأن يسهم في الموسيقى المجرية الوثنية ، وأن يؤلف أعمالاً تعزفها فرق موسيقية ضخمة تتخللها الطبول والصنوج ، وفجأة أجهز بأنه يشعر بحرارة جهنمية. وبحركات مرتجفة خلع سترته ثم قميصه ، فبدا جسمه يلمع حقا من العرق. دخل مقصورة المغاسل وكان يتناهى إلى الأسماع كيف يضرب الماء على جسده.

رجع مبتسمًا. نشف عنقه وصدره. كان الماء ينقط عن شعره الغجرى الأسود. وعندما خطا إلى النافذة ، تبدلت سحنته وجاء وقت الجد. أومأ لهابتلر أن يقترب منه عند النافذة ففعل.

فى الباحة السيراميكية جلس الضابط حول طاولة سطحها من اللباد الأخضر ، حيث كان ممثل النيابة العسكرية يقرأ الحكم جهاراً ، على أعين الحضور. كان المحكوم بالإعدام شنقًا - وهو شخص قصير القامة فى الخامسة والعشرين - يصغى إلى بنود الحكم وتفصيلاته وتعليلاته المعقدة. نكش أنفه. نظر إلى الخلف فرأى الرجل العابس الذى يتولى حراسته بثيابه المدنية وإلى جانبه الرائد. وقد صار الإنجيل مفتوحًا بين يديه.

تدفق الدم فى وجهه. ذهلت عيناه وهو ينظر نحو ممثل المحكمة العسكرية ، وكاله بكل ما أوتى من العبارات البذيئة. شحب الضابط. تراجع إلى الوراء. تابع التلاوة. أما المحكوم فقد أخذه الضحك وصرخ "وداعًا. سأبول عليكم أيها السادة" وانهمك يفك أزرار بنطاله. عندئذ أوحى الضابط بإشارة منه ، فشد الشاب القصير إلى جذع شجرة ، وكان وجهه معصوبًا بمنديل أسود. وكان صدره مفتوحًا تحت قميصه الممزق ، وبقيت يداه متدليتين تتأرجحان وقتًا طويلاً.

بينما ارتدى د. فيلموش قميصه ثم سترته ، وجلس إلى مكتبه يقلب الأوراق. سأل هابتلر كيف كان سيتصرف هناك فى الأسفل. وبعد صمت

قصير أجاب هابتلر: إنه ذات مرة ، في الجبهة الإيطالية أراد أن ينتزع سترة جلدية لطيار معاد. فكاد يفقد سنه وهو يفك أزرارها . ما عدا ذلك لم يرتكب جنحة أخرى. قاتل، وكرم ، وقلد أوسمة ، ولم يخرج على القانون. وعندما عاد من حرب التحرير تركوه وشأنه. اختفى السيد القائد. لعلكم تذكرون ذلك يا سيدى القائد.

وافقه الدكتور فيلموش ، وقال:

– الشنق ليس لعبة. أنا أراقبهم في اللحظة الأخيرة. تصرفات الجميع تختلف ، حياديين ومتحمسين. لكن إذا ما تصرف أحد ما غير هذا الشاب على نحو غير لائق ، فإنني لن أضمر له البغض. في الماضي شنق يهودى. السبب أنه اختصم مع حاخامه ، فصب جام غضبه عليه. غسله غسلاً. هجم عليه وأوسع الحبر الملتحى ركلاً. معلوم أن رجل الدين ينفذ ما تمليه الدعوة. انفجر الجميع يضحكون ومن بينهم منفذ القرار أيضاً. إلا أنا . أنا استوعبت حالته النفسية.

صمت لحظات ثم قال:

– حضرتك كنت ستبكى بكاء خافتاً ، مسلماً أمرك برأس مطأطئة ، باتجاه حبل المشنقة. أنا كنت ألقى بنفسى بين أقدامهم ملتمساً الرحمة. أتوسل ، وأتضرع وهم يجرجروننى كخنزير إلى المشنقة . فكرت كثيراً بهذا ولم أجد فيه ما يعيب. والآن تخلصت من هذه الهواجس ، وصارت جزءاً يسيراً نادراً من أحلام تراودنى أحياناً. طبيبى ووالدتى أكدا لى

أننى أتمتع بإرادة قوية ، وأننى أسلك سلوك الرجال. وهذا أيضًا صحيح. فبالرغم من طبيعة مسئوليتى الوظيفية ، لم أشرب الخمر.

بعدئذ تحدثنا عن حياة "هابتلر". اعتبر د. فيلموش مهنة النجارة ، مهنة لا يمكن الاعتماد عليها فى مسيرة الحياة. وبعبارات تنم عن إلمام نظرى وعملى مدهش راح يوضح حالة النجارين والبنائين المزرية. أجور بخسة ، بطالة طويلة فى الشتاء. ثم نصح هابتلر بالعمل فى سلك الشرطة ، على اعتبار أن هيئته لا تؤهله لممارسة الأعمال ذات الجهد العضلى، وأنه سوف يتدبر أمر قبوله فى سلك الشرطة ، لأنه شخص جيد ، وثقة. وبعيد عن الشكوك فى ارتكاب الجنح السياسية.

- تطوع شرطيا - قال - مرتب جيد. تحصل على سكن. وتعيش مطمئنا مع زوجتك.

وبصوت هادئ شكر هابتلر الدكتور فيلموش على مساعدته. وقال بأنه لا يحصل على مثل هذه الوظيفة حتى فى الأحلام. صحيح أنه لا يوجد على وجه الأرض من هو أكثر سعادة من الشرطى ، لأنه مهما يجر عليه الزمان ويخبئ له من مفاجآت فإن أسرته تبقى مستورة تحت سقف ، وبين جدران ولن تخلو مائدتها من رغيف الخبز. وأنه سوف يكون شرطيا ناجحًا لأنه يتقن عبارات الدوريات ، ويفهم فى النظام والسلاح. لكن مشكلته الوحيدة أنه لا يعرف القراءة والكتابة. وهو خائف إذا ما انكشف هذا الأمر أن يسبب إحراجًا للسيد الآمر.

أجابه الدكتور فيلموش بأنهم لا ينتقون رجال الشرطة من أكاديمية العلوم.

– قل لي من فضلك. ما دينك؟

– أهلي كاثوليك. وأنا عمدت في دار اللقطاء إنجيليا. زوجتي إصلاحية. وابني مثلها.

هز العقيد رأسه.

– غداً أحدث المعنيين. لا تخف. سأرتب كل شيء. اذهب أنت إلى البيت. وسأوافيك بالنتيجة.

وودعه.

حين اجتاز هابتلر الباب الخارجي. كانت ماريا بيك تلوح بيديها ، واقفة تحت الشمس الملتهبة ، على ناصية شارع المسرح. أمسك بيدها ونزلا على الدرجات الحارقة منحدرين إلى المدينة.

فور وصولها إلى البيت تشاجرا في غرفة الخدم. بدأت ماريا بالصياح وأنها ستفعل وتترك بالشرطة وبالعقيد.

أغلق هابتلر النافذة وتوسل إليها أن تهدئ من روعها ، وتتحدث على مهل. فلا فائدة من الصياح والصراخ. ثم أين سيجد عملاً آخر. وأنهم وعدوه أن يرتبوا له كل شيء ويخبروه بالنتيجة.

نحل لونها تماماً. وبقبضة يدها لكمت وجه هابتلر. ثم زأرت:

– أنا لا أريد من أحد أن يرتب لي أي شيء. أي شيء. أنت حيوان يرتبون له كيف نصير شحاذين.

أمسك هابتلر يدها البشعة المعقوفة الأصابع، وضغطها على صدرها. وحملق كل في الآخر بعينين مستديرتين حادتين. وجدها ماريا بيك كانت تلهث كالغريق.

مساء بعد العشاء، قال الطبيب: إياكما والقلق. لأن سنوات الرحمة السبع، التي بشر الإنجيل بها، آتية لا ريب. وإن على هابتلر أن لا يعمل في أي مكان، وأن يتحلى بالصبر، وسيحصل على موقع عمل ممتاز ومنزل. وهذا مؤكد، وإن شخصاً رفيع المستوى مثله لا ينكث بوعده، مهما كانت الظروف. وإنه يتحمل هذه المسئولية على عاتقه.

ولم يكن الطبيب على خطأ.

في الرابع والعشرين من آب عام ١٩٢٠ دعي هابتلر إلى دائرة مكتب التجمع البروتستانتي وتم تعيينه من قبل القس الإنجيلي "بورباش أنتل" أميناً لغرفة الملابس الكنسية.

وبعد شهرين من ذلك استلما المنزل. وحين أمسكت يد ماريا بورقة القرار الرسمي طفرت عيناها بالدموع. وانتقل الزوجان إلى مجمع البراكات السكني في شارع "لانكا". وفي أثناء الوداع أعطاهما الطبيب

سريراً حديديا عتله هابتلر على كتفه وحملت ماريا بيك سلة الثياب وبطانية "شتاد ينفر" العتيقة. كان رقم الباب ١٨٣ فى المجموعة السكنية رقم IX وهناك أهداهما جاراهما المباشران "أندره كوفتش" الحذاء ، وزوجته الجميلة ذات الشعر الأسود هدية رمزية يضعانها فى أصيص.

وفى الليلة الأولى ظلت ماريا بيك شاخصة فى أرجاء الغرفة وأركانها الأربعة. وصلت كثيراً.

لم تتمتع البزاكة بحالة أمان من الخارج. لكن ماريا بيك ورتبت جدرانها الداخلية. وسقفها ، وفرشت أرضها ببساط من القش ، ونشرت أصص الزهر فى أرجائها . فاستحالت منزلاً براقًا نظيفًا فائحًا برائحة الزهور. ثم تكاثرت مقتنيات الغرفة وأثاثها . وفى خريف السنة التالية رتب فيها ركن يكون بمثابة مطبخ. ضمت الغرفة طاولة وكرسيين ، وساعة رنانة ، ومرآة على الجدار ، وستارة بيضاء على النافذة.

كان هابتلر يستيقظ فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، وينطلق إلى سوق الجمارك الكبير ، حيث كميات الفواكه والخضار الموسمية تنقل بالسلال من السفن الواصلة فجراً إلى ضفة الدانوب. ومنها إلى سوق البيع.

هنا عمل هابتلر عتالاً وسمساراً لدى تاجر السوق "يوجف هونيورغو" المصارع من الوزن الثقيل. كان يبدأ السوق الساعة الثانية. فى هذه الأثناء كان هابتلر يذهب إلى السفينة. يثبت الحاملة المعدنية

على منكبيه ، ويعلق عليها السلال. وقد فعلها ، غير مرة ، وعتل ستا من السلال دفعة واحدة. وقد حصل غير مرة أيضًا أن رفع "يوجف هونيورغو" كيس بطاطا يزن تسعين كيلو غرامًا دون أي جهد يذكر. كان المكتب الروحي البروتستانتي لمجمع البراكات مستراحًا له.

ثمة في المكتب القسي الواقع في شارع "مدام فرش بال" غرفتان تفضيان كل إلى الأخرى ، وتضيقان بالمرتادين. هنا كان يتعبد لله ، والوطن كل من "رجوتا وينفر" الكولونيل رئيس الأساقفة الإنجيلي. و"أنتل بورباش" الرائد الأسقف الإنجيلي. و"سابو جلبر" العقيد القس و"أندره شويا" الرائد الأسقف الإصلاحي. و"طورن بال" العقيد رئيس الأساقفة الإصلاحي. و"هابتلر يانوش" خازن الغرفة الكنسية المعاون الإنجيلي.

خلال عام أتقن مهمته التي تطلبت منه الجلد والفطنة ، وحتى حسن الاستماع إلى الموسيقى وحسها المرهف.

بالمنوال ذاته كان العمل يبدأ كل صباح بعد أن يتحدد في مقر الكولونيل موعد اليوم التالي ، ومكانه: في أي مشفى أو ثكنة عسكرية سيتم ذكر الله.

يرتب هابتلر بعناية ثيابه السوداء والوعاء الفضي وكتاب المزامير ، والصابونة ، والمنشفة ، ويحمل صندوقه الخشبي ، وينطلق إلى الطقس الروحاني الروتيني. هو يأتي دوره بعد أن ينهي القس صلاته ودعاءه.

فيتقدم بخشوع عاقداً أصابع يديه، ويبدأ الغناء بصوته النقى المتبتل.
"مثلما تهفو إلى الترع الجميلة الجذابة تهفو روحى إليك يا أبت. أنا العبد الفقير..."

وفى عيد الإصلاح فى الحادى والثلاثين من تشرين الأول "أوكتوبر" كان يغنى "ربنا قلعة عظيمة ..."

وفى مساءات السنة الفائتة "عليك اتكالنا منذ الأزل ..." .

وهنا كان ينفجر الحاضرون فى المشفى العسكرى بالبكاء. كان الجمع يرافقه الإنشاد ، الذى ينتهى على الدوام بنشيد خاص ، وفى الأعياد الكبيرة كانوا يتناولون العشاء الفاخر. هابتلر يشترى الخبز الأبيض والفطائر والنبيذ. وكان يقوم بتقطيع الخبز إلى قطع صغيرة. وإذا بقيت كمية من النبيذ كان يزود بها زوجته فى البيت. إضافة إلى ذلك كان يغنى فى الأعراس ومناسبات العماد ، والتأبين والإعدامات.

كان يحب مناسبات العماد أيما حب ، لأنها كانت تقام فى البيوت. فقد كان القس ينجز طقوسه فى العماد بنبات القنا. وكان الضباط يخصونه بالبقشيش. وكان من المؤسف أن الأعراس لم تكن تتم فى المنازل. كان العرسان إذا كانوا ضباطاً، يؤمون بخطيباتهم كنيسة "لوثر" فى شارع "راكسوتى" ، أو يؤمون المعبد البروتستانتى فى شارع "أبونى".

وكان التأبين يقام دائماً فى المشفى العسكرى فى شارع "جالى" حيث ينتهون من العساكر الجنود بسرعة. أما مع الضباط فقد كان الجو

أكثر تعقيداً. كانت ترافقهم فرقة نفخ موسيقية حتى المشفى وبعد كلمة القس ترافقهم إلى المقبرة العسكرية حيث تعاود عزف الموسيقى ثم يأتي دور القس ليتحدث من جديد.

كان يمقت الموتى من ذوى الشأن والجاه، الذين كانوا يخصونهم بمراسيم التأبين الرفيعة، التى يقيمونها فى مقبرة "كريشى". أو فى صالة كازينو الضباط في شارع "فاتسى".

وهكذا، على مدى ساعتين ونصف الساعة أقيم فى مقبرة "كريشى" حفل تأبين قائد الفرقة "هرمان كوفش" بطل الحرب العالمية الرابع عشر. وهكذا، على مدى أيام بطولها، شيعت جنازة المقدم "بورباش أنتال".

أما قائد الجيش الكولونيل "بال ناج" فقد انطلق جثمانه من كازينو الضباط. وهناك في الحفل ظهر "هورث ميلكوت" الذى راقبه هابتلر كثيراً. كانت الصالة كما تفوح بالحرارة، تعج بالنياشين. ألقى "رجو تاو ننفر" كلمته بخمول شديد. في حين احتشدت المناديل تجفف جبهات السادة المتعرقة. كان هابتلر منتصباً قرب منديل مشتعل متعرق الجبين والوجه، مبلل الشاربين. دون أن يجرؤ على مد يده إلى جيبه، أو يقرب جبينه إلى كمه، أو أن يخطو خطوتين بعيداً عن القنديل الملتهب، مخافة أن توحى أية حركة منه بارتكاب حماقة ما، فى الجو المعبأ بالترقب والانضباط.

بعد ساعة ونصف الساعة كان يخب متراقصًا من البهجة فى شارع راكوتسى الذى امتلأ برجال الشرطة الذين يتقدمون المسيرة بثيابهم المراسيمية. تليهم فرقة المراسيم المرافقة للجثمان على أنغام فرقة النفخ الضخمة التى عزفت المقطوعة الجنائزية البطيئة بقيادة "ريتشارد فريتشى".

وفى مقبرة (كريشى) لعلع الرصاص مخترقًا هبات النسيم العليلة. كان هابتلر تغمره سعادة دبت إلى عظامه. وفى النهاية قام بمساعدة "رجو تاوبنغر" فى خلع ملابسه السوداء ورافقه ماشيًا إلى جانبه حتى شارع (مادام بال).

وفى الأيام التى لا يكلفون من قبل قائد الكتيبة بعمل ما، كان الروحيون يرتادون، للراحة، مطعم "كيش رابلو" "الحرامى الصغير" فى شارع غوريا. ويتناولون الأطعمة الحادة، مجترعين البيرة.

وكانت مهمة هابتلر أن يظل حريصًا على مراقبة أحوالهم فى النشوة كل ساعة، مخافة أن يطفو أحدهم من السكر، ويحلق جارا الجميع إلى ارتكاب حماقة. وكان يوصل الثمل من بينهم إلى بيته.

كان الأسقف العقيد "غابورسابو" شخصًا مريحًا. يضحك ويغنى معانقًا هابتلر بذراعه.

وكان رئيس الأساقفة العميد "رجو تادبنغر" المتململ المنكمش يتوعده بنار جهنم ، حتى توصل به الحال ذات مرة فى العربة أن خمش أنفه بأظافره.

قالت له العجوز فى البيت وهم يغيرون الأثاث:

ـ خذها أنت ـ قالت بمودة ـ أفضل من بيعها ببعض الغلليرات.

وفى اليوم التالى ، حين كانوا ينزلون من العربة الخزانتين والسريرين والكوماندينين ، والطاولة ، كان المشهد محط أنظار الجميع من سكان البراكات.

كانت بيك ماريا ، منذ أسابيع ، تعمل لدى فرع من شركة الاستيراد والتصدير .R.T فى شارع المسرح. وكانت تصرفاتها تربك هابتلر كالعادة. تشكلت الشركة فى ربيع ١٩٢١ بهدف تزويد الأحصنة العسكرية بالشعير والشوفان والعلف. كان مديرها العام العميد "موريس بالكوفيش" ، وكانت عربته الفاخرة ذات العجلات المطاطية ، وأحصنتها بحوافرها المطاطية كذلك ، من المظاهر النادرة فى العاصمة ، وهى تجوب ، بلا قرقعة ، شوارعها المرصوفة بالحجارة.

كانت بيك ماريا تقوم بتعبئة أكياس العلف ، حريصة على صحة وزنها بالتساوى ، فنالت نصيبًا من غبارها.

كان رئيسها المباشر ملازمًا يتحلى بغباوة. فكانت كل سبت أثناء عد العبوات تختلس عشرين ـ ثلاثين عبوة برفة عين.

خاف هابتلر. تضرع إليها ألا تفعل ، مهددًا إياها بالسجن ، وبألوان من الحساب العسير إذا ما وقعت.

لم تلتفت للنصيحة ، حتى جاء الخريف ولم يحتمل هابتلر أكثر. وفى منتصف نوفمبر قصد مكتب شركة باتونيا للتصدير والاستيراد R.T فى شارع "آران يانوش". صعد هابتلر درجًا مفروشًا بالسجاد، وباحترام شديد طلب إلى العقيد الباسل "تشنادى إمره" رئيس الفرع أن يطرد زوجته لأنها فى حالة يرثى لها. وأنها لا تأخذ بكلامه وتخرج عن مشورته، لأن الغبار يؤثر على صحتها ويلحق بها أذى شديداً.

دفع "تشاندى إمره" أجرة الأسبوعين. وفى صباح اليوم التالى كانت ماريا بيك مفصولة عن العمل.

وفى الرابع من كانون الثانى "يناير" ١٩٢٢، وضعت ماريا بيك مولودها الثانى وأسمياه هابتلر يانوش على اسم أبيه. كان وضعًا سهلاً على ماريا بيك. فى الخامسة بعد الظهر أرسلت زوجها لاستدعاء الولادة، وفى السادسة كان هابتلر يانوش الابن يصرخ تحت ضوء المصباح البترولى.

وبعد أسبوع جرى عماده فى الكنيسة الإنجيلية.

مساءً استقبلوا ضيوفهم. فأعدت ماريا بيك السمك المقلى والقريش.

واحتسوا النبيذ البروغتشى بالدمجانات. وانتشى هابتلر، فركع أمام ماريا بيك وقبل يديها القبيحتين بالأصابع المعقوفة. احمرت ماريا بيك - عجوز مجنون - قالت. ومسحت على رأسه وضحكت مرتبكة. تقدم الأب الروحى "أشتفان كالوز" بكلمة شكر ثم بدءوا الغناء. وظلوا حتى الصباح يشربون النبيذ بصحة هابتلر يانوش الابن.

وفى مارس "آذار" أحضر هابتلر يانوش الأب غيزيكا من بروغتش. شوهدت، فى البيت، ندبة على رأس البنت. الأمر الذى أثار غيظ ماريا بيك. فراحت تلعن وتطلق الشتائم أياماً بطولها.

فى يونيو "تموز" أرسل خمسمائة طفل إلى هولندا فى منحة غذائية. قالت ماريا بيك لن يطعم ابنتها أحد ما دامت هى قادرة على إعالتها. لأن الحرة لا تأكل بثدييها، وتهدر كرامتها.

غسلت للضباط الثياب، والشراشف التى كان يحضرها أحد الجنود من الثكنة. وكانت أيام السبت تقوم بالتنظيف والشطف لدى والدة الدكتور فيلوش ماتياش فى شارع "سيب". فالعقيد غادر بودابست بعد أن عين مدرساً فى مدرسة "كوساغى كادل" العسكرية خارج العاصمة.

وفى أوقات العصر، يحمل هابتلر غيزيكا وتجر ماريا بيك عربة الرضيع ويخرجان بالطفلين إلى شارع "ديوسغ" حيث يقتعدان العشب أمام مصح "رينجر"، ويراقبان المرضى الغرائبيين المتناثرين بين الأشجار. وكان أكثر المرضى إدهاشاً تلك العجوز، التى عملت من ذراعيها جناحين وراحت تجول بشعرها المنفوش وحركاتها الراقصة. وتغنى :

"جميلة أنا، طيبة أنا، لكنَ مجنونة قليلاً أنا" وتكررها. وعندما ضجر هابتلر عبر الجميع إلى ملعب كرة القدم المجاور حيث حالفه الحظ ذات مرة ورأى فى هذا الملعب، عن قرب، حارس المرمى الشهير "جاك" حيث لعب مباراة ودية ضمن فريق الحى الثالث.

وكانا كل مساء يطيلان الجلوس أمام الباب المطل على الشارع يتسليان بمشاهدة البشر العائدين من أعمالهم، والفتيات الألمانيات بالتنانير والكشاكش، اللواتي يعملن في معمل نسيج "لينوم" في شارع كارولينا. وحين وصل الجاران "إشتفان كالوز" و"أندره كوفتش" يلعب الرجلان الورق وتتسلى الزوجتان بالأحاديث، ويصخب الأطفال، حتى تعلن المصانع دقات الساعة العاشرة، فيهجع الجميع إلى النوم.

في خريف ١٩٢٣ أنشئت جوقة غناء بودابست وكان مقرها عند ملتقى الشارعين "فيلاني" و"آبل نيو" في مطعم "كريست" حيث كانت تجري التمرينات مرتين أسبوعيا. كان رئيس الفرقة "كارول كريسن" ونائبه بيلا ترافينا، وسكرتيره أندره كوفتش وكان المدير المالي إشتيفان كالوز وكان الخازن هابتلر يانوش ، أما قائد الفرقة فكان الأستاذ وعازف الأرغن الكنسي "جولا كابي".

ومع حلول الربيع ذاع صيتهم وازدحمت مواعيدهم، في الأعراس والجنازات وكانوا يقدمون "السرنادات" ومعزوفات الحب التي برعوا كثيراً في أدائها. فكانوا يدنون تحت البراكات النغمات الرومانسية مثل (أوه ما الذي يصدح هذه الليلة معبراً عن أحلامه ؟ إنه العصفور بين الأغصان يبث نجواه في الحب).

لم يحصلوا على نقود، بل على كئوس النبيذ، بعد انتهاء العرض وكانوا يغنون حينذاك "أرفع كأسي نخب الطيبين، اشرب اشرب وليمد الله في عمرك".

هابتلر لم يشرب. على العكس من كوفتش، الذى إذا ما غلبه النبيذ وثمل، يبدأ فى تحطيم كل شىء. ولكن ذلك كان نادر الحدوث لسبب حرص زملائه، وقرابتهم له، وخاصة هابتلر.

وكان يردد أنه متيم بحب زوجته وينصح بإقامة علاقة معها. ويصيح بأعلى صوته:

- وأنت أيها القوّاد. "آنا" أيضًا مغرمة بك. لعنكم الله جميعًا. وحين يعود إلى وعيه فى اليوم التالى يطلب الصفح حزينًا.

كانت للفرقة عروضها المنوعة. في الاحتفالات العسكرية كانوا يغنون "ما أضخم هذا الجيش". وعند القبور "ما عاد فوق هذه الأرض".

فى يونيو "تموز" من عام ١٩٢٤ وضعت "آنا" الجميلة ذكرًا عمد فى كنيسة إصلاحية استجابة لرغبة كوفتش، وإثر جدال حام، وبكاء متوسل. وكانت ماريا بيك "عرّابته" "أمه بالعماد" التى أعدت سمكًا وقريشًا. وأحضر كوفتش خمس لترات من النبيذ. فأجهزوا عليها.

وفى الصيف ذاته أنشئت "حضانة" كاثوليكية باسم بيت "بيوس" فى منزل أرضى صغير. كانت الراهبات يشاهدن متجولات أمام البراكات ، وقد أبدين جفاءً على أعين الجميع، ولم يتكتّمن عن عدم رضاهن، وغضبهن على شكرَ "آنا" التى كانت كاثوليكية مؤمنة. البنت ماريا التى ترعرعت فى الدير شكت لماريا بيك باكية أن رئيسة المربيات لا تهتم بابنها، ولا تخصه بعناية. أغضب الأمر ماريا بيك فجذبت ذات مرة عربة الطفل من بين يدى المربية ودفعتها إلى وسط الشارع وقالت:

– عزيزتى المربية لماذا تهملين ولدى الروحى بالعماد.

– هكذا – أجابت المربية ببرود – لأن الأم إذا ما كانت متزوجة من رجل إصلاحى ، فعليها على الأقل أن تعالج خطيئتها باتخاذ عرابة كاثوليكية.

– ولكن بالله عليك يا عزيزتى المربية. كيف ستعاقب بنار جهنم تلك المرأة الكاثوليكية إذا كان من يعيلها ويدها بالخبز رجل إصلاحى؟

وفى اليوم التالى دعيت إلى الشرطة. وحذرها المناوب هناك من مخاطبة الراهبات بلهجة جارحة ، وصرفها ضاحكًا.

تأثر هابتلر يانوش إلى حد المرض ، وأخجلته الحادثة كثيرًا. ورجا زوجته أن تسد فمها ، وألا تثير غضبه ، لأنه إذا ما نفد صبره ذات مرة فسوف تحصل كارثة. وقد ردد يومها هذه العبارة مرات عديدة.

فى شهر آب وضعت ماريا بيك طفلها الثالث. وكان شاحبًا ضعيف البنية. لم تتوقع له القابلة حياة طويلة. وكانت محقة فى ذلك ، فبعد ثمانية أشهر تم دفن الصبى وقرأ على قبره الروحانى الإنجيلى "سابو غابور" وغنت فرقتهم "ما عاد موجوداً فوق هذه الأرض" بكت وفاض الدمع فى عينى ماريا ، حتى حذرتها "حماتها" من أن بكاءها هذا يغرق التابوت بالماء. هنا مسحت ماريا بيك عينيها ، وسارتا إلى البيت معًا.

فى سبتمبر "أيلول" من العام التالى عين الدكتور فيلموش مبعوثًا عسكريا فى أثينا. هذا ما روته أمه لماريا بيك أثناء قيامها بتنظيف البيت

كعادتها كل يوم سبت ، وفى تشرين الأول "أكتوبر" أقيل العميد رئيس الأساقفة الإنجيلى "رجوتا وبنغر" وعين فى صولنك ، نتيجة لأنه ، فى نادى ضباط "بوداكسى" رمى بكتاب المزامير مرتين ، وصار يفلت لسانه للعبارات اللاذعة شاتماً بأعلى صوته. ولكنه كان يطلب الصفح دائماً من الأسياد. عين مكانه العميد رئيس الأساقفة الإنجيلى "دانى بالاج" كانت معرفة "هابتلر يانوش" الأولى بالأسقف الجديد مؤلمة جدا. ففى الصباح الأول لدخول العميد إلى المكتب ضبطه نائماً عند الطاولة. فأيقظه.

– بأى حق تجرؤ على النوم – سأله بنبرة قاسية.

اعتذر هابتلر وقد شحب لونه ، وطلب المعذرة قائلاً:

– سيدى العميد رئيس الأساقفة. أنا أبدأ عملى كل يوم فى الساعة الواحدة ليلاً لأن عائلتى فى حاجة إلى ذلك.

فكر "دانى بلاج" وقال:

– سلوك نبيل. أجل – وتابع بلهجة رصينة – روحكم طيبة.

ثم قدم له بنغوراً ، مكافأة مادية له. فاشترى بها سكاكر للطفلين ، ونبيذاً لماريا بيك ، وجلس قرب حوض الغسيل يحدث الزوجة قرب السياج الشبكى الذى يسور مصح "ريفتر" .

– برد الجو – قال هابتلر – لن يطول مجىء الطقس الماطر. وقد تثلج ، وعندها سوف يحتجزون هؤلاء البشر داخل غرفهم. وبالتالى لن نشاهدهم حتى حلول الربيع.

أثلجت غزيراً هذا الشتاء. فلم يتمكن هابتلر من الجلوس أمام الباب عصر كل يوم.

وفى نهاية "يناير" كانون الثانى زارتهم مربيته (أمه) وأقامت عندهم أسابيع. وكل ليلة بعد إطفاء المصباح ، كانت تحتضن الطفلة غيزيكا ، وتقص لها على ضوء النار تحت وعاء الطبخ الحكايات الشيقة عن التلميذ (الشاطر) ، والطفل اليتيم ، والفارس الذى فقد حياته ثم عاد لأجل محبوبته منادياً عبر النافذة "طلع العالم الجميل المقمر" و"هل تخافين منى أيتها الزهرة اللؤلؤية". ثم تأمر ماريا بيك الجميع بأن يذهبوا إلى أسرتهم حيث يتنصتون قبل إغفائهم ، لعويل الرياح.

وفى الثامن من أيار "مايو" عام ١٩٢٦ رزقا بفتاة عمدت باسم "هانيلكا". وكانت جوقة بودابست فى هذه الأثناء قد تمرنت على الغناء الجماعى. فأجاد عناصرها غناء" الكركى صوته جميل ، ولكنه يطير ويبتعد عالياً. و"ملاكى" الصغيرة حزينة لأنها لا تسمع غناءه.

واستعدت الجوقة للاشتراك فى مهرجان الأغنية الوطنى فى "شوبرون".

وفى عز الصيف كانت غجرية شابة تدور حافية من بيت إلى بيت تقرأ المستقبل لقاء بعض الغليرات. زارت ماريا بيك أيضاً. أجالت عينيها فى أرجاء الغرفة فنال إعجابها غطاء الطاولة المشبوك ، المفروش فى منتصف الطاولة. افترت شفتاها عن صف أسنان سليم حين طلبت الغطاء. ضحكت ماريا بيك قائلة:

- ما أرجح عقلك ؟

تقدمت الغجرية منها وقالت بهدوء حتى لا يسمعها الجوار:

- مقابل ذلك سأقول لك سرا كبيراً إذا كنت تجرئين على سماعه. هاتي كفك.

بسطت ماريا بيك كفها وأصابعها العقفاء. فبادرتها الغجرية:

- في الجوار امرأةٌ سوداء الشعر. وضعت عينيها الساحرتين على زوجك وسوف تخطفه منك ...

هنا راحت ماريا بيك تدفعها نحو الباب حتى طردتها خارجاً.

في مساءات لعب الورق من العام نفسه ، تناقل المتسامرون الأنباء عن وقوع جريمة شنعاء ، وأسهبوا في الحديث عنها ، حتى طلب الجميع من هابتلر يانوش ، بوصفه حاجباً في مكتب الكولونيل ، توضيحات رسمية دقيقة عن الحادثة.

طوى الموظف كم قميصه ، وأشعل سيجارة. ودون أي تكلف سرد ما يلي :

- إن صداقة قوية تربط زَوجة "غوستاف ليدر" بتاجر اللحوم الثري "كودلكا" ، ومن المحتمل أن علاقة حب قد نشأت بين الصديقين. كان بوسع تاجر اللحوم أن يرتاد منزل المرأة في أي وقت يريده ، وكان زوجها العقيد يغض الطرف عن هذه الزيارات لمعرفته بقصة الحب بينهما.

ذات يوم حين كان تاجر اللحوم يحمل مالاً كثيراً معه ، أقدم العقيد وزوجته على قتله. ولكى يخفيا الجثة لجأ إلى تقطيعها ووضعها فى حقائب وأكياس وألقيا به فى نهر الدانوب من فوق جسر مارغيت. ولكن المياه قذفت بالأعضاء المقطعة إلى ضفة النهر. وشوهدت هناك. وكانت دليلاً على الجريمة لأن تاجر اللحوم ، كان مختفياً منذ مدة ولأن علاقة قوية تربطه بالزوجين.

هكذا تكشف الأمر عن فعل إجرامى قام بارتكابه مسئول كبير بالتعاون مع زوجته. وقد تمت إدانته ليس فقط على أساس غض نظر وتستر على جريمة ، بل على سلوك إجرامى شارك فعليا فيه ، بدافع الحصول على المال.

قال كوفتش: الواقع غير ذلك. غوستاف ليدرر هو من كانت له علاقة مع زوجة اللحام، وهما من ارتكبا الجريمة. وإنك ترويها على نحو مختلف تماماً.

اعترف هابتلر باحتمال هذا. ولكنه كان متأكداً من أنه ، غداً مساءً ، سيكون مع غوستاف ليدرر فى حجرة الإعدام ، لأن القيادة كلفته هو إلى جانب العقيد رئيس الأساقفة الإنجيلى سابو غابور.

وأظهر "كالوز" فضولاً لمشاهدة ما يسلكه المحكوم بالإعدام فى ليلته الأخيرة. فأجاب هابتلر: لا يمكن تخمين ذلك لأن سلوك البشر يختلف باختلاف الأشخاص.

– ألا تشعر بالخوف – سألت آنا كوفتش.

– لا أخاف ، وما من سبب يدعونى لذاك ـ أجاب هابتلر.

– من أحلامك؟ من شأن الأحلام المروعة أن توصل المرء كائنًا من يكون ، إلى حافة الجنون.

ورسمت صليبًا بيدها السمراء.

لا شك فى أنهم جميعًا كانوا يجتازون مدخل سجن شارع مارغيت الدائرى. فى غرفة القيادة كان العقيد رئيس الأساقفة الإنجيلى مترسمًا بثياب الكهنوت. تناولوا جرعة من البالينكا ، ثم قادة رئيس الحرس إلى زنزانة تشبه قبرًا ، سميت زنزانة الإعدام.

كان غوستاف ليدرر بثيابه الرسمية ، وقد جردت من الرتبة والنياشين. تقدم نحوهم مبتسمًا. صافح سابو غابور ضاغطًا على يده ، وقال: كنت أنتظر حضرتكم.

حتى منتصف الليل كان سلوكه عاديا ، يبدى ندمًا شديدًا ، ويستنكر بشدة وصدق فعلته النكراء. ووبخ نفسه وعنفها تعنيفًا قاسيًا. ثم برفقة سابو غابور أقام صلاته بضراعة الورع. وفى الساعة التاسعة جاءوه على صينية صغيرة ، بفطيرة بالجوز وكأس من النبيذ.

اعتذر ليغسل يده فوق "طست" ثم جلس إلى الطاولة وبدأ يأكل بصمت وهدوء. طلب بعدئذ أن يأتوه بالكتاب المقدس.

عند منتصف الليل بدأ يخاف، ارتبكت نظراته، وغشي عينيه بريق عجيب. وعلى صفحتي وجهه وخديه كان يمكن ملاحظة عصب يرتجف وبدأت أسنانه تصطك. هنا أومأ سلبور غابور بنظرة منه ، فاستجاب هابتلر يانوش لإيماءة العقيد رئيس الأساقفة.

تقدم إلى الأمام وبدأ الإنشاد بصوت ناعم هادئ "إليك تهفو روحى يا أبت ، وإليك الرجعى يا رب".

أحدث المزمور تأثيراً معاكساً لما أمل منه الأسقف. انفعل عقيد الأمن كوفتش ، وشتم السماء. أطاح بالطاولة ورفع الكرسى ضارباً به الجدار ليتحطم عليه. بينما خرج سابو غابور وهابتلر يانوش مسرعين إلى الممر ، فى حين بطح السجانان المصاب بالهذيان أرضاً ، ثم قيدا ساقيه وذراعيه. وبعد دقائق وصل مدير السجن. كان غوستاف ليدرر منهمكاً ، ولكنه قدم اعتذاره ووعد أن يسلك ، فيما تبقى من وقت ، كما يليق بضابط فى الجيش. فكت قيوده وانسطح على السرير المعدنى.

شرع سابو غابور يتلو بصوت متباطئ منوم ما تيسر من الكتاب المقدس. وغوستاف ليدرر لم يتفوه بكلمة حتى الفجر. ثم قال: عسى جلالة الملك يمنحنى الرحمة. كان رد سابو غابور هكذا بين يدى الله.

وفى الخامسة صباحاً دخل سابو غابور وهابتلر يانوش إلى غرفة الإدارة. فتح هابتلر الصندوق الخشبى. ناول سابو غابور صابوناً ومنشفة ، فرش ثيابه وحذاءه. ثم غسل هو أيضاً وجهه وصفف شعره ، وفرشى بزّته الرسمية وقبعته السوداء بأزرارها الذهبية. وفى السادسة إلا ربع رجعا إلى غوستاف ليدرر.

وفى السادسة تمامًا وصل المندوب الأعلى. اصطف فصيل الإعدام أما الزنزانة. محاطًا بثمانية من السجانين يتقدمهم ضابط بسيفه المشهر ، اقتيد غوستاف ليدرر إلى الباحة. كان كرسى الإعدام قبالة خشبة المشنقة ، قرأ هابتلر يانوش الحكم، وكان يتضمن رفض جلالة السيد الحاكم طلب الاسترحام، وأوعز للمنفذ أن يؤدى واجبه. هنا رفع غوستاف ليدرر ذراعه وصرخ: جلالة السيد الرئيس - لكن دون أن يسمع أحد ما يقول لأن صوت الأبواق بدأ يتعالى. وعندما علق هدأت الأبواق، وساد سكون. تقدم الطبيب، عاينه، وأعلن تمام موته.

شرع يابو غابور يصلى لروحه ، وسط إصغاء الجميع برءوس مطأطئة.

عند الساعة الثانية بعد ظهيرة اليوم التالى شيع الجثمان داخل المشفى العسكرى فى شارع (جالى) حيث تلا سابو غابور دعاء. ثم رافق أربعة من الجنود ، إضافة إلى الأسقف ، وهابتلر ، التابوت حتى المدخل. ومن هناك نقل وحيداً بعربة الخيول إلى مقبرة "راكوش كرستورى" .

انتسبت غيزيكا إلى مدرسة فى شارع فالى. كانت كل صباح تسير نصف ساعة على طريق هورتى ميلكوت. وكذلك عند عودتها فى الظهيرة. كانت الفتاة مثالاً فى حسن السَلوك، وتتصف بالغباوة. ولم ينقذها من الرسوب إلا صفعات ماريا بيك.

فى عيد ميلادها الثامن فى العشرين من كانون الثانى لعام ١٩٢٨ أعدت ماريا بيك (حليب العصفور) وكعكًا بالحليب، ووجهت الدعوة

لأطفال الجيران. كان هابتلر قد قام بتزيين الغرفة بالأضواء، أما هدية العيد المتوضعة في منتصف الطاولة، فكانت حذاءً جديداً طويل الساق.

في الظهيرة اجتاحت الجو عاصفة ثلجية عنيفة. كانت غيزيكا قد انطلقت من المدرسة وبلغت شارع "فدروس" فعثر عليها هابتلر أمام حانوت، متشبثة بزميلتيها، ويبكين معًا.

في المساء أصابتها الحمى، وصارت تهذي. ارتجفت شفتاها وصار شعرها البرونزي الغامق الموروث عن أبيها يتلامع من البلل.

جلست ماريا بيك تولول

– هذه أيضًا ستموت. يا مسيح. يارب .

اندفع هابتلر، قاصداً القابلة، متعثراً في الثلج المتراكم. حممت القابلة الفتاة بالماء الساخن وجففت شعرها وجسدها. ثمّ مسّحت ظهرها وصدرها بالدهن الفاتر، ولفتها حتى جيدها ، ثم سقتها شايًا بالروم. وبعد ثلاثة أيام شفيت غيزيكا ، إلا من طنين خفيف في أذنها. وشوهدت تتراكض مع أخويها وأبيها ، يتراشقون كرات الثلج. ودائمًا كانت جيوبها تحوي حبات السكر.

كان هابتلر أحيانًا يصطحب زوجته إلى مطعم "كريست" فكانت المرأة الشقراء القصيرة تكرع نصف لتر من النبيذ. وكانت إذا تلقت غمزاً أو إطراء من الرجال هناك تخبر به زوجها .

في نهاية شباط "فبراير" عاد د. فيليموش إلى الوطن قادمًا من اليونان وعين أستاذاً في أكاديمية "لودفيكا" وانتقل ليسكن مع أمه في

منزل مشمس من أربع غرف فى شارع "فوغاراشى". ماريا بيك هى التى قامت بتنظيف المنزل الجديد ، بينما أوكلت إلى هابتلر أعمال نقل الأثاث وترتيبه. وعند الوداع مساء، أجزل د. فيلموش امتنانه لما بذله الزوجان من عون. وقدم لهما هدية كانت عبارة عن حجر سداس ألصقت عليه صورة ملونة عن أثينا.

فى الربيع رجعت عادة الجلوس أمام الباب. الرجال يلعبون الورق، والنساء يسترسلن فى الأحاديث ، ويتضاحكن وهن يرنين إلى الشبان الذين يتبعون، بنظرات كالسهام أو بخطوات وحركات مشاكسة ، الفتيات الألمانيات فى خروجهن من المعامل ، بتنوراتهن القصيرة وخطواتهن الواثقة الرشيقة. وفى أوقات أخرى، كان الأولاد يطاردون "شاراكونر" ويقذفونه بالحجارة. وشاراكونر هذا عجوز دميم تهدلت نظارتاه إلى مساواة فمه. تتناقل عنه الأحاديث أنه فى كل عيد من أعياد الخريف يشرب دم أحد الأولاد المسيحيين. حتى إنهم حفروا الأرض حول الغرفة التى يقطن فيها فلم يعثروا على شىء.

ذات مرة بعد إطفاء المصباح، سألت غيزيكا خائفة: لماذا يشرب دم الأولاد المسيحيين؟ فأجابتها ماريا بيك أن تكف عن مثل هذه الخرافة، وأن شاراكونر يشرب حساء الفاقة والقلة. فى يونيو "حزيران" عثر عليه مضرجاً بدمه، ملقى فى شارع كارولينا. وتناقل الناس باهتمام بالغ هذه الفعلة التى أدت إلى موته. وفى المساء فى المطبخ قال يانى الصغير: "تخلصنا من اليهودى العجوز" فصفعته ماريا بيك، وصفعت على إثر ذلك

هانيلكا ، وغيزيكا من مبدأ أنها إذا قامت بصفع الجميع فلن يجرؤ أحد على السخرية من الآخر.

وفى آب من هذا الصيف لحقت بهانيلكا وعكة مرضية مفاجئة: تصلب جسدها ، وأزبد فمها ، وشخصت عيناها كمن تعتريه علائم الموت. قالت القابلة خذوها إلى العيادة فى شارع ماريا. ستأخذ حقنة. وهذا ما حدث. بعد أن عاينها الطبيب قام بإعطائها حقنة. وطلب مراجعته بعد ثلاثة أيام. وقفت ماريا بيك عند ناصية الشارع. أزاحت بأصابعها العقفاء الغطاء عن وجه الفتاة.

– ماتت – قالت. ثم غطتها وصعدا إلى الترام. وتتالى فضول الركاب طوال الطريق الطويل عمّا حل بهذه الطفلة. فكانت تجيبهم وهى تحتضنها بحنو: مريضة. مريضة جداً. وكان هابتلر يوافقها وهو يذرف الدمع. وبطفليها الباقيين على قيد الحياة كانت ماريا بيك تنطلق كل صباح إلى المرج. هناك يقوم "يانى" بتجميع الحشرات ، ومطاردة الفراشات والضفادع. وتقوم غيزيكا باللعب بين القبور وتتأمل فيها. وفوق المرج كانوا يتغدون.

يمضون بعضًا من الوقت ريثما يأتى هابتلر بعد الظهر لأجلهم. وفى طريق عودة الجميع إلى البيت. كانت حشرات القديس يانوش "الحباحب" تتلامع فى الطريق.

فى الخريف جلست ماريا بيك فى المطبخ. فلت لسانها إلى مواضيع مشتتة كثيرة لا رابط بينها، واستغرقت فى الكلام حتى إنها تجاهلت طلب ابنها "يانى" سندويتش الخبز بالجبن.

بينما عند الباب وقفت غيزيكا تراقب المطر ، وتدمع. وحين سئلت عن سبب بكائها ، أجابت بأنها حزينة على أموات المقبرة، وعلى الذين يفتقدون البيت ولا سكن لهم. نامت مع أخيها في سرير واحد. "ياني" قرب الجدار وغيزيكا ناحية الغرفة. وفي إحدى الليالي شاهدت شبحًا لهيكل عظمي. وصار الشبح يأتيها كل ليلة حتى وعيناها مفتوحتان فلا تقوى على إطباقهما. كان الشبح يرتسم أمامها، مرة قرب الخزانة، ومرة قرب سرير والديها. مرة في يده منجل ومرة يحمل صليبًا أو تفاحة. ولم تبح بما يتراءى لها لأحد ، فقط كان الكل يعرفون أنها هلعة ومصابة بالرهاب. وأنه يتعذر إرسالها إلى أي مكان مساءً لأنها تخاف. في عيد الفصح وصلت جدتها من بروغنتش فاندست غيزيكا في حضنها لتقص لها الجدة عن كل شيء وهي تمسد بحنان شعرها البرونزي القصير، وهو اللون الذي يدل - حسب كلام الجدة - على أنها سوف تعمّر طويلاً. في تلك الليلة لم يحضر الشبح العظمي ولم يتراء لها بعد ذلك مطلقًا.

لم تشأ ماريا بيك أن تذهب إلى العيادة العسكرية. كان ثمة طبيب - هو ابن سقاف - يعالج سكان البراكات مجانًا. ولا يتوانى عن عياداتهم في بيوتهم ليلاً فاستدعاه "أندره كوفتش" لعيادة ماريا بيك. وعبر أسابيع أربعة كان يعطي حقنة الدواء للمرأة التي استحالت جلدًا وعظمًا، حتى تعافت بعدها ماريا بيك وجلست إلى طست الغسيل.

عند الساعة الخامسة والنصف من بعد ظهر الرابع من تموز "يونيو" عام ١٩٣٠ قصدت دكان "فايس إغناتش" من أجل شريط أحمر. وعند الساعة السادسة وضعت فتاة سليمة.

وجلبوا لعمادها آنا كوفتش الجميلة. ونزولاً عند رغبة هابتلر أسميت الفتاة "أستر. بعد سنتين ولدت لهما فتاة أخرى. هانيلكا.

بكت غيزيكا مستنكرة هذا الإنجاب المتواصل. ووجد هابتلر صعوبة فى أن يخلصها من بين يدى أمها. فى نهاية نيسان من عام ١٩٣٠، ونزولاً عند رغبة دانى بلاج العميد رئيس الأساقفة الإنجيلى، أبعد هابتلر عن آمرية المكتب العسكرى الأسقفى، بعد أن شكر له نشاطه الدءوب، متيحًا له أن يختار الالتحاق بأحد مكانين للعمل. إما المعهد الوطنى العسكرى للتربية البدنية، وإما أكاديمية "لودفيكا" ومنحه يومين للتفكير فى الأمر.

- انظر يا هابتلر، لقد رشحوا شخصًا إنجيليا متقدمًا فى العمر، ولكنك ما زلت شابا قويا تستطيع أن تنجز كافة الأعمال.

فى بداية شهر أيار "مايو" عين فى أكاديمية لودفيكا كنّاسًا. أخجله وضعه الجديد. فقصد الأستاذ العقيد الدكتور فيلموش، شاكيًا له حاله. وبعد عشرة أيام كان يعمل فى القسم الطبوغرافى. كان رئيسه المباشر عقيداً هزيل الجسم، يضع نظارات، مهووسًا بجمع الطوابع. ومن يتصفون بأنهم سيئو النوايا. وهو الآن بكل هذه المواصفات رئيس لفرع تعليمى. كان كل يوم أحد يكلف هابتلر بنقع طابع. وفى عيد الحصاد تقدم للاحتفال بالعيد. لكن العقيد قال إن القس ألغى مثل هذه الأعياد. فشحب لون هابتلر وأطرق قائلاً بهدوء :

– ولكنى لست بابويا. وبقى فى البيت. ولم يسمح له العقيد بالعودة. وكان من نتيجة ذلك أن عين حاجبًا فى مكتب رئيس الأكاديمية العميد غوستاف ياني. حتى عين فيما بعد حارسًا فى المتحف. عند لعب الورق مساءً هكذا تكلم: إن متحف الأكاديمية يثير من الذكريات ما يبعث على العجب والدهشة ويحوى تحفًا مذهلة. ويمتلئ مدرجه باللوحات الزيتية الضخمة. من أبرزها لوحة "باتش آرباد" التى خلدت الانتصارات الكبرى للمجريين، على الجيش القيصرى. وفى القاعة لوحة ضخمة أخرى بقياس ٥ تصور افتتاح أكاديمية لودفيكا. وقد ظهر فى مراسم القسم الحاكم فى ذلك الزمان "فرنتس يوجف" والعائلة الملكية، وكبار النبلاء. وعلى قائم رخامى ، تحت اللوحة مباشرة تمثال مصغّر يمثل قائد جيش الخيالة المجرى الأول على حصانه. وفى واجهة زجاجية عرضت رسالة "كوشوت" المحررة باللغة المجرية، ورسالة لينينغن إلى زوجته ليلة إعدامه. ومختلف متروكات بيت هابسبورغ. المطرقة الذهبية التى دق بها الحاكم مسمارًا فى علم الأكاديمية المطارق المفضضة لكبار النبلاء. وفى خزانة منفردة أخرى شجرة العائلة للأكاديمية التى تتضمن أسماء قادتها عبر مائة عام. عندنا - تابع يقول - الضابط الخريج يحصل على خاتم (ختم) ذهبى منقوش. تحت أمانتى واحد من هذا النوع. وبما أن الأزياء الرسمية تبدل عبر الزمن، فلدينا فى المتحف بزة من كل زى معروضة بإتقان ضمن خزانة صغيرة. ولدينا، إضافة إلى كل ذلك ، سيف وحزام يخصان أحد الأمراء، ويؤسفنى أننى لا أعرف اسم هذا الأمير.

كان رئيس هابتلر – المقدم "روجاش يوجف" وهو أستاذ التاريخ واللغة الألمانية، ومعد الكتاب السنوى لأكاديمية لودفيكا، شخصاً مغروراً، فظا. ذات مرة أشار إلى حذائه الذى ينتعله وقال لها بتلر:

– إنه هدية منى لك.

انتظر الموظف. انتظر طويلاً جدا ثم قال:

– سيدى المقدم ! ماذا تفضلتم. هل قلتم إنكم ستهدوننى هذا الحذاء.

أجاب "يوجف روجاش":

– فيما بعد، ياصديقى. فيما بعد. مازلت أنتعله أنا حتى الآن.

لأسباب تمثيلية بالوجاهة ، كان يصطحب هابتلر معه. يأمره أولاً، أن يحضر إلى منزله بالزى الرسمى الأزرق الغامق، وبالقبعة السوداء المذهبة، كى يرافقه من هناك إلى محطة القطار، وهناك يطلب لنفسه كأساً من البيرة وكعكة مالحة. كان يتقاسم الكعكة مع هابتلر ويشرب نصف الكأس ويعطى بقيته لهابتلر.

لقد كان المقدم يكتب شعراً. وقد نشر بعضه فى صحف بودابست. وكان أجمل أشعاره التى نشرتها الصحف القصيدة التالية :

[مازلنا على قيد الحياة

نرنو حالمين إلى الغيوم السارحة

ونناجى النجوم

وفى الليالى الضبابية نطرق فى الأرض

نصغى إلى قرع القتال

نصغى إلى ما يخبئه العالم من حروب:

ما الذى سيحلُّ بنا لأننا نكتم أحزانًا كبيرة وتنهش بنا الخرافة،

وننام خدرين وتسيل دموعنا سواقى

ونشعل المشاعل من خشب القبور

من السيد عندنا!

من السيد!

من الله

هل تلزم ضحية

هل نلزم نحن لانفجار آخر أو حرب طاحنة لإحقاق الحق.

أم أننا ننتظر خاسرين أنفسنا حاقدين فى انتظار النهاية.

كلا. ثم كلا

مازلنا مجريين . مازلنا نبكى اليوم لأننا لا نقبل أن نضرب لكن سوف يأتى الغد وتتعالى أغانينا من جديد فقط ...

هلموا هلموا ...]

وقبل ظهيرة خريفية شعر المقدم بالملل. فاستدعى هابتلر إلى مكتبه

- هل تجيد رواية الحكايات ؟ – سأله ، فكر هابتلز قليلاً. وأجاب بأنه سوف يحاول وقص عليه مايلي: عندما كنت فتى تستهويني ملاحقة الفتيات، كان على أن أخوض غابة كبيرة، وإذا بى وأنا أدخل الغابة أسمع فى الأعلى بين الغصون فرقة غجرية كاملة، تغنى. فما كان منى إلا أن شهرت عصاى مثل بندقية وصرخت: بم بم. فسقط إثر ذلك عن الشجرة جميع أعضاء الفرقة الغجرية إلا الصناج بقى فى الأعلى.

- ولم بقى الصناج فى رأس الشجرة !

سأله المقدم ، أجاب هابتلر:

- لأنه يا سيدى المقدم ... وبكل تواضع، كنت قد أفقت من حلمى. ومنح إجازة يومين ذات ليلة ، نقر "كوفتش" نافذة بيت هابتلر قائلاً عبارته المكرورة حتى السأم: أريد أن أتشاجر. قام هابتلر من سريره وطلب من الحذَّاء الثمل أن يكف عن الإزعاج وأن لا فائدة من إثارة الضجة. لكن الحذاء استبسل وفاقم من حركات التحدى متخذاً بقبضتيه وضعية الملاكم. كان مشهداً مخبولاً تحت ضوء القمر. سئمت ماريا بيك هذه الحركات السيركية وأطلت من النافذة وقالت:

- ماذا تفعل ؟

- هل كرعت لتراً من النبيذ كي تثرثر كما يحلو لك وتزعج جيرانك.
غداً تصحو، وتطلب المعذرة. إنقلع من هنا. أنزل "كوفتش" ذراعيه، فكر، ثم تقدّم من النافذة - أيتها العرّابة. أمس كانوا يتنزهون على جبل النبور - لم ير ذلك أحد أبداً - قالت ماريا بهدوء. وظل يحدق كل منهما بالآخر لحظات، حتى قال بجديّة: أعذريني. وذهب إلى البيت. وكان من السهل أن يتناهى إلى الأسماع خبر مشاجرته لزوجته وضربه إياها.
كان هابتلر يانوش الابن طفلاً سليماً مليئاً. ونظراً لطبعه الاندفاعي كان يسبب الأزمات لوالديه. كانت إحداها فضيحة لا مثيل لها حين تلقى صفعة من معلمته، لسبب ما قبل الامتحان، فصرّ على أسنانه ولكم المرأة على معدتها. فكان من سوء الحظ أن انحنت المعلمة أمام السبورة وأخذت تتقيأ. اصفرّ لون الموظف هابتلر شاحباً من الخجل فلم يستطع العشاء. وصرح أن من الأفضل أن يشنق نفسه، من أن يربي مجرماً بين أفراد العائلة. أما ماريا بيك فقد شتمت المعلمة.

- كيف تضرب ولداً لا تطعمه - صاحت ورشقت ابنها بالملعقة الخشبية.

في سبتمبر "أيلول" افتتحت مدرسة جديدة، مسقوفة بالآجر الأحمر. تعلم فيها الولد خمس سنوات وكانت نتائجه مشابهة لنتائج أخته الكبرى.

كانت له هواية واحدة لا ثاني لها: كرة القدم. فالنزهات التي أقامتها العائلة للمشاهدة من خلال سور الشباك المعدني لمصنع "رينجر"

صارت بالنسبة للولد مملة. فلم يكن يتحلى بالجلد لمتابعة الغرائب التى كان والده يغريه بمشاهدتها. ومنها مثلاً الرجل الأنيق بقبعته القش وثيابه الملونة ، حاملاً بيده هاتفًا وهميا لا وجود له وينادى بصوت جافل "هالو ، هالو ، فى إفريقية عثروا على شجرة الخبز وتحتاج ألف عربة لتحملها فى الشتاء".

ومن المشاهد الغريبة أيضًا المرأة التى ألصقت وجهها الجميل على الشباك المعدنى منادية أن يخطفوا الشاب فقط ، أما هؤلاء والآخرون غيرهم فلا يهمونها فى شىء.

– فليذهبوا إلى الجحيم. تلتهمون اللحم المقلى مع مخلل الخيار وتريدون أن توهمونى بأنكم مجانين.

وراحت تشتمهم غاضبة. وتهاجمهم متقدمة منهم فطاردتها ماريا بيك.

كان الولد ينتقل إلى ملعب كرة القدم المجاور ، غير آبه بأى فريق يفوز. فقد كان يتابع المباريات بسعادة لا تفوقها سعادة. وكان يجادل بمجرياتها عن معرفة تنم عن خبرة وحب. لكن إذا ما لعب فريق الحى الثانى من بودا فكان يطير عقله من رأسه. فلا يحتمل أى خطأ فى التحكيم مهما يكن بسيطًا ، ويعتبره إهانة شخصية له ، وقد استخدم قبضته غير مرة. هو أيضًا مارس كرة القدم، وكان يشوط الكرة القماشية بكثير من الاندفاع والإرادة، لكن بقليل من الموهبة. وكان فى

بعض الأحيان يطوف على "جبل النسور" يجمع الزهور والبنفسج ويقدمها لأمه بابتسامة خجولة. كان كل أحد يوصل من البيت غداءً لـ "سورم" وهو عجوز ذو لحية طويلة وقبعة بحرية بيضاء. يجلسان خلف شارع كارولينا ويتحدثان عن العواصف الرملية والأنواء البحرية والحروب.

قال سورم: – لا وجود لعالم آخر. الأسماك تلتهم الإنسان وينتهى كل شيء. وكان يعتبر أن التقويم الغريغورى ضرب من الجنون والمهزلة. ولا حاجة لأيام الاسم. وليدعم رأيه ويوضحه عمل من الورق المقوى مفكرة من سبعة أيام، كتب عليها: الإثنين: كعك بالمربى. الثلاثاء: فاكهة مجففة. الأربعاء: برغل مجروش للصوم الكبير. الخميس: فاكهة مجففة. الجمعة: برغل مجروش للصوم الكبير. السبت: مرق الحصان. الأحد: هابتلر يانى. أفضل شيء ، وأحياناً كان "سورم" يختلق مشكلة أمام المطعم، فلم يقف حسب دوره، وكان يريد وجبتين من الطعام. كان يتقدم وهو يعرج صائحاً:

– لا ينفعكم أن تتضايقوا منى أيها الشحاذون. أنا الذى أنقذت حياة "هورتى" فى (نافارا) فى العاصفة ، فى الدخان، فى الحرب الكبرى. ضحك الناس. بينما راح "سورم" يبكى، ويشتم بكلمات نابية الحاكم الجاحد والمستبد. تساقط الثلج ناعماً، عندما جرّه شرطى كان على دراجة. أسف الناس على حاله. ورنوا إليه بصمت حتى غاب عن أعينهم عند ناصية الشارع "يوتبشكا" خلف المطعم. وفى المساء ، فى المطبخ، قالت غيزيكا:

– وسوف يودعون العجوز فى مصح "رينجر". ولن يبرد ثانية. نظر إليها يانى بعينيه الصفراوين: - إوزة. كيف يحتجزونه فى المصح. وراح يصر بأسنانه حتى اضطر الموظف أن يسدّ أذنيه. وضعت آنا كوفتش أيضًا صبيين أسودى الشعر كالغراب. وفى خريف عام ١٩٣٣ ولدت بنتًا ماتت بعد أسبوعين. عانت الأسرة من صعوبة العيش، وغالبًا ما كان الجذّاء يطلب من ماريا بيك أن تشترى طعامًا لأسرته. لقد كان لزوجة هابتلر موثوقية لا حدود لها عند البقال. كان الرجال كل يوم، يشربون البراندى فى بيت هابتلر. وتقوم ماريا بيك بتقديم الشاى بالروم ، والخبز المحمص بالدهن والثوم. وفى اليوم الثانى لعيد الفصح قصدوا الطبيب ابن السقّاف - وكانت جوقتهم الموسيقية قد اختارته عضو شرف فيها - وانتظموا فى بيته، بإيقاع هادئ، وأصوات دافئة راحوا ينشدون أغانى الفصح. فى ربيع ١٩٣٦ طلبت آنا كوفتش أن يحدثها هابتلر عن أكاديمية لودفيكا . لمّ ورق اللعب ورتبه بعناية واستجمع أفكاره ثم قال:

– مساحة الأكاديمية تتوزع على أربعة وأربعين فدانًا تبرع بها البارون أورزى بهدف أن تقام عليها منشأة للعلوم العسكرية يرتادها أولاد البلد المتميزون. حديقة بديعة، تعيش فيها أصناف الحيوانات. يمكن أن تجدوا فيها حمار الوحش والغزلان، وأعدادًا لا حصر لها من الطيور، الطاوس ، وأحواض السَمك الذهبية. والتماثيل، وبحيرة واسعة تصلح حتى للتجديف. إضافة إلى كنيستين : كنيسة إنجيلية وأخرى كاثوليكية. ويصادف فى العشرين من آب "أغسطس" من كل عام عيد الجيش الذى تشارك فيه كبار الشخصيات. والدعوات بالطبع شخصية. حين يحضر

ممثل الحاكم تعلن الأبواق قدومه إلى الاحتفال، ثم يعزف النشيد الوطني. يليه أداء القسم الذى يقول: أقسم بالله الحى أن أظل وفيا للمجر، وقائد الجيش الأعلى، وأن أقف فى وجه العدوان الداخلى والخارجى، وأبقى وفيا حتى الموت للقوانين المجرية. وساعدنى يا رب كى أصون عهدى هذا. عندئذ تمتشق السيوف عاليا، ويبدأ ممتشقوها مسيرهم فى نظام منضم منادين بأعلى ما تجود به حناجرهم "بالروح من أجل الوطن". وأخيراً يلقى الخريج الأول للدورة كلمته الاحتفالية لينصرف الجميع بعدها إلى الغداء الاحتفالى المتضمن تناول كئوس الشكر - والذى يرسب - سألت أنا - ما الذى يحلُّ به ؟ - عندنا لا يرسب أحد - أجاب هابتلر. الأغبياء منهم يرسلون إلى الريف ضباط خدمات. - وأنت! ما عملك - سأل الحذَّاء - قل لنا أرجوك. هل تحرس المتحف من سرقة ضباط الجيش لمقتنياته؟ صمت لحظة ثم قال:

- القسم الذى أعمل فيه يتطلب شخصًا متزنًا. وليس من قبيل التفاخر أن أعترف بأنى أسلم كل دخلى لزوجتى. إضافة إلى وظيفتى فى القسم أعمل فى السوق كذلك. لا أتناول النبيذ إلا فى الأعياد الكبرى، وباعتدال. ولا أضعف أمام المغريات لأنى لا أمد يدى إلى ما ليس لى. وظيفتى تتطلب تفكيراً متزنًا. ولكى أوضح هذا أضرب مثلاً عمليا من الواقع. إن السيد المقدم أرسل عسكريا إلى المحطة الشرقية لنقل حقيبته إلى شارع "الطاحونة الأسطوانية". أخذها العسكرى بالتاكسى وقدم للمقدم الفاتورة. انتاب السيد المقدم غضب شديد وقال: شيوعى. وطلبه للتحقيق. وعندما سئل العسكرى كيف تجرأ وصرف

أموالاً للمقدم على تاكسى. أجاب أنه لم يستطع نقلها بالترام. ولكن هذا طبعًا ليس مبرراً. فلو جرت معى هذه الحادثة، لن أقوم بهذه الفعلة الحمقاء ولو تطلب منى تنفيذ المهمة الجهد الكثير. يتضح من هذا أن العسكرى - لا أتجنى عليه وأدعى أنه شيوعى، فقد لا أكون محقا - لم يسلك السلوك السليم. - أجل - قال الحذاء. وبنظرات هازئة رفع عينيه إلى هابتلر يانوش - تأخر الوقت - حان وقت النوم. وخلال دقيقتين انصرف الجميع إلى النوم. وحدث فى نهاية الصيف أن طفقت ماريا بيك تشتم زوجها بطريقة تفوق الوصف بسبب "أنا" زوجة كوفتش. فقد صرف بعد ظهر يوم أن وقعت عيناها عليهما معًا فى الغرفة. كانت ابنتاها تصطافان فى "بروغتش" وكان ابنها فى سينما "شمس" فى شارع "المرأة السعيدة". وكانت غيزيكا ما زالت حتى هذا الوقت تتابع بانتباه ودهشة، ساعات بطولها المرضى فى مصبح "رينجر" تسمر هابتلر شاحباً. ووضع ماكينة الحلاقة على الطاولة وحاول إسكات المرأة. توسل إليها أولاً أن تعود إلى عقلها. وألا تصرخ. وكعادته أثناء نوبات فجورها كرر أنه شخص هادئ مسالم لا يحب الفضائح، وليس من طبعه أن يؤذى حتى ذبابة، لكنه إذا أخرج عن طوره فسوف تحصل كارثة. ولكن حديثه هذا زاد من شتائمها فوصمته بأنه حقير، كذّاب.

- اسكتى بحق الله من الأفضل لى أن أذهب. أن أفارق هذا العالم.

- ستذهب ؟ وتأخذ معك تافهتك السوداء.

فتل هابتلر شعر المرأة الأشقر، وألقاها أرضًا ثم أشبعها بالركلات حتى أشفى غليله.

- أترين ما الذى يفعله بى سيدى ! - صاحت ماريا بيك

- بسببك أيتها القاهرة السوداء. واندفعت مسرعة إلى باب بيت كوفتش تلطم زجاجه بقبضتيها لاعنة شاتمة بأعلى صوتها الزاعق. ولولت آنا كوفتش على نحو هيستيرى، معلنة أنها ستقضى على نفسها. فأخذت تفتح دروج المطبخ، لكنها لم تصادف إلا الملعقة الخشبية. ارتدى هابتلو ثيابه الرسمية السوداء، ووضع قبعته السوداء المذهبة الأزرار. وخرج. رجع بعد يومين. كان ثملاً، متعباً. قادته ماريا بيك إلى السرير وأطبقت ستارة النافذة

- هدوء يا أولاد. أبوكم مريض.

فى تشرين "أكتوبر" من عام ١٩٣٦ بدءوا يفككون البراكات، وأعطى السكان أربعة عشر يوماً للمغادرة. بكت النساء. بينما راحت مجموعات الرجال هنا وهناك تتذب خطوطها. وكان رجال الشرطة يتجولون مثنى فى كل المكان ووقع القلق فى نفس هابتلر حين تذكر أجور السكن العالية. إضافة إلى أن سوق البيع قد انتقل بعيداً إلى شارع "كفاشى" فلم يعد بالإمكان ارتيادة فجر كل يوم لجلب البطاطا والفاكهة. بعد ليال عدة لم يعرف هابتلو خلالها طعم النوم، قصد العقيد فيلموش الذى نوره بفكرة هائلة. قال: عليه أن يشرح للعميد الجديد حالته السيئة وما آل إليه وضع أسرته، وإنه يأمل فى العمل بمطعم الضباط. وأن يسمح له بأخذ بقايا الطعام إلى بيته. وسمح له قائد الأكاديمية الجديدة بذلك. أخذها الضحك حين سمعت ماريا بيك بالخبر الجديد.

- سنعبئ كروشنا - صاحت - وتلتهم ما طاب من الكاتو بالكريما.

وبيدها البشعة ذات الأصابع العقفاء طبشت كأسًا بالأرض. حتى في المساء الأخير، قصد الجميع مطعم "كريست". وشربوا وغنوا. وثمل كوفتش كالخنزير. هزّ قبضته وشتم الوطن الحقير. وبعدها ارتمى فوق الأرض المتسخة، دافنًا وجهه بيديه يبكي بحسرة. كانت في الجوار حانات لا تحصى. وكلها متشابهة طبق الأصل. كان مرتادوها من العمال، يشربون ويهذرون، ويتجادلون حاشرين أنوفهم في كل شيء. ولكن حانة "هارفش" تميزت عن جميعها. ليست محتوياتها من أثاث ومصباحها الزجاجي القذر، ونوعية النبيذ الذي يقدم فيها ، هي التي ميزتها. فالزوار هنا، أيضًا يهذرون ويشربون ويتجادلون ويناقشون جديا السبب الذي جعل "شابات بيلا" يشرب الغاز. وكيف ربح أشتفان هيرش المال في سباق الخيول. ومن الذي تسبب في جنون "يولي تشالا". ولا يكفون عن كل هذا أيضًا حتي يعلن نادل الحانة عن إغلاقها وينهر من فيها بالمغادرة. بل إن الذي ميز حانة "هارفاش" عن غيرها من الحانات أنها كانت مستقرا يؤمه العم "رايش" مغني الكنيسة. ما إن يطأ بأسماله عتبة الباب حتى ينقلب مزاج النادل النكد وتبرق عيناه تهليلاً لقدوم الوافد. ويكون قد أعد سمك الهرينغ - والبصل المخلل، وعاير النبيذ بماء الصودا. وما إن ينتهي العم "رايش" من عدِّ النقود على طاولة الحانة، حتى يبدأ بدس فتات السمك في فمه الأدرد. وبعد الكأس الثاني، يزول شحوب وجهه فيستند على منضدة الحانة الطويلة، ماجًا سيجاره الرخيص. ثم يبدأ بعنجهية العارف كل شيء، شروحه المختلفة ، كيف لا تخطئ الطيور المهاجرة اتجاهاتها في رحلة الهجرة، وكيف كان شكل

بانيو كليوباترا، وكيف يلتقي مستقيمان متوازيان في اللانهاية.
وذات مرة صاح نادل الحانة:

- لو تقول لنا من الذى سرق أموال الكنيسة اليهودية ؟

احمرَّ العم رايش.

- ليس مستحبا أن توجه إليَّ أسئلة كهذه. - ليس مستحبًا ؟
ما الذى تفعله في المقبرة ؟ تنقطع الغوغاء في الحانة العابقة بالدخان.

- فعلاً. فعلاً.

حدثنا عن هذا أيها المغنى.

حملق في حشد النابحين ثم قال غاضباً:

- بأى حق يجرؤ أى كان على اتهام مواطن ؟

هل هذا من آثار المؤامرة الألمانية.

أنا لا اسمح بتوجيه أى تهمة لى. صحيح ... أنا أيضًا ... أكلم الناس في المقبرة ... لكن صرت أنا أيضاً من أصحاب الكرم الواهبين. جلس إلى الطاولة وكرع كثيراً من النبيذ. وكان يطلب رغباته بأعلى صوته. حاسب عن الجميع، غنى، وعانق "هيرش أشتفان" وقال ليولى تشالا: - إن الله في عوننا حتى في الظلام. صفق الجميع. ضحكوا. وخيم في الحانة المفعمة بالدخان جو المرح، حتى تعب العم "رايش" وأحنى رأسه فوق الطاولة إلى حين الإغلاق. حمله "هيرش أشتفان" إلى البيت. فتحت "كاتو" الباب واستلمت العجوز بما يفوح منه من روائح

العرق والنبيذ. وقادته إلى السر ير الهزّاز. قال رواد حانة "هافارش": إن هيرش أشتفان واقع فى حب "كاتو رايش". هنا تدخل النادل بالحديث: ـ هيرش أشتفان يريد أن يجلس الفتاة فى أحضانه ليس إلا. ولا ينوى أى شيء آخر. لم يستهجن الحضور ما قاله النادل. واعترفوا أن من أمنيات أى رجل قاطن فى شارع "ناج فورفاروش" أن يجلس الفتاة فى حضنه. كانت "كاتو رايش" فتاة جميلة، صعبة المنال. وقد استهواها هابتلر يانوش الابن. لكن من طرف واحد ودونما أمل. لم يكن هابتلر يانوش الابن، فتى جميلاً، ولا يمتاز بأرجحية عقلية ما. فقد كان بنوعية عنيدة لا يكبح جماحها. إذا ما أثيرت حفيظته لا يتوانى عن استخدام قبضته فى لكم حتى الجدران التى تجاوره. وعندئذ يأخذ بالزئير بأعلى حنجرته. فى بداية أعياد الربيع. حين تناول المتدين (المعتدل) الكعك، واشترى بطاقة دخول إلى الكنيسة بـ (بنغو) ين اثنين، رجته "رايش كاتو" أن يتزوجها وستكون زوجة مخلصة له. ولم يكن أى معنى لعرض الزواج هذا ، أمام الفروق الطائفية التى أغلقت كل إمكانية لذلك، والتى وضحها هابتلر يانوش الابن، وأفاض فى الحديث عنها، ذات يوم ربيعي جميل. فى هذه الأنحاء لا تتشابه الحانات وحدها. بل تتشابه بيوت الاستئجار كذلك. فهى فى الغالب تتألف من ثلاثة طوابق ولكل طابق مرحاضه المشترك وبابه النابضى ذى الصرير. وفى غرفة بمطبخ ، فى الطابق الثالث من أحد بيوت الأجرة السكنية هذه، قطنت عائلة هابتلر البهيجة. كانت الأسرة السعيدة مترفة. مائدتها عامرة لا تخلو فى يوم من الدجاج والإوز، ويجلس حولها، دونما تفرقة فى المرتبة الاجتماعية أو الطائفية،

الجيران والأقارب، والمعارف البعيدون والقريبون، وحتى الشحاذون الذين يعرِّجون يوميا على هذه الأنحاء. أنجز "شابت بيلا" طلاء الغرفة الجديدة. وقسمت حسب رغبة ماريا بيك إلى نصفين، يفصل بينهما جدار خشبى شقت عليه نافذة وباب صغير. استقر فى القسم المطل على الشارع الأثاث الذى جاء هدية من رئيس الأساقفة "تاوبنغر". الخزانتان، الطاولة، السريران فيما بين طاولتين عليهما كلوبان. واحد من السريرين للزوجين والثانى ليانى. وفى القسم وراء الجدار الخشبى صوفة نامت عليها هانيلكا وأستر. إضافة إلى طاولة وكرسيين وموقد، وصندوق هابتلر العسكرى أخضر. وفى الركن على الرف اصطفت برطمانات رب البندورة، والمربى، ومخلل الخيار التى ضاق بها سقف الخزانتين كذلك. كانت غيزيكا تستيقظ فى الساعة الرابعة صباحًا لتذهب إلى عملها فى مصنع النسيج المجرى، تنظف سجاجيده، لقاء تسعة بنغوات أسبوعيا. وعمل "يانى" متدربًا على المخرطة فى أحد مصانع الحديد فى "أنجل فولد" (أرض الملاك). والفتاتان الصغيرتان فى المدرسة التحضيرية فى شارع "تشوبانس". وفى البيت فى الممر تلعبان دور الحورية "إلونا" وتتشاجران فى الغالب.

وتتخامشان بالأيدى حتى يسيل الدم. ماريا بيك فى المطبخ تقوم بغسيل البياضات التى يحضرها هابتلر من الثكنة. ومن الربيع حتى الخريف كانت الأسرة، كل أحد، تخرج بصحبة الجيران والمعارف للنزهة فى حديقة "الشعب" (نيب ليغات). يضطجعون على العشب. والأطفال

يتراكضون ويتأرجحون، أو يوقفهم وجه المهرج المرغ بالطحين. كانت غيزيكا فتاة جميلة. عيناها صافيتان، فاتحتا الزرقة ورمشاها غامقا اللون وشعرها برونزى. هيفاء القد، صدرها مكتنز وجميل. كانت ترتدى ثيابًا مزررة ضيقة، حين خاطبها لأول مرة فى حياتها رجل. كان شابا أسود الشعر، ناصع الأسنان، قد أحسن اختيار ما يرتدى من ملابس. قال لها إنه موظف فى أحد مصانع المعدات، وهو ملاكم، أحرز ثلاث ميداليات أبرزها للفتاة. بعد يومين شاهدته غيزيكا قبالة النافذة يتمشى بثياب بنية فاتحة ورابطة عنق حمراء نارية، صاعداً، نازلاً أمام جدار الكنيسة اليهودية الرمادى. نزلت إليه برفقة "كاتو رايش". تمشى الثلاثة وتحدثوا إلى أن ودعتهما كاتو راجعة إلى البيت، فذهبا إلى سينما "فونيكس" حيث تبادلا قبلاً فى العتمة. بعد ظهر السبت أحضر الرجل بطاقة سيرك. دعته غيزيكا إلى البيت. كان هابتلر، وكالوز، والحذّاء يلعبون الورق ويحتسون الكونياك. وكانت آنا كوفتش قد أدارت الفونوغراف فلعلعت مقطوعة (لاكوكالاجدا). فرقص هيرش أشتفان مع رايش كاتو، بينما كان "شابات بيلا" يجادل "يانى" فى مباراة كرة القدم ، وكانت "يولى تشالا" جالسة فوق صندوق القمامة تأكل فخذ دجاجة. والفتاتان الصغيرتان تلعبان قرب خزانة المطبخ ، بعلب الكبريت الفارغة. قدمت ماريا بيك للرجل كأساً من النبيذ.

- كم عمرك؟ - سألته.

- خمس وعشرون - أجابها الرجل

- يبدو عليك أنك تجاوزت الثلاثين - قالت ماريا بيك

ـ احذري يا ابنتي. للرجال أرواح الثعالب.

بعدئذ انطلقا إلى السيرك. وبعد العرض، وعند طرف غوطة المدينة امتدت يده تتلمس تحت التنورة. دفعته غيزيكا عنها وأسرعت إلى الترام. وبعدها كرر الرجل مجيئه مرات عدة ، ذهبا فيها إلى السينما. وفي طريق العودة إلى البيت تبادلا التقبيل عند مداخل البنايات كلها. وكانت النهاية حين صفعت ماريا بيك غيزيكا ومن يومها اختفى العاشق إلى الأبد. قالت غيزيكا لكاتو رايش ـ كم أحب التقبيل. كانت أمسية خريفية ، وكانتا أمام مطبخ عائلة هابتلر ، فأجابت كاتو رايش: ـ لم يقبلني أحد بعد. لكن أولاً وأخيراً سأكون زوجة لأخيك الأصغر. فليكن هو الأول. هذه رغبتي.

ـ لا يجوز أن تفكري هكذا ـ قالت غيزيكا بهدوء.

أجابت كاتو: إن أراد أصير مسيحية. سيبكي أبي. لكنني على استعداد للذهاب إلى القس وأصير مسيحية. عندئذ يحق لنا أن نتزوج ، وألد له صبياً كما يرغب.

عانقتها غيزيكا. وساد هدوء.

في أواخر الشتاء ، وقعت غيزيكا في حب "سوتش بيلا" السائق الشاب في مصنع "كراور" ومن مواليد "أوغفان". يتيم الوالدين ، يسكن مع أخته في شارع "هوموك". أحب "سوتشبيلا" غيزيكا هابتلر. تلاقت العيون. وتعانقا ، في ظلال الشواهد في مقبرة "كرشبشي". وكانت تهب رياح تحمل شذى الأكاليل. كانت غيزيكا سعيدة.

قالت لرايش كاتو: ـ ذهبي الشعر. له عينا غزال.

حين ترقت غيزيكا وعملت على آلة النسيج صار دخلها الأسبوعى ثمانية عشر بنغواً. وقررا الزواج. ولم يتيسر أمر بيلا ستوتش حين تقدم بطلب يدها. كانت ماريا بيك منهمكة فى الغسيل لما بادرها بالتحية العاثرة: يومًا سعيداً. عدلت ظهرها فوق الطست، وتركت كل شىء من يدها. مسحت يديها الدميمتين وأصابعها العقفاء ورمحت عيناها الزرقاوان نحو الشاب. قالت:

- سأناقش الأمر مع ابنتى. ولم تسمح له بدخول البيت. كانا يلتقيان سرا حتى التحق "سوتش بيلا" بالخدمة العسكرية فى ثكنة "ماريا تريزا". تبادلا خلال عام منها الرسائل. خلال ذلك أغرم هيرش أشتفان بغيزيكا. وكان كل يوم يجالس ماريا بيك فى المطبخ. قال إنه سوف ينتحر إذا تزوجت غيزيكا أحداً غيره. كانت هداياه. برتقالاً. بطاقات سينما. وكان يبدى احترامًا لغيزيكا بلغ حد الغباوة. وذات مرة وقعت عينا ماريا بيك على رسائل سوتش بيلا فى محفظة غيزيكا. فأشبعتها ضرباً. فى الربيع مرض سوتش بيلا، فزارته برفقة "كاتو رايش" فى المشفى وتحادثا فى حديقتها.

- غادرى بيتكم - قال الشاب

- وسأتزوجك

- لا يمكن لى أن أترك أهلى - أجابت الفتاة.

- أنت جبانة. انصرفى. لا أريد أن أراك ثانية.

وظلَّ هيرش أشتفان يجلس فى المطبخ ويتحدث مع ماريا بيك. وغالبًا ما كان يصطحب غيزيكا إلى السينما.

قالت غيزيكا ذات مرة لكاتو رايش: ـ مثل هذا المجنون لا يجرؤ حتى على لمس يدى. وبعد أيام مساء وقف هيرش أشتفان تحت ضوء مصباح الشارع وصاح:

– أنت! أريد أن أقول لك شيئًا.

– هيا! قله.

– بالأحرى أريد أن أعطيك شيئًا.

– هيا أعطنيه!

– أغمضى عينيك. أغمضت غيزيكا عينيها، فأعطاها أشتفان قبلة أقرب إلى زاوية فمها. لم تكن الفتاة تحبه. وجدته باردًا مملا وكانت تجهر له بذلك غالبًا. فى عيد الفصح عام "١٩٤٠" تزوجت "هابتلر غيزيكا" من هيرش أشتفان، نزولاً عند إلحاح والدتها ماريا بيك. وعقد قرانهما. أديا قسم الوفاء الأبدى فى الكنيسة الإصلاحية فى ساحة "تاج فارو" وعند المصور كانت رغبة زوجها القصير القامة أن تخلع غيزيكا الحذاء من قدميها أثناء التقاط صورة الزفاف التذكارية. حضّرت ماريا بيك السمك المقلى وحلويات القريش. وشربوا وغنوا حتى الفجر. وفى كانون الثانى "يناير" صادفت غيزيكا سوتش بيلا. كان الشاب منتظرًا عند المدخل فى شارع هولك. وكان الثلج يكسو شعره وجفنيه. لم تكلمه. ولم تلق التحية. لكن فى المساء قالت "مدام هيرش أشتفان" لكاتورايش:

– لا بد أنه قد أحبنى ... بل لعله كان سوف يتخلى عنى ... ما أجمله ... كنت أخافه من أعماق روحى. وانحنت تزود الموقد الأسطوانى

بكمية كبيرة من الفحم. وإثر آلام شديدة فى شباط "فبراير" نقلت الابنة الوسطى "أستر" إلى مشفى الصليب الأبيض للأطفال. كانت تعانى من عجز عن تحريك يديها وجذعها. ناقش روّاد حانة "هارفاش" الواقعة قلقين. قالوا: يحتمل أن تموت. ابيضت أصابع يديها. كان رأى العم "رايش" مختلفًا. أكد أنها ستتجاوز محنتها لأن "أستر" كانت تتغذى جيداً. بكت تشالايولى. وقالت إنها ستصلى من أجلها. فهى تصلى مرتين يوميا. صباحًا. وقبل النوم. تتضرّع إلى الله أن يرزقها طفلاً سليمًا وأن يحفظ "فارغاشاندور" فى كل خطوة يخطوها. وبعد أذية البالينكا عن معدة العم رايش، ضحك الجميع.

– ومن هو فارغاشاندور؟ ـ سأل نادل الحانة

– هل هو والد الطفل؟

– إنه خطيبى ـ قالت يولى تشالا

– يأتى كل أسبوعين من غوطة هورتى. إنه يعمل هناك. شخص اقتصادى. ادخر حتى الآن ستين بنغو. وحين سنملك المال الكافى سنطلى غرفتى ونجهزها بسرير مريح، وببعض الحاجيات الضرورية. ونتزوج.

– وأنت ماذا تعملين؟ سألها بيلا شابات.

– أنا أسأل لأنى أعرفك. إنك خنزير كسول. هزت تشالا كتفيها.

– أنا لا أحتمل الأعمال الشاقة ـ قالت بهدوء

– حاولت. كنت فى الحال أتصبب عرقًا. وأدوخ. ويدور معى كل شىء ... فيصرفوننى إلى البيت، من مصنع العلب. ذات مرة طلبت من العم باتشى أن يفعل لى شيئًا لأنه على احتكاك بأفضل البشر.

– صحيح ـ قال العم "رايش" ـ صحيح تمامًا . وأقسم أنني سأتابع محاولاتي، مع المدير شخصيا .

في أوائل آذار "مارس" أمن العم "رايش" لها عملاً في شركة أنشئت حديثًا . حصل ذلك حين كان على مائدة مدام "شالامون" الأرمل ، يتناول الغداء إلى جانب د. "أرنوفايدا" الذي تمنى له العم رايش شهية طيبة. وعرّج بعدها يتحدث عن بؤسه. رمقه الدكتور عبر نظارتيه واقترح عليه ، بكلمات مقتضبة ، حاسمة ، عملاً في الشركة الجديدة لقاء عشرين بنغو في الأسبوع.

رشح العم "يولي تشالا" ممتدحًا مهارة الفتاة العالية ، شارحًا حالتها البائسة. وفي البيت نصحها العم "رايش" أن تبتكر طريقة تبعد شبهات الدكتور عن أنها حامل. في لقائها الأول به على الأقل. وبما أنها لم تستطع أن تشد بطنها ، فقد وعدت أن تحركاتها لن توحي للدكتور بأي شيء. مثل هذا الحديث جرى يوم الأربعاء.

صباح الخميس قصدت تشالا مكان عملها . كان الدكتور فايدا عند المدخل. فقادها إلى الباحة. ودلّها على الورشة ثم رجع إلى المدخل من جديد. بنيت الشركة من الألواح الخشبية. يوضع في وسطها حوض معدني ، محاط بصناديق فارغة. تعمل قرب أحدها امرأة عجوز تقشر بذر اليقطين. وبين الحين والآخر تقهقه عاليًا . وقد تبين لتشالا فيما بعد أنها ليست مجنونة ، بل ثملة.

كانت "شالو بريتاش" مؤسسة رديئة. ما إن تصل الشاحنة وينزلون حمولتها من (المبصقات) حتى يبدأ العمل. راقبتها تشالا طويلاً حتى

تجرأت وطلبت من العجوز زجاجة البالينكا. شربت منها بعينين مغمضتين تتلذذان. ثم طوت كمى بلوزتها حتى المرفقين وعكفت على العمل.

مع مرور الوقت أفرغت العاملتان الزجاجة. ضحكتا. وغنتا كثيرا عصر يوم السبت دخل "فارغا شاندور" إلى الورشة. كانت تشالا مستغرقة فى العمل. منكبة ببطنها المتضخم فوق حوض، حين نبهتها العجوز إلى قدوم الرجل الذى بدأ يتقيأ، مشيرة بأصابعها الملوثة ناحية الرجل. واستغرقت فى نوبة من الضحك. مسحت تشالا يديها بثوبها، وانتفضت بحركة متثاقلة، قافزة فوق الحوض والصناديق، وفى نيتها أن تسرع لتقديم المساعدة. لكن كان "شاندرو فارغا" قد اختفى.

عصر ذلك اليوم اجترعت "تشالايولى" كثيراً من البالينكا فى حانة "هارفاش" كانت ثملة تماماً. لم تبك. لم تصرخ. بل استندت بمرفقيها فوق الطاولة. وبدأت الحانة تدور بكل ما فيها. فاندفعت إلى البيت. لكنها وقعت فى ساحة "ماتياش" أرضاً. تجمع الناس ورفعوها فوق المقعد. وهرع صوبها رواد الحانة يحدقون مذعورين. لكنهم لم يتمكنوا من تقديم العون فيما يخص آلام المخاض. عانت من أوجاع شديدة. زعقت. شدت شعرها. عضت أصابعها، نهشتها. وصحح "هيرش أشتيفان" غير مرة وضع تنورتها. حتى جاءت سيارة الإسعاف.

جلس هابتلر يانوش الابن تحت شجرة أكاسيا. كان شاحباً، مشدوداً، يصر بأسنانه. لقد أغاظته الواقعة كثيراً. فراح يطلق الشتائم، والعبارات المبتذلة. يلعن بها تشالا.

– فلتفطس ـ صرخ

– أتمنى لها من كل قلبى أن تفطس.

تقدم رجل أصلع الرأس من بين المتحلقين، وقال:

– ما الذى تقوله؟ انصرف من هنا وإلا دعوت الشرطة.

ذعر هيرش أشتفان ورايش كاتو. فطلبا من الرجل أن يلزم الصمت، وألا يتفوه بكلمة أخرى ، وأن ينصرف بروح طيبة تجنبًا للمشاكل. لم يكن الرجل سميعًا . أنزل يد كاتو رايش عن كتفه وأفاض بالحديث.

قال: شاب مثل هذا ينبغى تلقينه الدروس وتربيته. من أمثاله ينشأ المجرمون.

عندئذ حملق الشاب هابتلر يانوش الابن بعينيه الصفراوين واندفع من عند الشجرة. فشحب الرجل من الذعر

– شرطة ـ صاح.

ولم يقو على الهروب. وبحركة ، يبغى منها الدفاع عن النفس ، رفع قبضتيه إلى أمام صدره. جاءت لكمة الشاب فى رأسه. أطاح به على الأرض وأوسعه ركلاً. ولم يتمكن حتى الشرطى إلا بصعوبة من ردعه عنه.

اقتيد هابتلر يانوش الابن إلى مخفر الشرطة فى شارع "فاتسى" دون أن يبدى مقاومة ، أو يبدر منه حرف. وفى المساء ، حين أطلق سراحه ، كانت كاتو رايش بانتظاره عند ناصية شارع "يوجف" تمشيا

حتى ساحة "ماتياش". جلسا على مقعد هناك ، يرنوان إلى أطفال الغجر القذرين ، المرحين. فيما بعد سألت كاتو رايش عن عقوبة الحادثة. أجاب الشاب:

– ربما غرامة مقدارها ثلاثون بنغو ، للأسف.

– الأهم ألا يصل الخبر إلى البيت - قالت بوجل

– أنت تعرف أباك. سيظل حزينًا لأيام.

وفيما بعد جاءته نوبة الغضب ثانية. اشتعلت عيناه. شتم تشالا واصفًا إياها بالخنزيرة السكيرة اللعينة. وضرب بقبضته المقعد فانقشرت جلدتها وسال الدم.

– من غير المعقول أن تنجبي وأنت على هذه الحال - صرخ

نحن بشر. لا أحد يفعل ما تفعلينه أنت. كيف تنجبين ولدًا وأنت ثملة دائمًا ، مثل الخنازير. الطفل طفل.

ثم صمت.

فتح قبضته. رأته كاتو رايش يبكي. لكنها لم تجرؤ على لمسه. كانت أمور هابتلر يانوش الابن ، في العمل ، على خير ما يرام. نشيط متحمس. وغالبًا ما كان هيرش أشتفان يسأل زملاءه ، مطمئنًا عليه. كان الجميع يتحدثون عن الشاب بارتياح.

وفي وقت راحته أحضر لـ "شابات بيلا" العربة وفيها كل ما يلزم لطلاء الغرفة. فرشاة ، طلاء ، وساعده في تقشير الجدران وتنعيمها وطبخ له الغراء. ورافقه في العمل مناولاً إياه العدة.

زايش كاتو أحضرت لهما العشاء الذى أعدته ماريا بيك. ورتب الأجر متوافقًا مع حجم عمله ، وحالة مزاجه الراهنة. وحين أطفئت الأنوار وأغلقوا البيت ، وانصرف "شابات بيلا" إلى حانة هارفاش ظلا يتحدثان. قال الشاب:

– لو عملت وحدى لأنجزته بشكل أجمل وأسرع. أمسك يد الفتاة. وجلسا على الدرج. تابع الشاب:

– أتصدقين؟ أعرف كيف أدهن الصالونات والبيوت الواسعة ، بحيث تبدو ، بالأزرق والرمادى ، لامعة ومضاءة دون الحاجة للمصابيح.

– اقبلنى - قالت بهدوء -

وإذا شئت سأرتدى ثيابًا زرقاء فاتحة بشرائط رمادية.

غضب الشاب:

– لا أرغب أن أؤذيك. أبدًا. لكنك تضايقيننى. لا أريد أبدًا أن أجرحك. لا تجعلينى أضطر فى اليوم التالى لأن أتشاجر مع أى شخص أصادفه. لذلك. أرجوك تحدثى عن شيء آخر.

– اسمعنى أنا حريصة جدا على كل ما تقوله ... فى السنة الماضية قلت لى فى المحطة الكهربائية أن شعرى مليء بالقمل. بكيت طوال الليل ، قصصته عن آخره ، لترى كم أحبك. وخفت بعدها أن تغضب منى ولا تكلمنى ... نحن سنكون سعداء معًا ، ولو لم أكن أكيدة من ذلك. لا أقوله. وسيكون طفلنا جميلاً.

– أنا لا أتزوج فتاة يهودية. لدى فكرة سيئة عنهم. ولا يمكن أن أحبهم مطلقًا. لست وحدى من يحمل مثل هذه المشاعر. إنها لدى الجميع.

ابتسمت الفتاة دامعة.

– لم أكن أنا على جبل الزيتون. هنا ولدت فى شارع "فوفاروش"

برقت عينا الشاب باصفرار

– أقصد شيئًا آخر ، القذارة تبرقع ثياب أختى الصغيرتين. كل يوم حين يعودان من المدرسة ، تكون بينهما "ماسا ستيرن" و "روجى فايس" وبنت "شليشنغر" ويمكن أن أذكر أكثر من هذا العدد. أنا أمقتهم. وأتمنى لو أرميهم بالحجارة. ماذا أقول لك. إنها ركام من القذارة. أفواه مزبدة ، أحذية مفتوحة. وأم هؤلاء ضخمة كالخنزير. تجلس فى المحل ، وتعطى هانيلكا وأستر كعكة متسخة كالبراز. أنا أمقتهم.

ظلت صامتة. لم تبد أية حركة. صمتا كثيراً. حتى سألها الشاب بعصبية:

– ما الذى أحزنك؟ إذا ما تجرأ أحد على إيذائك سأطفئ ضوء عينيه. وبيده القوية أمسك وجه الفتاة. وأداره نحوه:

– أتصدقين؟ هزت الفتاة رأسها وانفجرت فى بكاء صامت.

كانت ترافقه لحضور مباريات الكرة كلها. وكانت مهمة صعبة عليها. من مكانه فى الدرجة الثانية، ينفعل ويشجع نادى "فاشاس" ،

ملتهب الجوارح، متطرف الانفعال حتى النهاية. قال لها إنهم يضيقون على فريقه، وينحازون ضده لأنه نادي عمال منشق ، وكم أفسد للفتاة البهجة أنها ترافقه بعد كل مباراة. ومرة في نشوة الانتصار الذي حققه ناديه "فاشاس" في التصفيات كسر ساعة يده التي عليها هدية بمناسبة تأصيل عماده ولكنه أقدم في شارع "لاتوريسام" على فعلة أكثر خطورة، ففي مباراة (فاشاش - بيسكارت) فقد السيطرة على نفسه، وثار زاعقاً في وجه حكم المباراة:

– انتظر أيها الحيوان القذر. إذا دخل الروس ستنطلق صفارتك بشكل آخر. انكمش الناس من حوله ولزموا الصمت بينما عانقته كاتو رايش والتصقت به وجهًا بوجه ، وصارت تبكي متوسلة ، راجية إياه أن يكف عن مثل هذا. أشفق الناس على الفتاة ، وأقنعوا الشاب بالكلمة الطيبة أن يوصلها إلى البيت.

وفي حزيران أخرجت "أستر" من المستشفى ، نحيلة شاحبة ، لم تتحسن صحتها تحسنًا يذكر. كان العسكري هابتلر يحملها على ظهره كل يوم إلى حيث تتلقى المعالجة الفيزيائية بتحريك مفاصلها وتحصل على حقنتها المؤلمة. كانت ماريا بيك تعمل كثيراً. حتى تحقق للبيت المزدحم بالأسرة الكبيرة الترتيب المأمول. الطهي ، وحده ، لم يسبب لها أية معاناة ، لأن العسكري كان يحضر الطعام من أكاديمية لودفيكا ، وغالبًا ما كانت هانيلكا تترقب قدومه عند الباب لتأخذ منه الأغراض.

وكان دخل هيرش أشتفان كبيراً ، يزيد عن خمسين بنغو في الأسبوع كان يعمل في مصنع الأدوات الدقيقة المجري في شارع

"نهير ماري". قيل عنه إنه موهبة نادرة ويتمتع بعقل راجح ومهارة كبيرة. كان معجبًا بيديه ، اللتين كانتا طويلتين جميلتين يخصهما بعناية دائمة ، ويلعب بهما ويلوح أثناء الحديث دعمًا لآرائه. وبعد زفافه على غيزيكا سأل أمها أن تحسب كم سيدفعان من نقود في البيت كل شهر:

ضحكت ماريا بيك

– نحن نعيش في هذا العالم ، دون حساب. عندنا يأكل كل أفراد المبنى. هل تظن أنني سأطلب منكما نقودًا!

"عاش هيرش أشتفان بهدوء. بعد العمل ينزل إلى الحانة. يتحدث قليلاً إلى جانب كأس من النبيذ ويعزف كل مساء على آلة "الماندولين" أغنيته المفضلة: فتاة هاواي. لها الحب الكبير.

ذات عصر كان مستلقيًا فوق صوفة حين سألته يولي تشالا إذا ما كان راضيًا عن غيزيكا.

حرك كتفيه وقال:

– لا مشكلة معها. لكنها أحيانًا تثير أعصابي. تشرد أحيانًا ، وتصير طرشاء. وعلى أن أعيد الفكرة مرتين.

قالت تشالا:

– عليك أن تربيها.

نهضت أستر من سريرها في الطرف الآخر للغرفة. وخرجت إلى المطبخ وسردت لأمها ما سمعته من حديث. وفي الحال طردت ماريا بيك تشالا من البيت وسألت هيرش أشتيفان.

– ابنتى أنا تغتابها مع تافهة مثل تشالا؟ احذر يا أشتفان هيرش. احذر جيداً . أنت لا تعرف ماذا يخبئ لك القدر.

لم يجب. فيما بعد نزل إلى حانة هارفاش ، أحضر نبيذاً مزا . قبّل يد ماريا بيك وطلب منها الصفح. فى آب من عام ١٩٤١ اشترى كوخًا من غرفة واحدة فى"بشت أرجيبت" على شاطئ الدانوب ، وقاربًا مستعملاً يتسع لشخصين .

فى أول تشرين الأول دعى إلى الخدمة العسكرية فى قسم الرماة. طهت ساريا بيك الدجاج والكعك ، وأعدت الصندوق العسكرى الأخضر. وفى الساعة السادسة صباحًا رافقته غيزيكا وأخوها يانى إلى شارع هنغاريا الدائرى حتى باب ثكنة الغروف أندراشى ، النبيل. استطاع منذ الأسبوع الأول أن يأتى إلى البيت ، ليؤمن لقائد الحرس حجر الصودا الكاوية. ساعده بذلك العم رايش.

رافقه إلى تاجر الجملة الشهير "مور برغر" ، وهناك عقدوا صفقة أخرى رابحة ، بنسبة ربح كبيرة باعه التاجر الشوكولاته ، والعصير ، والسكريات، وفراشى الحلاقة ، والمعاجين. وصار هيرش أشتفان يبيعها للجنود بربح مناسب ، وهذه التجارة شكلت إزعاجًا طال أمده ليانوش الابن الذى كان يحمل شنطة البضاعة لصهره. وما لبث أن ترقى هيرش أشتفان فصار كاتبًا فى مكتب قطعته العسكرية ، وأصبح توقيعه مثل قائد قطعة ، سارى المفعول. ولم يعجب ذلك ماريا بيك.

– إذا كنت تريد أن تلبس بزة رسمية

– قالت بعصبية – فاعمل منظف مداخن

أجاب هيرش أشتفان:

– أعرف ماذا أفعل. ليست لدى رغبة فى الذهاب إلى الجبهة.

فى عيد القديسة "باربا لا" دعى جميع أفراد العائلة للاحتفالية ، وفى باحة الثكنة صدحت معزوفات الفرقة الموسيقية وقرأ أحد الجنود منشور القديسة باربالا ، وهو عبارة عن لفافة ورقية عليها ما يشبه أقوالاً شعرية طريفة ساخرة تمس واقع الجيش وتهدف إلى إقناع الحضور من الضباط والجنود.

فى اليوم السابق لعيد الفصح قامت ماريا بيك بتنظيف كبير للبيت ، وبدلت من ترتيب محتوياته من أثاث. وهى عادة من عادات ماريا فى كل عيد ، بل من عاداتها فى كثير من أيام السبت ، ولو كان ذلك يتسبب فى إغاظة أفراد الأسرة. والآن أيضاً لم ينج أحد منهم من المشاركة سواء فى تحريك خزانة ، أو طاولة أو سرير أو فى تنظيف أرضية ، أو نافذة حتى عجّ هواء البيت بالشوائب والغبار. الصغيرة هانيلكا ركلت غيزيكا على ساقها. بكت المرأة الشابة متألمة وشكت أمها فعاقبت ماريا الاثنتين بالضرب.

– لا تضربينى على رأسى – صاحت هانيلكا

– اضربينى أينما شئت. ولكن رأسى لا.

بكت غيزيكا. تبعتها أستر. صرخ العسكرى حائراً ، ونادى الجميع أن يكفوا عن الصخب ، لكى لا يظن الجيران أن ما يحدث جريمة قتل.

راحت ماريا تشتم وتلعن ، وانتابت "يانى" نوبة غضب فرفع قبعة أبيه وخبطها ورماها أرضاً.

فى الحادية عشرة ليلاً لزم الجميع أسرتهم مزهقين. لم تكتم أستر شدة فضولها. تسللت إلى الخزانة تبحث عن الكتاب المغلق بورق وزدى ناعم. وتصفحته على نقر حبات الثلج فى الليلة الباردة.

كان الكتاب "أزمان عظيمة ، نساء عظيمات" لـ مدام دابييل لورا لانجل :

"إلى أخت زوجتى - مع فائق حبى - هيرش إشتفان"

اندست إلى جانب هانيلكا ، ودست وجهها فى الوسادة ، ومع طغيان إحساسها بالخديعة انفجرت بالبكاء.

شجرة الميلاد ينصبها العسكرى هابتلر كل عام فوق الصندوق العسكرى الأخضر. ويقوم بتعليق زينتها. والفتيات يساعدن ماريا بيك فى المطبخ. أحضر يانى الفحم من الطابق السفلى. والآن إشعال الشموع. قالت ماريا بيك غاضبة: اذهبوا وأحضروا تشالا لكى لا تبقى البقرة المنحوسة وحيدة فى زريبتها الصغيرة.

ذهب يانى لإحضار كاتو رايش.

وفى وقت متأخر رن العسكرى هابتلر الجرس ، دخل إلى الغرفة ، وانتظروا أن يبدأ رب الأسرة الغناء بصوته الجميل.

"فى عيد الميلاد المبارك لسيدنا المسيح ..." ورددوا وراءه النشيد خاشعين ثم أشعلت الأضواء. ووزعت القبلات فيما بين الجميع ، وراحوا يبحثون عن هداياهم تحت الشجرة.

حيث كانت ماريا بيك قد كتبت الأسماء على قصاصات ورق.

قاد يانى الفتاة إلى الغرفة الأخرى ، قبلها وأخرج من جيبه علبة موشاة بشريط أزرق ، كان فيها سلسلة ذهبية رفيعة بحلية رباعية الوريقات. وقدمت الفتاة للشاب ربطة عنق.

بعد أن فرشت الفتيات الغطاء الأبيض على طاولة رئيس القساوس "تاوبنغر" ، بدأن يحضرن الصحون والأقداح. وأمرت ماريا بيك كاتو رايش أن تدعو أباها على العشاء.

- نائم - قالت الفتاة بهدوء - شرب رومًا ...

فى هذه الأثناء يرتجف من البرد فى المقبرة. لكن وبإلحاح من الجميع ، قصدوا العجوز برفقة يانى وأيقظوه. خرج العم رايش منبسط السريرة من سريره المعدنى ، غسل وجهه ، عنقه بالماء البارد. وألبسته كاتو رايش قميصًا أبيض وعلى عجل نظفت حذاءه الموحل ، بشوشًا حيًّا العم رايش عائلة هابتلر وتمنى لهم أعيادًا سعيدة ، واعتذر لعدم إحضاره أية هدية معه. وقال متوجهًا بالحديث إلى ماريا بيك:

- عرضوا لى مصباحًا برأس تنين. فكرت أن أحضره لك. لكن عينيه أيضًا تضيئان. زرقاوان مثل مصابيح غرف المرضى. قطعة مخيفة. لم أجرؤ على شرائها ... كل ما فيها يذكر بالموت.

قلت ماريا بيك:

- تشرب قدحًا من الروم ثم تحلم أحلامًا شوهاء كهذه.

احمرّ العم رايش كعادته ، وحاول أن يوضح أنه رأى حقيقة مثل هذا المصباح المخيف فضحك الجميع خاصة وأنهم يعرفون جميعًا "سحبات" العجوز الكبيرة.

سحبت ماريا علبة سيجار من تحت الشجرة وقدمتها للعجوز .

ضحكت قائلة :

– هذه جلبها المسيح لك ، أيها العجوز الأزعر .

كان العشاء مرقة اللحم ، ملفوف محشي ، سمك مقلي وقريش ، فطائر بالجوز. لحم الخنزير ودمجانة النبيذ وصلت من الأهل في بروتش. بعد الكأس الثاني ابتسم العم رايش وأفصح عن إيمانه بالسعادة وبأن الروح لا تموت.

وضع ياني قدحه.

– قال /سورم/ لا يوجد عالم آخر. الأسماك تأكل البشر وينتهي كل شيء.

فكر العم رايش :

– كلام سورم خاطئ ، يا بني. ربما صار مدفونًا ولكنه ما زال حيا هذا المساء .

وتابع:

– قلت هذا لابنتي ، مرات عدة عندما تكون حزينة أتحدث معها كثيراً عن مشاكل الحياة الكبرى.

نظر إلى الفتاة وابتسم. كانت عيناه العجوزان تمتلئان دموعًا ، بعد العيد أحضر المصباح الموعود لماريا. طلب خرقة قماش ومسح عنها الغبار ثم نصبها على الطاولة.

– هكذا ... – قال بصوت معتذر :

أعجبت الساعة العسكرى وقال:

– هدية فاخرة. لابد أن سعرها مرتفع. شكراً لهذه اللفتة الكريمة منك.

وضعتها ماريا بيك على طاولات النوم قرب السريرين. ولم تضئ عينا التنين ، ولكنهما كانتا تبرقان. مع ذلك تعافت أستر. عاودت الذهاب إلى مدرستها. وبسبب خسارتها الوقت صارت مع أختها هانيلكا فى صف واحد. كانت متوترة. إذا ما أثيرت سرعان ما تدفع برأسها بطون الأولاد. ولكنها فى عام ١٩٤٢، ونظراً لاجتهادها وتهذيبها المتميزين حصلت على مائة وعشرين بنغو وهى المكافأة التعليمية التى قدمها مصرف الادخار فى العاصمة. كان العسكرى فخوراً فقبل جبينها قائلاً.

– شىء رائع منك

وبلغ به الزهو ليقول إنه لم يحصل فى شهر واحد طوال حياته ، على مثل هذا المبلغ.

فى مساء خريفى مات العم رايش. نعوه وقت الفجر. عجت المقبرة بالمشيعين. عندما أهيل التراب ، وأنهيت عملية الدفن تقدم هابتلر يانوش الابن من بين الحضور وأمسك يد الفتاة وغادرا المكان. وقفا فى مدخل المقبرة اليهودية فى "راكوش كرستورى". كانت الشمس تسطع دافئة. أنزل يانى قبعته ووزع نقوداً على الشحاذين.

- ابكى - قال لها.

ولمعت عيناه المصفرتان وهو يثبت نظره فى وجه كاتو رايش. ثم مشيا أمام معمل البيرة ، صعدا إلى الترام وفى ساحة تيسا كالمان فى نهاية شارع المسرح نزلا. تسكعا وقتًا طويلاً. وعند الغروب وقف يانى على زاوية مسرح المدينة.

- ابكى - قال - إذا لم تبكى سأطرق رأسى بالجدار بكل ما عندى من قوة. سأفجه.

تلاقت عيونهما. اندست فى صدره. وبكى الاثنان.

لافتة زجاجية سوداء تتصدر واجهة المنزل رقم (٢٧) فى ساحة تيساكالمان:

بأحرف ذهبية كتب عليها "دوتيش هايم". كان يسكن الطابق الثالث مدنيون ألمان أنيقون. فما إن تقع عين هابتلر يانوش الابن عليهم فى الشارع ويسمع كلامهم حتى يبهت وجهه من الغيظ ، مرة لمح فتاة (سيئة) عاهرة برفقة ألمانيين فتبعها وراح يصر بأسنانه. لا يطيقهم. ولا يعرف سببًا واضحًا لكرهه لهم.

وحين اكتشف العسكرى هابتلر أن عدائية ابنه تجاه الألمان تتفاقم شيئًا فشيئًا ، بلغت حد شتمهم فى الشارع بادره بالتدخل:

- قل لى متى ضايقك الألمان؟ هل سببوا لك إزعاجًا بأى يوم؟ حتى إنهم لا يفطنون إلى وجودك فى هذا العالم. ولا تهمهم فى شىء.

علمًا بأنهم يعيشون بيننا بكامل الحق وبموافقة الجهات العليا. لذلك أنا أحذرك. سد فمك قبل أن تقع في مشكلة.

لكن لم ينقطع الشاب عن شتمهم بل صار يشغل المذياع ليستمع إلى راديو روسيا.

في ربيع١٩٤٣ اختلق مشكلة. ففي الخامس عشر من آذار "مارس" بثت راديو موسكو ضمن برنامج احتفالي من برامجه بعض الأغاني المجرية القديمة ، واستمع بعدها إلى المذيع يقول إنه في عام ١٩٤٨ كان قيصر روسيا هو شرطي أوروبا وهو الذي هرع لمساعدة الجيش النمساوي. و الآن يحل محله هتلر ، والألمان والفاشيست.

في اليوم التالي ، ومن باب التفاخر زود بمعلوماته الطرية هذه بعض الفتية في باحة المدرسة. وكان أن استدعي بعد دقائق إلى الإدارة.

– بماذا ينبح راديو روسيا؟ سأل المدير.

صمت هابتلر.

– تحدث وإلا سأنتزع أسنانك.

شحب الصبي لكنه نبس بهدوء...

– حضرتك لست قويا بما فيه الكفاية حتى....

ضحك أحدهم في ركن الباحة. تراجع المدير قليلاً إلى الوراء .

– أحذرك – صاح

وقدم فى الشاب تقريراً إلى السلطات المختصة.

لم يبلغوا العسكرى بما حدث. كتمته حتى ماريا بيك التى توفزت بصمت وراحت تجول حائرة فاقدة الوعى. تركت من يديها كل شىء ، وارتدت ثياب حفلاتها وقصدت الدكتور فيلموش ماتياش فى منزله. وروت له ما جرى ، بصراحة.

أصغى إليها العقيد حتى أتمت الحكاية. همهم ثم قدم لها البالينكا.

– أنا لا أحب الألمان – قال

– سيدتى العزيزة أنا أستاذ تاريخ وموسيقى فى المجر.

راح يضحك ويصفق بيديه..لاحظت ماريا كيف كان مأخوذاً بحالة من السكر. فسألته بهدوء:

– هل بوسعك مساعدة ابنى؟

دس العقيد أصابعه فى شعره الأشيب باحثاً عن فكرة. ابتسم:

– بالتأكيد – قال

– أعتبرى أن الحادثة منتهية. وإذا ما دعت الضرورة سأذهب بدلاً منه حتى إلى حبل المشنقة.

فاقدة الحس ، هبطت ماريا درجات البناء.

وفى الأسفل كان العم رايش بانتظارها.

– صلِّ ليلاً نهاراً – قالت المرأة

– عسى أن يكون ربُّك مختلفاً.

حضر هابتلر الابن إلى مخفر شارع "فينغ". تصفح رئيس القلم محضره ثم قال:

– انتظر.

وانتظر ساعة ونصف الساعة حتى أدخل إلى عميد الشرطة .

سأل العميد:

– هل تشعر أنك مذنب ؟

– لا – قال الشاب

– لماذا ذهبت إلى ماتياش إذا كنت لا تشعر أنك مذنب ؟

لم يعرف الشاب كيف يجيب.

– هل أنت فوضوى ؟ – قال ضابط الشرطة

– هل تعلم ماذا يعنى هذا؟

– لا أعرف.

– مرض غير قابل للشفاء.

وصرفه إلى البيت.

فى أكتوبر "تشرين الأول" استدعى إلى معسكر "بيلشابا" إلى وحدة الحرب الكيميائية.

شوت ماريا بيك وطبخت ، وأعدت لابنها الصندوق العسكرى الأخضر. صباح الاثنين ودعهم يانى فى البيت ولم يسمح لأحد أن يخرج بصحبته وحين غادر البيت بكى الجميع.

فى محطة القطار القريبة التقى جورى كالاوز الذى جاء وحيداً أيضًا. تصافحا بقوة. عجت قائمة الانتظار بالنسوة الفلاحات اللواتى يتحدثن بالألمانية. سألهن كالاوز عن الأحوال فى "بيليشتابا". أجابت النسوة: لا داعى للخوف، مسألة الطعام.... محلولة.

فى هذه الأثناء ترقى قائد الفصيلة يوجف يوجا وصار مقدمًا وكان يانوش رائدا. وكوفاتش أشتفان ملازمًا. وخضع ثلاثتهم لدورة فى النظام والتأهيل استمرت من أكتوبر "تشرين الأول" حتى عيد الفصح. تعلموا فيها ترتيب أسرتهم وبعض القواعد الأخرى التى تخص العسكريين. دورة إعادة تأهيل.

كان يانى يتلقى الرسائل بكثافة من رايش كاتو تخبره فيها عن نتائج كرة القدم ، وأن الجميع فى البيت بخير ، وأنها تعمل بأجر جيد وقد اشترت ثيابًا كحلية لكن لن تلبسها حتى يأتى هو.

وأتى فى عيد الفصح. اجتمع شمل الأسرة. ودعيت تشالايولى كذلك برفقة ابنتها. وكانت كاتو رايش فائقة الجمال بثيابها الكحلية الجديدة.

فى اليوم الثانى للعيد جاءهم ضيوف. صدح الـ "غراموفون". رقصوا ، لعبوا الورق ، غنوا ، شربوا النبيذ ولم يتح لماريا بيك أن

تحضر السندويش. بدأ هيرش أشتفان شجاره مع غيزيكا مأخوذاً بتأثير النبيذ وعلت نبرته في وجه زوجته غيزيكا ولوح بقبضته. ثارت أستر. عانقت أختها الكبرى وصرخت بهستيرية:

– لا أسمح. لا أسمح.

ولم يتمكنوا من تهدئتها بسهولة. ماريا بيك أيضًا تلفعت غيظاً. وراحت ترشق قائد الفصيلة بعباراتها الرنانة كيفما اتفق ، وألقت بين قدميه قدحاً زجاجياً. اصفرَّ العسكرى خجلاً ، وتوسل إليهم أن ينهوا هذه المهزلة ، وإلا سيحول هذا البيت إلى حطام.

أدارت "آنا كوفتش" "الفراموفون" ، وصدح صوت "كاراديكاتالين" بأغنية: "هذه الخسارة خسارتنا نحن الاثنين". ضحك جورى كالاوز. وكان أن استقامت السهرة. فيما بعد قال شابت بيلا: سيشرعون قانوناً يحظر أن يقبل مسيحى يهودية.

ذهلت تشالايولى.

– من سمع عن مثل هذا؟ سألت

– من أحب أنا سأقبلها حتماً.

همهم شابت بيلا قائلاً:

– هذا قانون – قال

– من يقف ضده يقاومه ، يتهم بالتحريض لتمازج الأجناس. وأنت لن يسجنك أحد. حتى الكلب لا يرضى أن يأخذه إلى مرقده. ضحك هيرش أشتيفان قائلاً:

– أكيد.

وعندما لاحظت ماريا بيك عيني ياني صرخت بهم أن يكفوا عن هذا الحديث الغبي، ويهتموا بالشراب والطعام وافتعلت متضاحكة متوترة أن تروي حادثة قديمة مضحكة، تهدف إلى تحويل مسار السهرة لكنها لم تستطع إنقاذ الحالة المتفاقمة. اقترب ياني من شابت بيلا. ساخراً من فريق كرة القدم "فرنتس فارروس" الذي يشجعه.

ضحك الدهان. وبلهجة مازحة تهكم من فريق (فاشاش) الذي يشجعه ياني قائلاً:

– إنه فريق يهودي. مثل إم، تي – كا – فريقان ضعيفان.

رد ياني:

– أما أنت فبطيء مثل القملة لا تلحق وتبلل فرشاة الدهان حتى يبطل مفعول البطاقة الأسبوعية. صمت شابت بيلا لحظة

– هل أدين لك بمبلغ؟ وجه السؤال وأخرج ورقة نقدية

– قل لي سأوفيه. قام عن الطاولة. واحتدت العينان الذئبيتان

– كنت تشرب الغاز المضيء الكاثوليكي، حين كانت زوجتك تنام مع بوربي سيلاجي أيضاً – قال ياني

– ولم تقطس.

– قفزت ماريا بيك إليه. صفعته واحدة. وزغقت:

– تريد أن تتشاجر دائمًا. أنت لعنة. أنت لعنة البشرية. آه. كيف ولدتك! ملعونة أمك ... أيها المجنون ... يا رب.

حين قاد العسكرى الشاب برفقة كوفتش أندره ، إلى الفرقة الثانية ، صبت جام غضبها على شابت بيلا :

– اذهب إلى الجحيم. وتحدث عن قوانينك هناك فى الحانة. لا تأت إلى هنا مرة أخرى لأني سأطردك. كانت كاتو رايش تقف إلى جانب شجرة الفصح ، تدير ظهرها للجميع: ارتعشت حين أمسك يانى يدها .

– انظر ما أرفع السلك الذى تتعلق به – أشارت إلى قطعة سكاكر تنوس على الشجرة. وحاولت أن تبتسم :

– قبلنى قبل أن تسافر.

قطب يانى جبينه وشد على حنجرته ولم يستطع التكلم.

– كيف تقف هنا – قال فيما بعد – كيف بحق الله – هيا ساعدى أمنا . لست ضيفة هنا .

كان البرد حين خرجا إلى بيشت أرجبيت.

وكان الجليد يغطى وجه الدانوب. وفوق التربة الممتزجة بالثلج قاد الفتاة من ذراعها ودخلا كوخ القارب الصغير. فى الداخل أشعل النار فى الموقد المعدنى وتابعا حتى صار اللهب ورديا وانقلب أحمر ناريا. خلعت الفتاة معطفها الشتوى وجلست بثيابها الكحلية على السرير.

كانت الشمس تسطع عبر النافذة ، وانعكست ألوان الستارة على وجهها.

قرفص ياني قرب المدفأة.

حين أعود – قال – ستكونين زوجتي. لا تظني أن لأحد علاقة بهذا الشأن .

ابتسمت الفتاة

– كنت دائمًا ...

مرت دقائق تفكير وقال الشاب:

– لا تظني أنني أحبك لأنك جميلة. قلت لجوري كالاوز

إنني أحبك لأني لا أستطيع غير أن أحبك. أغلق عيني وأفتح عيني.... أراك.

تناول قطعة من خشب. أدارها بيده. ثم وضعها بحرص على الأرض الخشبية.

– لا يجوز أن تنظري إليّ أي رجل. لا يجوز أن تفعلي كما تفعل النساء الأخريات. أنا أقول لك الحقيقة. وإن كنت ستكذبين علي سأتخلى عنك.

– ليكن ما تشاء .

بعد عيد الفصح تعقدت أمور ياني ورفاقه. صار التدريب قاسياً في دورة إطفاء الحرائق ، وهم يرتدون الثياب الضيقة المزعجة ، وخطيراً في دورة زرع الألغام ونزعها ، وقد حدثت انفجارات كثيرة ومزقت الجنود تمزيقاً.

في أيار "مايو" انطلقوا إلى الجبهة ، عبر "تتارهاغ" وفي ديلاتين نزلوا من القطار ليعسكروا هناك حيث هاجمتهم الطائرات الروسية قبل انتشارهم ، فكانت خسائرهم في الفجر الأول اثني عشر قتيلاً.

ومن ديلاتين توجهوا إلى "بوروهي" حيث زرعوا ألغاماً تحت الرمال ، وجهزوا ، عبر أسبوعين ، مصائد الدبابات. وقد أطلق الضباط على عملهم هذا دعم خط أرباد. تقدموا خمسين كيلو متراً حتى خط الألمان. مرة لم يعد غير الأحصنة تجر الأعمدة الخشبية جريحة مثارة دون عربات ، بعد انقضاض الفدائيين عليها.

– مساء اليوم التالي عاد كالاوز وحيداً. ومات الباقون. بدءوا يخافون من جهة المنحدر الشمالي. حيث سبحت الغيوم واطئة وعبأت شجرات الصنوبر العملاقة. وكان لون سواقي الجبال داكناً.

– ريف يوحي بالغربة – قال كالاوز

– سوف يبكيني في أحلامي أيضاً .

لم يجب ياني .

عند انسحابهم من المكان أضاءوا القرية بالعبوات الأسطوانية ، والبراجيكتورات والقنابل اليدوية بناء على تعليمات المقدم يوجا يوجف.

وتراجعوا حتى "أكرفرو" سيراً على الأقدام لعدم وجود خط للقطار. وبعد أيام قليلة أرسلوا من جديد إلى المكان نفسه لفتح طريق لعناصر المئونة وصلوا إلى " ليفيوها " في عصر حار. عسكروا وعينوا عناصر الحراسة.

خنادق مردومة ، خوذة صدئة ، بعض القبور بلا شواهد دلت على الحرب العالمية الأولى. حفر كالاوز واحداً من القبور. وقف الجنود والضباط يشاهدون ما يفعله في قاع الحفرة. رفع جمجمة ، وذراعًا ، وعظم ساق ، وألقاها على العشب.

– من أية جنسية يمكن أن يكون ؟

كان الجنود مجهدين ، وهم يشاهدون العظام المخلوعة فلم يسعفهم مزاجهم أن يتمادوا في الهذر .

قطعوا الأشجار ، وفجروا صخور سفح الجبل ليشقوا طريقًا لعبور المشاة الألمان. في آب ساروا على محاذاة نهر "التراك" وعسكروا حيث يصب التراك في نهر تيسا ، وبعد أيام انسحبت سرية منهم باتجاه أنغفار وبقيادة رئيس حرس انطلقت فصيلة ياني ، وكالوز ، إلى مانلوك سيراً على الأقدام.

هناك قايض كالاوز الفلاحين بالدجاج ، والأرز مقابل أن يعطيهم المسامير والأسلاك الشائكة. واحتجز يانى لأنه قتل أرنبًا بالرصاص فى نوبة حراسته.

فيما بعد انتقلوا بالقطار باتجاه "هدشنمت" ثم باتجاه "باركان" وفى الثالث من تشرين الثانى "نوفمبر" تلقت فصيلتهم فى محطة القطار نبأ تفجير "جسر مارغيت"(*).

وكانت السرية قد وصلت إلى المحطة. فغادر الجميع إلى "استرنوم" ومن هناك إلى "بيلشابا" .

صباح الأحد كان قائد الكتيبة على ظهر حصانه يعطى لكتيبته فى باحة المنسية أمراً بالاستعداد "استعد" قال:

- كتيبتى على أهبة الاستعداد للحرب ضد الشيوعية فداء الوطن وستموت فداءه. وكان حرس المعسكر يؤدون واجبهم فى حراسة المكان.

بعد عشرة أيام سيرت الكتيبة على طول نهر الدانوب حتى استقرت فى "سغدوروسلو". هناك رفعت الأيدى بالهتاف: "يعيش سالاشى" لكن التشكيلة استجابت لترديد الهتاف القديم بأصوات خافتة ، هازئة.

ومن جديد هنا أقاموا المرابض ، وحفروا خنادق القتال ، وزرعوا مصائد الدبابات ، واستخدموا سكان الناحية فى أعمالهم.

(*) جسر مارغيت : أحد الجسور الرائعة بين نصفى العاصمة بودابست .

وذات يوم ، ظهراً ، ظهرت بينهم باسمة وبمعطف ناصع البياض الممثلة البودابستية سالازكي زنيا.

اشتعل ياني غيظًا ، صر بأسنانه ، وتأهب ليرمي قنبلة يدوية بين أقدام المجموعة البودابستية الأنيقة فمنعه الجنود وأخذه كالاوز إلى باحة بيت فلامي ولازمه حتى هدأت أعصابه.

بعدئذ نقل الجنود بالعربات إلى قلعة "كومارم". ومن الجهة الأخرى لنهر الدانوب قصف الروس القلعة. وخلف القصف كثيراً من الجرحى ، والدم ، والموتى ، والدمار.

في اليوم التالي ذهبوا إلى "ماني" ثم إلى تشابدي. وفي فترة مسيرهم هوجمت الكتيبة ، وكادت أن تباد عن آخرها. هنا قتل المقدم يوجايوجف ، الرائد كاشا يانوش ، والملازم "أشتفان كوفتش".

فرّ ياني وكالاوز ، يعدوان بين شجيرات الكرمة. فأصيب كالاوز برصاصة جعلته يتهاوى فوق الثلج. رمى ياني الكيس عن ظهره ، وألقى بندقيته من يديه وحمل صديقه مسافة تزيد عن كيلو متر.

وعند حافة خندق حيث ترتسم بقعة من نور أهال عليه التراب ودفنه. وكان البرد شديداً حتى جعل دموع ياني تتجمد على وجنتيه.

تحت نشر الجنود ، أقاموا حفراً للرمي. كل مائتي متر حفرة. وفي كل حفرة يربض راميان. وبعد فترة كانت حفر الأحياء من بينهم تتباعد

ثمانمائة متر عن بعضها. فاجأهم الروس وأسروهم. وهكذا وقع فى الأسر يانوش هابتلر الابن.

وضعت كاتو رايش طفلة معافاة فى أيلول "سبتمبر" ، لفوا مرفقها بقماشة كتانية كتب عليها بحبر أسود: رايش ماريا.

زارتهما غيزيكا فى المشفى وأحضرت للأم الشاحبة السعيدة مرق الدجاج والكاتو وأشياء أخرى.

هى الأخرى كانت تنتظر مولوداً. فوضعت بعد أيام قليلة فى المشفى ذاته ، فتاتها الصغيرة. وأقيم عمادها فى الكنيسة الإصلاحية فى ساحة كالفين ، باسم "آغوتا".

رجع هيرش أشتفان إلى البيت حاملاً الورود لزوجته وصرخ:
- لا مزاح فى الأمر. لقد خسر الألمان الحرب. فليحرص كل منا ، فى الزمن المتبقى على أن يبقى حيا.

- وسنرى ما الذى سيحصل - قال.

بعد عشرة أيام انتقلت الكتيبة إلى "بيت" فذهب معها.

فى الثامن والعشرين من أكتوبر "تشرين أول" طلب العميد كوكشيش مدير أكاديمية لودفيكا إفراغها.

وبينما كان العمال (اليهود) يرتبون محتويات الأكاديمية فى صناديق ويحملونها فى شاحنات إلى محطة "فرنتس فارو" ،

استدعى معاونه هابتلر يانوش إلى مكتبه.

– هذه ستة فيللرات – وبقى معك أمس أربعة فيللرات. أضفها إليها واشتر لى "جريدة" افتتاحية. تصفح "الجريدة": وحين أفرغت الجدران من اللوحات الفنية ، والخزائن الزجاجية من محتوياتها سأل العسكرى :

– إذا استولى البلشفيون على البيت المقدسى ماذا ستفعل أنت؟

أجاب هابتلر بلهجة صادقة أنه لم يفكر فى كثير من هذا ، وحتى لم يخطر بباله أبداً.

فى ٣١ أوكتوبر "تشرين أول" من عام ١٩٤٤ نقلت حاويات أكاديمية لودفيكا من محطة فرنتش فاروش إلى كورمند حيث حصل الضباط على مأوى فى قصر استرهازى. ريثما استقروا فى سنتهاردا.

قبل ظهيرة الثانى من شباط "فبراير" عبروا الحدود. وعند محطتهم الأولى فى لاسينك أقاموا ، تحت السماء المكشوفة وفى برودة عشرين درجة تحت الصفر أدوا صلاتهم البروتستانتية بأمر من العميد كوكشيش. ثم ذهبوا إلى درسدن ، حيث ظل الجنود يومين يفرغون الحاويات. وفى اليوم الثالث بدأ القصف ، ودمرت المدينة. عاش هابتلر الابن أسوأ ليالى ونهارات عمره. أكثر من عشرة آلاف إنسان لقوا حتفهم. منهم كثير من المجريين ومن بينهم د. مانياش ميلوش. خرجوا من المدينة الملتهبة وتابعوا المسير إلى "ترشنرويت". وبتوجيه من الباسل

روجاش يوجف مستودع الكنيسة. هابتلر يانوش سكن مع محتويات المتحف مع أم د. فيلموش فى غرفة من منزل فى الطابق الأول فى شارع ويتزر. كان صاحب الغرفة جنديا بساحية واحدة وكانا يدفعان له الأجرة ، دهنًا مقددًا ، ومعلبات وشرابًا كحوليا. كانت العجوز دائمة البكاء لم تشأ أن تنام ليلاً ، بل تظل جالسة على الكنبة ، تتسلى بعلبة حليتها ، وغالبًا ما تنهض للتبول.

كانت بذلك تشحن هابتلر بالغيظ ، وتدفعه ليقدم على أفعال لم يسبق أن قام بها فى حياته. مرة شرب نصف لتر من الروم ، ووصف السيدة العجوز بالخنزيرة الشمطاء ، سبَّ وشتم وغادر الغرفة.

صار القصف حالة غالبة فى بودابست ، جعلت فتيات المدارس تلوذ بالملاجئ وإذا ما انطلقت صفارات الإنذار وكنَّ فى الشارع لم تلتجئ أستر وهانيلكا فى مدخل بناية ، بل كانتا تسرعان إلى أمهما التى كانت تحتضنهما بذراعيها فى القبو، وكانتا تستشعران أمانًا فى الحضن الدافئ .

كانت العائلة مشتتة. وفى فترة ما قبل الظهيرة من كل يوم ، كانت ماريا بيك وحيدة مع ولدها الأكبر وأغوتا. تعصف بها الوساوس المؤلمة ، من اللا أمان والرعب .

فى هذه الحرب. غيزيكا لم تخف. كانت تذهب إلى عملها فى بست الجديدة كالمعتاد وتقطع المسافة إلى البيت ماشية إذا توقفت حركة الترام

لسبب ما. كاتو رايش لم تعلق شارة النجمة الصفراء لأن ماريا بيك لم تسمح لها. دخلت إلى شابت بيلا. كان الدهان فى حزب "الصليب السهمى" بقميص أصفر ، سألته:

– إذا لم أسمح لها بشارة النجمة ، ما المشكلة فى هذا؟

أجابت شابت بيلا:

– غباء. لن يضايق هذه الفتاة أحد وفى الحقيقة لم يضايقها أحد. فى معمل العلب كانت زميلاتها يبدين لها معاملة لطيفة ويبادلنها الأحاديث الودية. وروّاد حانة هارفاش غالبًا ، كانوا يستوقفونها فى الشارع ليطمئنوا على ابنتها الصغيرة ، وجمالها المدهش. حتى إن نادل الحانة عرض عليها نقوداً لكنها رفضت ذلك. كانت تتناول طعامها لدى بيت هابتلر. وكانت ماريا بيْك تمنح طفلتها القبلات وتوليها الحب والرعاية ذواتيهما اللتين تخص بهما آغوتا. وإذا ما بكت الطفلة هى التى كانت تهدهدها بالأغنيات.

حين جاءت التعليمات تقول إن على كاتو رايش أن تقيم فى بيت يهودى ، بكت ماريا بيك حائرة ، وصارت ترسل لها طعام الغداء والعشاء مع إحدى بناتها. وزارها شابت بيلا بمذاقين: الشوكولا لها واللعبة الرنانة لابنتها.

اشتعل مصنع شل ، دمرت الأبنية ، وعجت الشوارع بالقتلى. وبدا من سلوك ماريا أنها مصابة بمرض عصبى خطير. زعقت زعيقًا

هيستيريا في وجه غيزيكا ، ولم تسمح لها بالذهاب إلى عملها . وشدت أستر وهانيلكا من شعرهما ، في الممر ، لتدخلهما إلى البيت. ثم هدأت، سقت الأزهار ، تمشت في المطبخ حافية ، نقعت حب الفاصوليا . كتبت رسالة. ثم تركت القلم. وشبكت كفيها .

– ربي. سيدي. كيف تفعل ما تفعله؟ سألت بصوت خافت متأملة بعينيها الزرقاوين أوراق الشجر المرتعشة في ضوء الفجر.

على غير انتظار ، فاجأتهم أم هابتلر بقدومها من بروغنتس وصاحت باضطراب:

– هيا تحركوا لأن السيارة ستنطلق.

خطفت ماريا بيك بعض الأغراض التافهة وانطلقت تهبط الدرج.

أسرعت الشاحنة بهم. حضنت مارينا آغوثا . واحتمت البنات ببعضهن. عمت الظلمة حين تذكرت ماريا بيك كاتو رايش.

– يا مسيح – قالت – نسيناها .

لم يتكلم أحد.

في بروغنتش كان ينتظرهم الهدوء. أنهت ماريا عملها المنزلي. في المساء كتبت رسائل. ونسجت ثيابًا وردية اللون من أجل آغوثا ، ومن أجل بنت كاتو رايش.

كانت فتيات – هابتلر يقضين أوقاتًا بهيجة. مضت بهن غيزيكا إلى المقبرة ، يدرن بين القبور ويقرأن الشاهدات ، ولعبت هانيلكا مع الأطفال الفلاحين ، شاهدت الإوز السابح في البحيرة الشحيحة ، وأحست أستر لأول مرة بمشاعر جذبتها إلى شاب لاهوتي شاحب ذي سبعة عشر ربيعًا. جلست قربه جنبًا إلى جنب تحت شجرة العليق العريانة يقرأن معًا في كتاب آران يانوش. كان الفتى مسلولاً. ومات.

في نيسان ١٩٤٥ عادوا إلى البيت. وقد كان البيت مهجوراً فقد قشرت جدرانه فأمرت ماريا بيك بطلائه من جديد. عملت غيزيكا دءوبة في صناعة القطن. وكان اسمها يتكرر دائمًا بين الأسماء الثلاثة الأولى في لائحة العمال المتفوقين فتحصل إلى جانب أجرها الشهري على الطحين، الفاصولياء ، البازلاء ، الزيت ، سميد الذرة ، إضافة إلى القماش ، على رأس الجائزة. وعملت في وردية ليلية ، كعمل إضافي خاص ، فنحفت ونقص وزنها إلى أربعة وأربعين كيلو غرامًا ، وفي نوفمبر "تشرين الثاني" انهارت حالتها. أقلتها سيارة الإسعاف إلى مشفى أشتفان ، ولم يظهر عليها أي مرض عضوي. انهيار عصبي.

كانت ماريا بيك تتابع في باحة الكنيسة اليهودية اللوائح الرسمية لأسماء القتلى ، لكنها لم تجد اسم كاتو رايش ، ولا اسم ماريا رايش.

انتسبت هانيلكا وأستر إلى ثانوية المعلمين وفي الأول من شباط "فبراير" تزحلق كوفتس أندره عند المنعطف ومات تحت الترام. وأقيمت

طقوس دفنه من قبل القس الإصلاحي. بكت آنا ، وعند عودتها عن القبور كانت تحتضن ثلاثة أطفال سود العيون كالغراب. تقدمت منها ماريا بيك برفقة بناتها. وعانقتها دون أن تنبس بكلمة.

سكن في بيت العم رايش أحد الشيوعيين. البدناء الطوال ، وزوجه السمينة ذات الرجلين الثخينتين ، واستجابة لرغبة الرجل الطويل ذي الثياب الرثة المهملة ، أخبر خفير العمارة القاطنين فيها أنه سيلقي فيهم كلمة وينبغي حضورهم إلى الباحة. نصبوا طاولة مطبخ أمام بيت الخفير، وغطوها بمشمع أحمر ، وفي أمسية من أمسيات السبت ، على ضوء الكهرباء ارتجل الساكن الجديد الشاحب بصوته الجذاب الكلمة المتأنية التالية:

– أيها الرفاق! أدعى شرش شاندور. أقولها منذ البداية من مواليد وادي بونا ١٩٠٣ .

رفاق كان عمري أحد عشر عامًا حين نشبت الحرب العالمية الأولى. وكنا في البيت أربعة عشر فردًا ، بنشوب الحرب خرجت من المدرسة ولم أكن قد أنهيت الصف الرابع. كان على أن أعمل "مياومًا" في حقول الإقطاعيين منذ مطلع الشمس حتى مغيبها لقاء بضع فلليرات.

رفاقي الأعزاء. كان أبي عاملاً في السكة الحديد ، أجره لا يكفي لإعالة ثلاثة عشر فردًا ، عانيت من الجوع وكان على منذ بداية الربيع حتى نهاية الشتاء أن أبقى اليوم بطوله بثياب مرقعة وحذاء تالف.

لن ننسى أبداً. خاصة في الصيف أيام الحصاد حين كان علينا أن نرافق الحصادة منذ الساعة الثالثة فجراً حتى الساعة الحادية عشر ليلاً موعد راحتنا حتى الثالثة فجراً ، وهكذا ... أيها الرفاق!

حين قامت ثورة التاسع عشر كنت في السادسة عشرة من عمري. هربت لأتعلم مهنة الخياطة. لا شك أن الجميع يعرف تمام المعرفة كيف كان الصبي المتمرن. ولا يجوز أن تنسى أيضاً أنه كان على أن أقوم بكافة الأعمال المنزلية الأخرى.

إذا وجد رضيع في البيت كنت مضطرا أن أعتني به ، وأغسل له خروقه القذرة ، وأفرغ من تحته "النونية".

أيها الرفاق حتى جاء وقت الحرية تحررت من بين يدى معلم الخياطة. لكنني لم أمارس المهنة للأسف. هذا ما حصل. كنت مرغماً على العمل بأقل أجر. هكذا كان الإنسان لعبة بيد القدر.

رفاقي!

حين علمني القدر أن أعمل، صرت عاملاً نقابيا . خضت حرب الأجرة ، وسعيت إلى تنظيم العمال. وطردني رب العمل لأنني كنت أحرض عماله ، وهكذا صرت عاطلاً عن العمل مرات كثيرة أنا ، يا رفاق ، شاء القدر أن يلقنني درساً من أجل أن أحدد إنتمائي في حياتي العمالية الأولى. والآن بعد أن حررنا الجيش الروسي المجيد ، انزاح عن قلبي حجر ، وأدركت على الفور واجباتي. وعلى رأسها انتسابي إلى

الحزب ، ولن أدخر جهداً لا الآن ولا فى المستقبل. فى متابعة أحوالكم والدفاع عنكم.

بقى شىء آخر ، قبل أن أنهى حديثى ، هو أن حديثى هذا ليس بدوافع رخيصة ، وأننى لم أنتسب إلى الحزب لتحقيق مآربى الشخصية. فأنا لست أكثر من عامل بسيط ، أعمل فى مشغل لصناعة الثياب. وأخيراً أرجو منكم أن تنصتوا للشيوعيين ، لأننى أجزم ، بقلب تقى ، أنهم الذين صانوا فى الماضى وسيصونون فى المستقبل ، ودائماً ، المصالح الحقيقية للإنسان العامل.

صفق له السكان بقوة. وخرجوا بنتيجة أن من لفتات القدر أن يحتكوا بهذا الإنسان الغبى.

تضاحكوا ، غير غاضبين ، لأنه بدا شخصاً بسيطاً ، صادقاً.

فى آذار "مارس" وصل هابتلر يانوش إلى المنزل ـ الغرفة ـ المطبخ.

أنصتوا له فى وزارة الدفاع ، وبعد أن تأكدوا من صحة أقواله ، صنفوه فى القائمة B. وعين فى سينما "هيرادو" جامع تذاكر.

فى نيسان سرح من عمله لأنه أدخل أحد الجنود بلا بطاقة إلى صالة العرض. فحصل على عمل فى مشفى يزود مرجلها بالفحم.

فى أيلول عاد هيرش أشتفان من الأسر الروسى. وعمل فى مصنع الآلات الدقيقة ، مكلفاً بخراطة القطع النموذجية التجريبية ، ولقد أدى عمله بدقة مذهلة ، حتى اشتهر اسمه فى الوزارة.

من قائد مجموعة ، ثم قائد ورشة ثم مسئول المسابقات والحوافز ، أصبح مدير قسم الإنتاج فبلغ دخله الشهرى ثلاثة آلاف فورنت. ووظف غيزيكا فى المصنع ، كانت زوجته ماهرة دءوبة ، مخلصة ، ومطواعة حتى النهاية. عملت بمريول أبيض فى قسم تصميم عربات الأجهزة P4. ودربت فيما بعد على العمل فى نماذج وعبوات الحديد المصهور والمعاجين المختلفة ، وتنعيم مضخات الديزل المصنوعة بارتيابات القياس الدقيقة المقدرة بأجزاء من المليمتر.

لكن هيرش أشتفان فى بيت قريب من سكن عائلة هابتلر. اشترى خزانة ، وطاولة ، وأربعة كراسى ، وكومادينا لمصباح واشترى من تشالايولى ، بستين فورنتًا صورة مشغولة بأجنحة الفراشات ، ليعلقها على الجدار فوق إناء الزهر.

خلال النهار اعتنت ماريا بيك بآغوتا ، وأخذتها كل مساء بعد العشاء إلى والديها.

كان مدير العمل هيرش أشتفان قاسيًا جدا. فإذا ما أهملت غيزيكا إحضار الشوكة والملعقة والسكين ولم تضعها إلى جانب طبق الطعام كان يرمق طعامه بنظرة متأففة وينتظر حتى تأتى إليه بالسكين والشوكة والملعقة دون أن يفيد وجود درج أدوات المطبخ قرب المائدة. كل يوم يشاهد وظائف أستر وهانيلكا فى مادة الحساب ، ويشرح بذكاء المعادلات المعقدة ، وسواء كانت الفتاتان تفهمان عليه أو لا فقد كان يسهب فى شرحه حتى منتصف الليل.

وذات مرة أحضر السكاكر لابنته آغوثا ، وحين مدت يدها الصغيرة لتأخذ واحدة أرجعها إلى جيبه ، ونادى في الممر على ابنة تشالايوبى حليقة شعر الرأس ، القذرة حتى قمتى أذنيها ، وأعطاها لها. بينما قال لآغوثا:

– لكى تشكرى أباك إذا أحضر لك هدية مرة أخرى. شحبت ماريا بيك من الغضب.

– هل تعنى أننى لا أربى ابنتك تربية جيدة؟

لم يجب هيرش أشتفان.

– أنت بلا قلب – قالت ماريا بيك – لو أن الكثيرين يأتمرون بتوجيهاتك ، ولو أن دخلك كبير ، فأنت لا شىء فى نظرى. ابتسم هيرش أشتفان وقال:

– سيأتى ابنك يوماً ما إلى البيت ، ماذا ستقولين؟

صمتت ماريا بيك كثيراً حتى قالت محدقة بعينيها الزرقاوين فى وجه الرجل:

– سأقول لابنى ... سأقول لابنى ... لا يقارن ماء البحر ، بكمية الدموع التى فى عينى ...

بعد مضى أيام أثناء الغسيل فى المطبخ المشرع للتيار انتابتها بردية شديدة. ارتفعت حرارتها ، اقشعر جسدها ، دون أن تتعرق. ورفضت بشدة استدعاء الطبيب.

- هاتوا بالينكا

ظلت تشرب ثلاثة أيام. تنام وتصحو وإذا ما صحت سمعت تهذى في الساعة الخامسة صباح اليوم الرابع استيقظت واغتسلت حتى أخمصيها ثم كوت لأستر وهانيلكا قميصيهما الأبيضين ، وأعدت الفطور. وحين شاهدت أفراد العائلة الناهضين من النوم فاغرين الأفواه من دهشتهم بحالها قالت:

- انظروا إلي. أنا بصحتي مثل الخنزير. مثل أرملة جميلة تنتظر الـ ...

وهزأت من الجميع متضاحكة بوجهها الموشي بالتجاعيد.

سارت العملية التعليمية للفتاتين بامتياز ، ولكن بفضل أستر وحدها. هي التي كانت تؤنب أختها الصغرى وتحثها على الدراسة ، وتمزق صفحة الوظيفة من دفترها وترغمها على كتابتها من جديد ، إذا لوحظت أية خطيئة فيها. كانت هانيلكا تبكي. ويبدأ شد الشعر والشجار بين الفتاتين ، وكانت ماريا بيك ، تصفع الأختين معًا. وتعودان إلى طاولة المطبخ تتابعان الدراسة حتى منتصف الليل كانت أستر مستبدة وعنيدة ، حين تصطحب أختها إلى المسبح المغلق ، كانت توفر ثمن بطاقة الترام وخلال الفترة التي تجوبان فيها المدينة تستظهر لأختها الدرس بصوت عالٍ كانت تدخر النقود بطرق شتى ، لتشتري لها ولأختها تنورة أو بلوزة ، أو جوربًا ، أو بياضًا داخليا ، وهي التي كانت تختار كل شيء على ذوقها. وإذا لم ينل إعجاب الأخت الصغرى وحاولت الاعتراض كانت تقول لها:

– لا تناقشي . ذوقك ردىء.

كان لأستر ذوق جيد.

شتاء ، وفي عصر يوم من أيام الآحاد تعانقتا وراحتا تغنيان معًا ، لكن بصوتين مختلفين. كانتا تهويان الموسيقا ، وتستمعان إليها بإنصات مذهل.

مرة كانت أستر تعتني بجهاز الموسيقى"المونوغرام" وتزينه ، فقالت لها ماريا بيك وهي ترفو مخدة الكنبة:

– من مخصصاتك للزفاف .

غضبت أستر.

– لا تقولي مثل هذا. أنا لا أريد الزواج مطلقًا. ابتسمت ماريا بيك. وربتت على كتف الفتاة بيدها ذات الأصابع المعقوفة.

– كيف لا يابنيتي، أنت أولاً. ثم أختك. أريد أن أسعد بكما وبأحفادي.

الحفلة الأولى أقيمت عند صديقة هانيلكا ، "أنجل" التي تقطن عائلتها في شارع "تلابَي" قرب معمل الأدوية "نيرودا نادور" الذي يملأ المحيط برائحة الكاميلا الفائحة.

أوصل كوفتش لايوش الأختين هانيلكا وأستر حتى مكان الحفل حيث تناولتا الكاكاو والكعك ، ورقصتا حول الدب الثلجي المنشور في

الغرفة. لم تدع للرقص ، ولم تلفت انتباه أحد. بل أوكل إليها حتى الثامنة مساء أن تضع بيديها أسطوانات الفراموفون وعليها أغان مثل "الحب لديك لهب الهشيم" و "رقصة الرومبا تفتلني".

كئيبة كانت تراقب الراقصين ، وترى الفتيات يتدللن بنعومة ويشردن بعيونهن فى وجوه شبان الثانوية الجريئة. ظلت هانيلكا سيئة المزاج وعادت صامتة إلى البيت حيث قالت لأستر حين اندست إلى جانبها فى السرير:

– جنون بجنون.

وفى بيت أنا كوفتش أقيمت حفلة تنكرية. تنكرت أستر بثياب صبيانية ، وتزيت هانيلكا بتنورة حمراء سوداء وبلوزة بيضاء كتانية وجدلت شعرها. كانت ممتلئة بالحياة ، وكانت تدور وتفتل بسرور فائق ، وضحكت كثيراً ، وقهقهت. وجدت لنفسها شابا ، يدعى "دودى" ، لاعب الجمباز الأول فى الثانوية الإصلاحية. وبقى رفيقها الدائم فى الحفلات ، واللقاءات الاحتفالية المدرسية. كان شابا مفتول العضلات ، وسيماً، حيوى الوجه والحركات ، رمقته الفتيات بإعجاب وحسد.

أحب الفتيان هانيلكا ، واتخذت رفيقة للجميع. فإذا عبروا إلى الغرفة الأخرى يروون نكتة خبيثة قالوا لها:

– هانيلكا! يمكن لك أن تأتى.

ضجت الفتيات ، وتهامست.، وألححن جميعًا على هانيلكا لكى تروى النكتة لهن. وكانت تفعل.

فى رأس السنة عام ١٩٤٨حضروا للذهاب إلى المركز الثقافى لمصنع الآلات الدقيقة. ماريا بيك ، هابتلر هيرش أشتفان ، غيزيكا ، أستر ، كانت هانيلكا متوعكة ، لم تشأ أن ترافقهم. لكن ماريا بيك قالت:

– فى رأس السّنة على الأسرة أن تجتمع وتمضى الليلة معًا من أجل أن تبقى الأسرة مجتمعة طوال العام القادم.

خصصت لهم طاولة عائلية. ماريا بيك كانت تلبس ثوبًا كحليا مرتفع السحاب ، بلا ياقة. حول جيدها حلية رقيقة تكاد لا ترى. وشعرها الأشقر الأشيب ملفوف بعناية.

هابتلر أيضًا بثياب كحلية ، وهيرش أشتفان ببزة رصاصية غامقة ..... وعلى غيزيكا أيضًا طقم بتفصيلة إنكليزية من القماش واللون نفسيهما. أما هانيلكا وأستر فكانتا ترتديان التنورة السوداء والبلوزة البيضاء.

كان الطعام نقانق ودجاجًا. وكان هيرش أشتفان يطلب النبيذ باللترات الزجاجية ، ليجترعها برفقة ماريا بيك. وكل حين كان مدير الإنتاج يستدعى إلى طاولته واحداً والآخر من رؤساء الورش الأكبر سنا ، ويشرب نخبهم.

ما عدا ذلك فقد حافظ هيرش على موقعه ، رادا بود وحرارة التحيات العديدة الموجهة إليه. وحصل أن عاملاً خَرّاطًا أشقر مموّج الشعر أعجب بهانيلكا ولم يزح عينه عنها حتى جاءه الشجاعة

واستدعاها للرقص. وطلب صديقه أختها أستر ، ورقصوا رقصاً جميلاً وبلا توقف في الصالة المتنوعة الأضواء.

عند منتصف الليل أطفئت الأضواء. جلس الشابان عند الطاولة ، وبصوت معتدل تمنيا لعائلة هابتلر سنة جديدة خيرة.

وعند الفجر تحت ندف الثلج ، رافقاها حتى البيت.

بعد أيام جاءا بزيارة للفتاتين حاملين بطاقات لدخول السينما القريبة. ومن يومها صارت هانيلكا وأستر ترتادان السينما كثيراً. وحتى بعد المدرسة أحياناً كانتا تنتظران أحداً من العائلة على ضفة الدانوب لمرافقتهما لمشاهدة عرض من العروض.

ذات مناسبة أرسل هيرش أشتفان هانيلكا من أجل طرد. فرافقها الشاب الأشقر ، وبحثا مدة طويلة عن البيت المحاط بحديقة ، وفي الشارع المظلم تعانقا في قبلة طويلة. وبعدها تكررت قبلاتهما.

أما الشاب الخراط الآخر فقد ارتكب حماقة في نقاش محتد مع أستر ، فطردته الفتاة. في الربيع ذهبا إلى السينما وشاهدا "هاملت". كان الشاب يمسك على الدوام بقوة يد هانيلكا ، تعرقت كفها ، مما أثار الفتاة ، وانفصلا بعد وقت قصير.

في الثانوية ، كان الغناء والموسيقى مادتين رئيسيتين. استعار هابتلر من "مدوزن" أكاديمية لودوفيكا السابق زونغرافاً

تنجز عليه الفتاتان تدريباتهما الموسيقية ولم تكونا تحتملان فروض المعزوفات عليه. بل كانت أستر أحيانًا تخرج عن الفروض لتعزف مقطوعات لـ "بارتوك"(*) وخاصة مقطوعة (قتلوا شابا من أجل ستين فورنتًا). وعندها كانت تغمض عينيها وتضم شفتيها وتسرح.

وحاولت هانيلكا إيجاد معزوفات جديدة وكانت تحب الموسيقى النقية الهادئة. ولكن إذا ما اكتشفت أصواتًا متناغمة جنبًا إلى جنب ، كانت تغمرها البهجة. هذا الجو من الموسيقى كان يثير ماريا بيك غضبًا:

ألا تعرفين شيئًا آخر يا بنتى؟ سألت .

غنتا كثيرًا فى هذه الفترة أغانى شعبية أوبرالية ، جاز. وكانتا تمقتان الأغانى الراقصة التى يبثها المذياع مثل"الوردة تغنى أننى مخلصة".

وإذا ما أدى أحدهم أغنية جذابة تتناسب مع ذوق هانيلكا ، رافقتها بموسيقى مناسبة.

وذات مرة أقيمت فى بيت موجهة الصف "لوسى" ، حفلة حضرها بعض الموسيقيين أيضًا. تعرفت هناك على شيما لاتسى وهو شاب متوسط القامة فى السادسة والعشرين. يضع نظارتين ويدرس الرياضيات واللغة الروسية ، عازف بيستون وقائد فرقة موسيقية صغيرة ، بالات النفخ: بيستون ساكسافون ، كلارينيت ، طبلة ، وبيانو.

(*) أعظم الموسيقيين المجريين إضافة إلى " ليست " – المترجم .

بعد أسبوع تكرر لقاؤهما فى بيت لوسى ، وعزفت الفرقة بقيادته رائعة من روائع شوبان ، موزعة توزيعاً مدهشاً على الجاز بعد المعزوفة عن الاسطوانة قدمت بخمسة أصوات:

- الكونترالى الرنان (أوطأ الأصوات: هانيلكا)
- المعتدل: أستر
- المتوسط: لوسى
- الباص: رودى
- الصادح (أعلى أصوات الرجال): شيما لاتسى

يوم الأحد قدمت فرقة شيما لاتسي مقطوعاتها لشبان وشابات مدرسة للرقص فى شارع مولنار.

هنا تعرفت أستر وهانيلكا للمرة الأولى على الرقص الغربى بإيقاعه المجنون.

تشكلت حلقات بحيث ينفصل اثنان من الحلقة ويرقصان ضمنها حتى الكل ويتلوهما بالدخول راقصان آخران.

هانيلكا وجدت رفيقًا ، أستر لم تجد .

وإذا لمح على مرمى البصر أثر لشرطى ، أو لرجل أمن أشار الرائى من باب الغرفة الأولية بذلك ، وانتقلت الفرقة إلى معزوفات التانغو الهادئة.

كانت هانيلكا تلتقى شيما لاتسى ، فى المقاهى العامة فيحدثها عن المدرسة ، وعن دروسه وأنه لا يعرف شيئًا باللغة الروسية ، وأنه خلال الحصة الدرسية ، يغش بالنقل عن الكتاب ، أثناء الإجابة ، ولم يفطن إلى ذلك أحد. وتحدثت هانيلكا عن تحضيراتها للتخرج ، وبصوت دافئ وشغف عن الموسيقى الحديثة.

شيما لاتسى لم يدخل إلى قلب ماريا بيك ، قالت إنه ذو عينين قذرتين ، ومنقاد لرغباته وكذب على العديد من النساء في حياته.

لم يترك الانفصال عن شيما لاتسى وقعًا مرا في نفس هانيلكا ، فلم يكن قريبًا من قلبها ، فقط كانت صحبته ممتعة بالنسبة إليها لبعض الوقت.

قبل امتحان التخرج ، أنشدت جوقة المدرسة ، كورسات مختلفة ، انضم إليها الفتيان ، ومن بينهم التوأمان ليكو ديموش السمينان ، قصيرا القامة اللذان حاولا مغازلة هانيلكا وأستر ، فطلبا موعدًا للقاء لكنهما رفضتا متضاحكتين.

وفى الربيع ، أدت الجوقة فى أكاديمية الموسيقى ، بمرافقة الأرغن ، مقطوعة لهاندل.

أدتا امتحان التخرج بامتياز. قبّل هابتلر الأب جبين كل منهما. وهنأهما شرش شاندور.

وفى المطبخ خطب فيهما ، خطبة مطولة مملة أوضح فيها بؤس نظام "هورتى" ونضالات فقراء الشعب ، والإضرابات ، والسجون وذكر الإعدامات ، وعنف النازية الهتلرية ، وفيما بعد تحدث عن شرف العمل وتمنى للفتاتين هابتلر مستقبلاً سعيداً فيما ينتظرهما من أيام .

– حب العمل واجب – قال –

لا تنسيا أن والديكما عانيا كثيراً من أجل لقمة الخبز فى عالم الأسياد الظالم والمستغل لعموم الشعب. واسمحا لى أن أقول: لكما الأرض ، والمصنع ، وبلاد المجر كلها وهى تبنى الاشتراكية. لقد صار البلد لأولئك الناس الذين طلعوا من البراكات ومن أقبية المدن العميقة الظلمة ، وإلى جانبهم حشود الفلاحين الفقراء ليرسخوا بقيادة الحزب الشيوعى المجيد، سلطة العمال ، من أجل القضاء على الإمبريالية.

عزيزتىّ أستر ، وهانيلكا. قبل بدء مسيرة حياتكما الرائعة أقول لكما أن تسمعانى ، تصغيا إلى جيداً: من أجل شيوعية حقة عليكما أن تحبا الآلات التى ستعملون عليها وأن تزدادا معرفة ، وأن لا تنقطعا عن تحصيل العلوم ، وأن تتعلما وتستوعبا الأيديولوجية الماركسية ، لأن كل ذلك يزودكما بالإيمان والقوة. وإذا صح قولى فهذا إيمان أقدس من كل إيمان ، وأقدس من الكتاب المقدس نفسه ، لأنه يدعو حقا إلى تغيير البشرية ويغيرها ، ويخلق الجنة الشاسعة الكريمة. وبلا هذا الإيمان لا يتمكن الإنسان العامل من العيش إلا فى مستنقع الحياة البائسة.

تذكرا: المعرفة سلطة. لكنها سلطة مثلها مثل الحياة الكريمة لا تأتى بالمجان ، بل بالتعلم والكد من أجلها.

لذا أيتها العزيزتان هانيلكا وأستر أنصحكما بقلب صادق ، أن تمارسا الحياة ببساطة وأن تحرصا بإرادة صلبة على أن تنجزا ما يلقى عليكما من مسئولية وعندئذ ستحققان ، فى بلدنا العظيم بانى الاشتراكية ، الحياة الكريمة لكما ، ولأسرتكما ولأبنائكما القادمين. وأخيراً باسمى ، وباسم زوجتى أتمنى لكما انطلاقة مباركة فى الحياة.

أنصتت له الفتاتان ، بتهذيب وجدية حتى النهاية. ولم تنفجرا ضحكًا إلا عندما خرج من باب البيت.

أقيم الاحتفال فى حديقة "الكازينو" فى جزيرة مارغيت(*) .

جلست الفتاتان هابتلر إلى طاولة بيضاء ، بثياب خضراء فاتحة ، تتحدثان ، وتدخنان. فيما بعد دعيت أستر للرقص مع شاب طويل ، رفيع أشقر .

كان موظفًا وعازف سكسفون يدعى "فيلاتو يانو". أوصلهما ليلاً حتى البيت وعند المدخل طلب موعداً من أستر . التقيا فى محل للحلوى ، حياها"أقبل يدك". طلب نوعًا من الحلوى ، وروى لها فيما بعد كيف يتصور الحياة معها.

(*) جزيرة صغيرة بين فرعين لنهر الدانوب ضمن العاصمة بودابست – المترجم .

– سأكون موسيقيا – قال – مشهوراً على مستوى العالم. سندعى إلى الاحتفالات. وأكون أنا بالسموكنغ ، وأنت بحذاء فضي وحلي وثياب سهرة بيضاء ثلجية ، كان يسرح في حديثه الهادئ مبتسماً ، وأشار أن كل ما حكاه حلم من الأحلام ، لعبة غبية لكن عينيه كانتا تخبئان شيئاً خفيا مؤثراً. عندئذ عرفت معه أستر القبلة للمرة الأولى.

عملت هانيلكا موظفة في مصنع التراكتورات ، والتحقت أستر بورشة لصنع الأحذية ، كان الراتب خمسمائة فورنت. لكن هانيلكا كانت تمقت المصنع. عملت أول الأمر في مستودع المسبوكات ثم في ورشة للخراطة كانت ورشة قديمة قذرة يحجب الغبار المتراكم الرؤية عبر زجاج نوافذها.

بدأ وقت العمل من السابعة صباحًا وانتهى في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر. كانت هانيلكا إذا ما ذهبت إلى البيت ونامت ساعة من الزمان. اغتسلت وانطلقت إلى موعدها ، أما أستر فكانت في ورشة الأحذية ، تجلس في مكتب مشمس تحسب الأجور إلى جانب مروحة هوائية.

في بداية الصيف اشترى هيرش أشتفان محركًا لقاربه. كانت تزوره الفتاتان أحيانًا دون أن تشعرا بالراحة هناك. كانت غتيزيكا في حالة بكاء لا تنتهي وكان الجو مشحونًا على الدوام ، ولا نأمة لموسيقى أو أغنية ، أو رقص على مقربة من المكان.

لحقت بهابتلر قرحة معدية نتيجة عمله فى المخزن. وإثر تقرير طبى يصف حالته. أوكلت إليه أخف الأعمال الممكنة. فصار مرافقًا لعربة شحن الفحم.

– ما قول العجوز الجميل بهذا؟ – سألت ماريا بيك وقد أعدت له طعام الحمية.

صار أصدقاء فيلاتو ياتو ضيوفًا يوميين لمنزل الغرفة – المطبخ. كانوا شبانًا ، موسيقيين ، يضجون حيوية وأحلامًا.

أخرجوا آلاتهم الموسيقية ، وعزفوا حتى التاسعة مساء موعد نوم هابتلر.

فاتسبى على البيانو ، أرتين على سكسوفون متوسط ، فاتسى على الدف ، ضابطًا للإيقاع.

كان عازف السكسوفون فاتسى ، قائد الفرقة موهوبًا. دقيقًا ، عالى القدرة السماعية لا يعرف المزاح خلال البروفات. إذا ما رفع وجهه المفيستى(*)"الشيطانى" نحو رفاقه العازفين وأطبق رموش عينيه السوداوين الكثيفين كانت حتى الفتيات تلتزمن الإنصات.

أحب هانيلكا كثيراً وتعانقا فى محل للحلوى ، وحين قدم لها خاتمين رفضت ذلك فى الحال.

(*) من الشيطان مفيستو ، المترجم .

– لا تجن – ضحكت.

أرجع فاتسى الخاتمين ، قائلاً:

– لا بأس. أخبريني حين لا ترين ذلك ضرباً من الجنون.

فى هذه الفترة درجت عند الفتيات موضة الشعر القصير والتسريحة الصبيانية. فقصته هانيلكا من بين أولهن.

وكان لديها لباسها المفضل : تنورة ضيقة ، صدارية واسعة وحول الخصر حزام جلدى بلون بنى فاتح.

هكذا كانت ترتاد الحفلات المنزلية لـ"فيلاتو يانو" الذى كان يسكن مع أمه المطلقة من أبيه تاجر القماش الذى هرب إلى لندن مع زوجته الثانية.

وفى البيت المؤلف من غرفتين كانوا يرقصون ويغنون ويسمعون الأسطوانات. مرة سكر فاتسي من كثيرة الشراب ، وعكر جو الشلة ، وهو يشكو مأساته الغرامية. كرهته هانيلكا نتيجة لفعلته هذه ، وقررت أن (تغازل) الشاب أرفين وصارت تتبعه من غرفة إلى غرفة ، وتغازله بنظراتها وابتساماتها وملامساتها إياه أثناء الرقص. لكن الشاب أبى وفاء منه لصداقة "فاتسى". قرابة منتصف الليل بدأت هانيلكا لعبتها هذه. وقرابة الفجر كانا يتعانقان فى الصالون ، تقبيلاً. وفى اليوم التالى حكى أرفين لصديقه كل ما جرى معه.

تصافحا بقوة يداً بيد. وقال فاتسى للفتاة:

- أتمنى لك السعادة.

كان أرفين شابا أشقر. ناصع الأسنان تنم ابتسامته عن ولد صغير. عيناه زرقاوان حالمتان. بادل هانيلكا حبا كبيراً.

فى لقاءاتهما فى محل الحلوى كثيراً ما لعبا هذه اللعبة: يرسم أحدهما بفمه قبلة صامتة على فم الآخر وعلى الآخر أن يخمن رقم الأغنية التى سوف يستمعان إليها.

ومرة فك الشاب أزرار بلوزتها وقبل نهديها العاريين. بعدها ظلا صامتين طويلاً . كانت هانيلكا وأختها تحضران عروض فرقة أرفين كلها وخاصة المقامة فى مدرسة الرقص أو فى حفلات المصانع. وكان أرفين يروى أغنية "النجم" لهانيلكا ، لأنه عازف يعرف أن يروى ، بالسكسوفون ، الحكايات.

بينما أستر محط نظرات ضابط الإيقاع فيلاتو المغرم بها إلى ما لا نهاية.

ألف أغنية وأهداها كلماتها ، وذات مساء صيفى جلس إلى البيانو وغناها بصوت هادئ. ولقد أعجبت الأغنية هابتلر يانوش إعجاباً شديداً فصار يرددها كثيراً. على العكس من هيرش أشتفان الذى شبهها بالليمونادة الرخيصة. فهاجمته أستر بعنف واختصما بأصوات عالية ،

جعلت ماريا بيك تأتي من المطبخ وتصفع ابنتها ثم تقول لهيرش أشتفان: أمسك آلة الماندولين وأسمعنا ماذا تستطيع أن تفعل.

وجلسوا إلى العشاء. بعد قليل أتى الشيوعي شرش شاندور. ابتسمت ماريا بيك وسكبت له النبيذ.

– هل أتيت لإبلاغنا شيئًا؟ كلنا آذان صاغية – سألته. ولكن كان عليك أن تحلق ذقنك. لا يليق ما أنت عليه. لو كنت زوجتك لألهبت قدميك ضربًا.

– أنا مرهق يا عزيزتي ماريا – أجاب شرش شاندور بجدية – صدقيني أنني لا أعرف طعمًا للراحة. علمني قدري أن أظل صامدًا ، وأكافح دون توقف ، وأمارس العمل الحزبي الجيد من أجل العدالة وإحقاق الحق.

– وفي وجه من تكافح؟ – سألت ماريا

– قل لنا يا شاني(*) لأني أخاف أنك نفسك لا تعرف. تتسرع وتتخبط ، ثم لا تعرف أنت نفسك من أجل ماذا؟

شرب شاندرو نخب عائلة هابتلر ، بجرعات بطيئة. جلس مستقيمًا كالوتد في ركن الصوفة ، وصالب مرفقيه ، قال:

(*) شاني التحبب من شاندرو .

– ترين ، ياعزيزتي ماريا أنني شخص غبي.

هذا ما ستقولونه عني حين أذهب من هنا إلى البيت. وهذا ما تقولينه أنت أيضاً ، لكن طبعاً ليس بنية سيئة ، بل من قبيل المزاح والدعابة ، وهذا بحد ذاته ليس قضية بالنسبة لي ، لأنني لم أزعم يوماً أنني سأسعى من خلال مكاني في الحزب أن أدافع عن العدالة وليس هذا بالأمر السهل. بل من أصعب الأمور. سأضرب مثلاً على نضالي.

أوضحت لأحد زملائي في العمل أنه يوجد فائض في العمال.

كان رده على ذلك: هذا المصنع لك ، وأنا أعمل لديك ومع ذلك أقنعت نفسي بأنني لن أرحل وأتخلى عن العمل.

أنا أصغيت له حتى النهاية وسألته أن يوضح ما يريده من هذا القول. وبدأت قولي كما بدأ هو. افترض أن المصنع ملكك أنت وأنك تعمل (لدى نفسك) ومع ذلك ستقنع نفسك بأنك لا تريد أن تتخلى عن العمل.

أجاب: تماماً كما تكرمت وقلت:

عندئذ سألته: ما دمت تعتبر المصنع لك ماذا تفعل من أجل ذلك؟ في اعتقادي أن من يعتبر المصنع له هو من يفعل شيئاً من أجل مصالح الناس المشتركة.

أجاب: لست جشعاً ، حتى أستأثر بالعمل الاجتماعي ، وأنهب المجتمع.

أجبت: ولا يجوز الاستئثار ، أو النهب ، لأن كلا منا سيحظى ولو بالقليل إذا ما اكتفى بحصته. لكن من لا يقبل بهذا ، هو الذى يتخذ موقفًا مشابهًا لموقفك.

إن الإنسان الذى يعتبر أن من حقه الاستئثار بالمصنع وينظر لمصالحه الذاتية الضيقة فقط ، عليه أن (يضحك بعبه) لأن جماهير الناس لا تلفظه من المجتمع. وإضافة إلى ذلك إذا كان كل واحد منا يقدر عاليًا العمل الاجتماعى ، لا يجوز له انطلاقًا من ضميره الحى وتفانيه أن يتأخر بعد منتصف الليل لحظة واحدة عن الذهاب إلى البيت لينام. مثل هؤلاء الناس الذين يأخذون قسطًا وفيرًا من الراحة ، ينجزون أعمالهم بقسط وافر من السهولة.

ولما جاءوا إلى من النقابة واستدعونى لأوضح لهم ما حصل ، سردت لهم الوقائع كما جرت فعلاً. فأثنوا على لقدرتى على الإقناع ولأن أحدًا غيرى لا يملك الموهبة لمنطق كمنطقى.

– أنت غبى يا شانى – قالت ماريا بيك – أخاف أنك لا تفهم فى السياسة ، لأن ما حكيته لنا الآن ، غباء بغباء ...

تضطجع الآن على الصوفة وتثرثر ومثل بالع عصا بلا معنى ، من الأفضل أن تشرب قدحًا آخر مَن النبيذ ، وتغنى.

رفض شاندرو شرش كأس النبيذ الثانية. انتصب واقفًا:

– عزيزتى ماريا. أنا فى حالة صعبة جدا. ابنك الوحيد الذى شارك فى القتال ضد الاتحاد السوفييتى البطل ، يعانى من الأسر لمدة طويلة.

أنا فى حيرة كيف يمكن أن أجرح قلب أم. لكن إذا جاءك وحيدك ، فيما بعد ، بصحة جيدة ، وكفت عيناك عن الدموع ستدركين سياسة الشيوعيين. أنا على يقين بأن السعادة بانتظاركم. عائلتك جاءت من القاع ، مثلى ، ومثل الأكثرية الساحقة من الفقراء ، وسترين التغير الكبير الذى سوف يحصل لبناتك وأصهارك القادمين.

وسوف تسألينني: كيف لك هذه الرؤيا؟

وستكون إجابتى: القدر علمنى ودلنى على جهتى فى الانتماء. الشيوعيون.لأنهم من يحققون حياة الرخاء للشعب العامل وأعذرونى إذا ما تسببت فى إزعاجكم.

صافح الجميع يداً بيد ، ورحل.

فى نهاية الخريف عاد هابتلر الابن من الأسر. استحم. وبعدها سمحت ماريا بيك للجيران بالدخول والضجيج فى المطبخ.

حضر شاندرو شرش أيضاً وصافح الجندى العائد إلى الوطن.

– العمل بانتظارك ـ قال له.

أمامك مستقبل زاهر فى المجر الديمقراطى الشعبى على طريق بناء الاشتراكية.

ضحك هابتلر العجوز. بكى. تشاغل ودار حول يانى ونزل إلى الحانة ، جلب نبيذاً. قدمه للجميع. ما لبث أن سكر.

جاءت ، فيما بعد ، هانيلكا وأستر ، رمقتا باستغراب الرجل القوى المجهول ، ثم عانقتا أخاهما تقبيلاً.

بعد أن أخرجت ماريا بيك الجميع من البيت ، قلت سمكًا وأعدت قريشًا . وفرشت البنتان غطاء أبيض.

وبعد العشاء. نظرت إلىْ ابنها بعينيها الزرقاوين وقالت:

– كاتو رايش ماتت. أطلقوا على الطفلة اسم ماريا .

هزَّ هابتلر العجوز رأسه.

– أوو. خسارة كبيرة – قال مخمورًا

– أحببت أباها كذلك كانا طيبين يستحقان الحب.

أجهشت غيزيكا بالبكاء. وصرخت:

– كفى يا أبى. كفى .

صمت الجميع طويلاً. قال يانى إنه متعب. فرشت ماريا وناموا .

فى اليوم التالى اشترت الفتيات ليانى ، طقمًا وقميصًا وربطة عنق وحذاء. وبعد أيام بدأ عمله خراطًا فى مصنع فى "أرض الملاك – أنجل فولد".

وفى رأس السنة رتبت الفتاة حفلة منزلية. شوت ماريا بيك ، وطبخت. شرب الكبار النبيذ ولعبوا الورق ، والشبان رقصوا وغنوا . وقبل منتصف الليل بساعة قالت ماريا بيك لـ "فلاتو يانى" :

– اذهب وأحضر أمك. لا تدعها وحيدة فى البيت. قبل الشاب يدها ذات الأصابع المعقوفة وبرفقة أستر أحضر أمه بالتاكسى.

لم تبد المرأة ذات الحلي والشعر المصبوغ بالأشقر ، بأنها تشعر بالراحة ، بل تسمرت على كرسي ، وكانت تلتفت بترفع. وإذا ما قدم إليها الشراب أو الطعام رفضته بإيماءة متعجرفة.

فيما بعد سعى كل من تشالا يولي وشابت بيلا ، أن يتقربا منها ويبديا ودا نحوها لكنها حدجتهما ببرود ، فكفا عن مسعاهما.

جلس ياني في الركن على صندوق أبيه العسكري، لم يرف له جفن، يحدق في المرأة. ثم انتصب وقال بصوت مرتفع:

– تبا لكل امرأة لم تدس إصبعها بعد في الماء البارد.

. خرج ، لاطماً باب المطبخ فوقع زجاجه. صرخت الفتاتان ، وضحك هيرش أشتفان. وتقدمت ماريا بيك من السيدة:

– لماذا تجلسين كالطاووس؟ – سألتها

– اخلعي بلوزتك ، سأغسلها لك.

احمر فيلاتو ياني تماماً ، وابتعد عن أمه. شلحت ماريا بيك الشال على كتفيها وانطلقت تبحث عن الشاب فوجدته مستنداً على جدار قبالة الحانة ، يتأمل ندف الثلجَ الخفيف. رجعت صامتة إلى البيت. وجلست بين لاعبي الورق. وقد باتت أحاديثهم لها رائحة النبيذ ، فصاروا يلعنون أيادي بعضهم ويتضاحكون كالأطفال الصغار ولم يبخل العجوز "كالاوز" بالتفاتة إلى الوراء.

– قلت إنها ماتت؟ – سألها.

كان قد رجع هابتلر الابن. بينما كان الشبان يضجون فى الجانب الآخر من الغرفة.

قطعت أستر علاقتها مع "فيلاتو" ، الذى بعث لها هدية فراقهما مبسمة سكسوفون وكتب لها أنه سوف ينتحر.

مضى الشتاء، وبعده البيع. وفى نهاية الصيف طلب هيرش أشتفان من حماته ألا تسمح لابنته آغوتا باللعب مع ابنه تشالايوى. فنشب عراك كبير اتهمت فيه ماريا بيك صهرها بمرض التمييز.

– ماذا تظن نفسك؟ من أنت؟ صاحت.

هابتلر يانى وقف إلى جانب صهره قائلاً إن يولى تشالا جيفة خسيسة ، لصة ، ستقضى فى السجن. وابنتها صورة طبق الأصل ، لن تختلف عن أمها.

عملت تشالا فى مصنع للشوكولاته ، وكانت تسرق ، كالعقعق.

وإذا انتابتها فترات من الضجر وفقدت مزاجها فى العمل كانت تخلط ملحًا فى القهوة الثقيلة ، وتنفجر فى ثرثرة صاخبة ، وفى فترات جدولة الأمراض كانت تستغل الوضع تجاريا وتعقد صفقات رابحة فى ساحة "تلكى" ، ومع ذلك كانت مثقوبة اليدين ولا تملك مالاً.

مرة واجهها شاندرو شرش بلهجة موبخة وهو جالس على صوفة المطبخ ، كالوتد المستقيم ، وكان شاحب الوجه ، يشع الغضب من عينيه:

– فى النظام السابق ، إذا ما حاول أى شخص أن يسىء للمجتمع الرأسمالى ، كانوا يوقفونه بأقصى سرعة عند حده. أسرع من الآن.

انتظر لحظة ثم تابع بصوت أعلى وأكثر تهديداً:

– حرص الرأسمالى على ثروته ، كان أشد من حرص الكثرة الكثيرة من الناس على ثروة الشعب ، أمثال هؤلاء لا يخافون إلا على ثرواتهم الخاصة التى تؤمن لهم مكاسب إضافية. إن ثروة الديمقراطية الشعبية ، التى لا تتشكل من جيوبهم هم ، لا تأخذ بعين الاعتبار كم يساوى واحد رخيص من أمثالك. أنا ، طوال فترة عملى فى الورشة ، كنت حريصاً على ثروة الشعب ، وما زلت إلى الآن لأننى أشعر أننى إذا تخليت عن هذا الحرص ، فإننى أخدع نفسى وأخدع الآخرين الذين يهموننى.

استدارت ماريا بيك وسألته:

– يا وجه السعادة. إذن تخليت عن العمل فى الورشة؟

– تخليت عن العمل هنا يا عزيزتى ماريا – أجاب مزهواً

– منذ أيام رقّانى الحزب ، وعينت فى دائرة عمالية شديدة الخصوصية وأسارع إلى القول إننى لا أستطيع أن أقدم إيضاحات ولا إجابات عن الأسئلة المتعلقة بما ينتظرنى من أعمال. تبسمت ماريا بيك.

– وأنا ، إذن ، لن أسألك شيئًا ، يا شاني على اعتبار أنك صرت شخصًا مهما يشار إليك ، بارون الديمقراطية. وقد يأتون على ذكر اسمك في الصحف. وسنكون فخورين بك وسعداء بأنك تشرفنا بزياراتك لنا.

لكن يا شاني ، يدور في بالي أن عليك أن تكثف من حلاقة ذقنك.

وغالبًا أن تبدل قميصك لكي لا يعترينا الخجل بسببك.

بدا أن شاندرو شرش فكر بالجواب. فقال:

– عزيزتي ماريا. الحق معك. إنك لو ظللت تهزئين مني إلى الأبد. أعرف أنك تحبينني. وهذا يلغي عندي سوء نيتك تجاهي. ولن أغضب منك لأنني أؤمن أنك ، بتأثير من توجيهاتي سوف تنتسبين إلى معسكر النضال الشيوعي. لأن هذا مكانك ، وانتماؤك البروليتاري يعني الكثير من المساعدة للديمقراطية الشعبية. وباختصار فيما يتعلق بالمسألة السابقة ، أن أحد الرفاق المرموقين في الحزب هو من لفت انتباهي إلى ذلك. وبناء عليه أسلك سلوكي هذا.

وفي الحقيقة ، بعد أيام حضر شاندرو شرش إلى بيت هابتلر بكامل أناقته. طقم أنيق : قميص ناعم ، ربطة عنق تنم عن ذوق. وجه حليق. ومن يومها لم يروه إلا هكذا ، أنيقًا مرتبًا. بدأ هابتلر الأب بتحفيزه وبلهجة ودود ، وإطلاق نكات سياسية ملغوزة ، ووجه باسم يصطنع السذاجة صار يستفسر ويطلب توضيحات عن الفرق بين الأسياد السابقين وكوادر هذه الأيام وما يقومون به من أفعال.

وإذا بالغ فى القدح كان يغضب شرش شاندرو ويغيب أيامًا عن زيارتهم

مرة في نهاية الصيف قال لهابتلر الأب:

– عينى فى عينيك يا يانوش. أنت تعتبر نفسك ذكيا ، بينما لم تتصفح فى حياتك كلها جريدة أو تقرأ كتابًا. وأنا أقول أمام وجهك الآن إنك بالكاد تعرف القراءة أو الكتابة ، أما أنا فلا أزعم أننى شخص ذكى ، لكننى أؤكد أن الجهل الذى تعانى منه ليست خطأك أنت ، بل جريمة من جرائم فاشية "هورتى" وظلمه.

أنا أيضًا أعاني من عبء ذلك ، إضافة إلى كثيرين من جماهير البروليتاريا. لست أعتبر نفسى ذكيا ، لكن عندما كان الألمان لا يزالون يحاربون في الساحة الروسية ، كنا ، نحن الشغيلة النقابيين ، ندرك أنه إذا ما دارت الأيام ، وتغيرت الأوضاع في بلادنا ، سوف يحتل مراكز المسئولية بشر آخرون يختلفون عن السابقين. وهذا ما حصل فعلاً. والآن ما مشكلتك؟ مم تشكو؟ من يسىء إليك أو يزعجك؟ كنت طول حياتك تنحنى أمام الأسياد فهل يشدك الحنين إلى ذلك؟ لماذا تهزأ منى دائمًا. أنا أجيبك.

لأنك إنسان ساذج وغبى لا توفر شيئًا عن التغيرات التى تجتاح العالم. وكن على يقين أنه ليس بالإمكان السخرية من الأيديولوجية الماركسية. ليس بالإمكان السخرية من نظامنا ، من شيوعيينا الذين

يناضلون ، وأنا من بينهم ، من أجل مستقبل بناتك وأصهارك وأطفالك ، ومن أجل سعادتهم.

عجز هابتلر الأب عن الإجابة ، لأن ماريا بيك طردت شاندرو شرش من البيت. ولم يفتح في بيت هابتلر بعد ذهابه أي حديث يدور حول هذه الحادثة المؤسفة.

في الخريف دعي أرفين الهادئ المسالم ذو العينين الزرقاوين إلى الجندية ، فتبعثرت الشلة.

عصر اليوم الأخير جاء الشاب لوداع هانيلكا ، فترافقا في نزهة في شوارع المدينة.

عند الغروب توقفا عند ملتقى شارعي راكوتسبي ، والشارع الدائري ، يتأملان الزحام. قالت هانيلكا:

– كل أسبوع سأكتب لك أنني أحبك حتى الموت.

في استراحة قريبة شربا (ليكور بالشوكولا) وقبلا بعضهما.

في منتصف الشتاء أقيم في مصنع التراكتورات برنامج تضمن فقرات مرحة ، وتومبولا ورقصاً. رافق الأورغ التوأمان نيكوديموس على السكسوفون ، والبستون ، وضبط الإيقاع على الطبلة رجل في السادسة والثلاثين من العمر، نال إعجاب هانيلكا ، فبدأت مغازلته بنظراتها ورقصت أمامه مرات ، وتبادلا الابتسامات. وفي فاصل الاستراحة حيا

التوأمان نيكوديموس لأستر ؛ وهانيلكا وأبلغاهما بزهو أن هذه الفرقة المتواضعة تعود لهما وقد شكلاها منذ مدة قصيرة.

اقترب منهما الطبال. قدم نفسه: "ميكى مومل" وطلب موعداً من هانيلكا.

كانا يلتقيان فى كافيتيريا – الشباب ، عصر كل أربعاء من الساعة السادسة حتى الثامنة. طاولتهما ركنية نصف مضاءة فى القسم الطابقي من الكافيتيريا. أوضح "ميكى مومل" منذ اللقاء الأول أنه يعيش منفصلاً عن زوجته وأن ابنته عشر سنوات. بعدها سرحا فى القبل كان ميكى مومل شخصًا بانوراميا منوع المواهب ومتحدثًا بارعًا ، يستخدم كلماته البذيئة دون أثر منفر. تحدث كثيراً عن العلاقة بين الرجل والمرأة وقال إذا ما أحب شخصان بعضهما ، فإن الحياة الجسدية تتماشى مع الحب. وأحيانًا قرأ أشعاراً لهانيلكا ، وحدثها عن لا معنى وتفاهة الحياة ، وعلى نحو ممزوج بالفكاهة قال لها: إذا ما أرادت أن تتخلص من عذريتها فلتخبره. ضحكت هانيلكا قائلة: حسنًا سوف أخبرك! وكانا يتعانقان في كل لقاء. كانت هانيلكا تحب سقوط الثلج. كانت تشرد فى غيمة وتحس أنها ترتفع سابحة باتجاه السماء. وكان ميكى يمارس معها الحالة نفسها ويقولان لبعض: سنطير من العالم.

تراشقا بكرات الثلج ، ضحكا ، لكن هانيلكا كانت تودع ميكى عند زاوية من ساحة الجمهورية دون أن تسمح لنفسها أن يرافقها حتى مدخل البناء.

ارتادت هانيلكا أماكن الرقص كثيراً. وتعرفت على كثير من الشبان الذين تبادلت معهم القبل. وأخبرت الطبال بكل مغامراتها العابرة هذه .

همهم ميكي متفحصًا المتوالية العشقية لهانيلكا وتضاحكا عاليًا. تحدث في آذار ميكي مومل في السياسة ، تفوه بشيء ما ، فكان من نتيجة ذلك أنه لم يستطع أن يجد عملاً إلا في مؤسسة السيرك. وكان حزينًا.

كل أحد كانت هانيلكا تكتب رسالة لأرفين وتختمها بطبعة من حمرة جورية من شفتيها فوق اسمها في نهاية الرسالة.

في موعد كأس شاي الساعة الخامسة تعرفا على الرسامين الهندسيين الوسيمين. "سيلارد جولاش" الأشقر ، وبرش لوتسي الأسود الشعر. القاطنين في شارع "سيف" "قلب" في شقة من ثلاث غرف لعجوز عانس متقاعدة صماء تمامًا. دعا أستر وهانيلكا وصديقتهما "أنجل" إلى حفلة منزلية. شربت الفتيات القهوة ، والليكور الحلو ، وشرب الرجال الكونياك.

كانت الغرفة واسعة ، غطت أحد جدرانها سجادة حائطية كبيرة. وبين النافذتين راديو على طاولة ، في الزاوية طاولة تدخين ، أربع كنبات ، وكلوب معدني. وكومادينو بلون بني غامق.

في اللقاء الأول كان الحضور مؤلفًا من سيلارد وجولاش ولوتسي برش ، فييليكا طالب الطب البدين ونظاراته ، وشخص مقنع ، وشخص

متقدم في العمر ، لا أحد يعرف من أين يكسب مصدر عيشه. لعبوا الورق ، استمعوا إلى الراديو ، قصوا الحوادث الطريفة وكثيراً من النكات فتآلف الجميع في شلة كبيرة متنوعة ، في البيت. توافدت نساء ورجال جدد ، تناولوا القهوة والكونياك ، وتطرقت أحاديثهم إلى الأفلام السينمائية ، والموضة ، وأثنوا على "فيامالا" ، وأعطوا أماكنهم لآخرين جدد.

أحبت الفتيات هذا اللقاء الحر البعيد عن أية التزامات ضاغطة. انفردت هانيلكا غير مرة بالشاب سيلارد.

نظمت ، رتبت ، كيّفت الغرفة بفتح النوافذ ، وجهزت ذات مرة عشاء لذيذاً من حواضر كانت في المطبخ ، فكانت المرة الأولى التي تطهو فيها فابتهجت للحالة.

تحدث سيلارد عن أهله. قال إنهم يعيشون في الريف ، أبوه موظف في دائرة تسجيل الزواج وسألها إذا ما كانت تتصور نفسها زوجة في هذا البيت. فابتسمت وأجابت:

– ربما

وبعدها غرقا في التقبيل.

وفي إحدى أماسي الخريف نقصت الشلة. بقي في الشقة فتاتا هابتلر ، أنجل ، جولاش ، برش لوتسي ، فيليكا. كان الجو كئيباً فرغبت هانيلكا بالذهاب إلى بودا فقد سمعت أن أرفين يعزف في مدرسة الرقص.

– لنستمع هنا إلى مقطوعة النجم – قالت لأختها الكبرى ترجوها الذهاب – سيعزفها لنا حتماً. لم يكن لأستر مزاج فى الذهاب تحت المطر، وبقيت فى ركن الغرفة إلى جانب برش لوتسى. أما أنجل فقد أشعلت مصباح الكلوب المعدنى، وجلست على كنبة وأسلمت فمها لـ "فيليكا". بينما راحت هانيلكا تتأمل شارع "سيف" المظلم. لمس جولاش يدها

– تعالى لكى لا نزعجهم.

فى الغرفة الثانية لم يضئ جولاش مصباحاً. جلسا على الكنبة. وتراخت فى الظلام تاركة نفسها لقبلات الشاب حتى إنها لم تعترض، بحركة قاسية من الرجل صارت مستلقية.

بعد دقائق أحست بالألم يملأ جسدها.

لم تنبس بكلمة ولم تبك. حين أضاء جولاش المصباح بيده المرتجفة، حدجته بنظرة قاسية ثم رتبت نفسها وخرجت إلى الغرفة الثانية. قالت:

– لنذهب.

فى الشارع سألتها أستر مذعورة :

– ما الخطب؟

التفتت هانيلكا بوجهها المخضر إلى أختها الكبرى، وهزت كتفها.

– يا إلهى!

ظلتا صامتتين حتى البيت ، حيث كان السكون مطبقًا . يانى نائم. غيرت الفتاتان ثيابهما ، واندستا فى السرير ، أغفت هانيلكا فى الحال ، رنت نحوها أستر مشفقة ومسحت شعرها الصبيانى القصير وشهقت تبكى بكاء صامتًا .

بعد ذلك بحين لم نلتقيا هذه الشلة وبعد أسابيع جاء ميكى مومل من الريف. تلفن لهانيلكا فى مصنع التراكتورات. والتقيا فى استراحة الشباب وروت حادثتها المؤلمة بلهجة لاذعة خبيرة. غضب ميكى وضرب بقبضته الطاولة. ونعت جولاش بالحيوان المخادع ، البربرى.

وقال فيما بعد ، إنه لو كان مكانه لعرفت هانيلكا أقصى حالات السعادة. وحدد موعد اللقاء القادم فى مقهى "هاور". عرفت هانيلكا أن صديق ميكى يقطن قريبًا من هناك فطلبت من صديقتها "أنجل" أن تأتى فى الساعة السادسة والنصف، ملبية دعوتها إلى السينما . حضر ميكى فى الساعة السادسة تمامًا ، تطرق فى الحديث إلى بعض المسائل اليومية الاعتيادية ، وترقبت هانيلكا أن يبدأ طرح مشروعه. وقبل دقائق من وصول أنجل سألته:

– لماذا التقينا هنا؟

فوجئ ميكى مومل. أشعل سيجارة ، وقال:

– فى هذا البيت يسكن أحد الأصدقاء. أتمنى لو تصعدين معى.

نظرت إليه هانيلكا وقالت.

– حسنًا .

كانت وصلت أنجل ، ملوحة ببطاقات السينما ، وبدأت تقص بطريقة فاشلة أنها وصلت بصعوبة إلى هذا المكان ، وكادت أن تضيعه ، والذى ساعدها فى التعرف إليه أن أستر أفاضت بتعيين إحداثياته. ولامت هانيلكا لأنها لم تولِ برنامجها السينمائى المشترك اعتبارًا .

– هيا ... لنذهب – قالت بغضب ظاهر

– لكى لا نتأخر.

ابتسم ميكى هازئًا، ويترفع.

– أرجعى البطاقة – قالت هانيلكا

– لا وقت لدى هذا المساء.

وصعدت إلى الشقة. حياها صديق ميكى-"أقبل يدك". واعتذر قائلاً إن لديه عملاً وعليه أن يخرج فى الحال. فليتصرفا فى البيت بحرية. كل شىء متوفر : الكونياك، القهوة السوداء. وعليهما إيداع المفتاح لدى ناظر العمارة. وذهب. بعد هدوء أليم سألت هانيلكا:

– ألا ترى هذا مضحكًا ؟

تلاقت نظراتهما الحزينة. أشعل بعدها ميكى سيجارة وقال:

– خربوك ، يابنيتى ، إلى الأبد.

كعادتها عند موسم تفتح الأكاسيا من كل عام سافرت ماريا بيك إلى "بروغتش". وفى يوم أحد ربيعى كانت غيزيكا تغفو على الصوفة. ويانى أخذ آغوثا ينزهها خارج البيت. هيرتى إتنغان يتململ ضجرًا ،

ويتصفح أوراقًا له ، فدعا الفتاتان لسماع موسيقى ، ذهبوا إلى مطعم كورفيني وتناولوا العشاء. وهناك تحدث هيرش عن طموحه فى شراء منزل خاص وأنه يحتاج إلى عشرين ألف فورنت ، سيحصل عليها بأية وسيلة. عند طاولة مجاورة ركز رجلان نظراتهما محدقين فى أستر. الأول متوسط القامة أسود الشعر والثانى أشقر وطويل. تململت هانيلكا ، تثاءبت وقالت : لنذهب إلى البيت حان وقت النوم.

عند الباب نادى الرجل الأشقر أستر: أعتذر للإزعاج ، قدم نفسه وقال :

– أرغب أن ألتقى حضرتك.

فى اليوم التالى التقيا فى "بريستول" موعد شاى الساعة الخامسة. رقصا. تحدثا. قال الرجل الأشقر إنه رئيس ورشة بناء فى "ميشكولتس" ويقتنى دراجة نارية ذات عربة جانبية. وسأل أستر عن مكان عملها وكيف تقضى وقتها. وأى الأماكن ترتاد للترويح عن نفسها ... وماذا تعمل على العموم؟

بعد أسبوع التقيا فى "أستوريا". ولكنهما لم يجدا موضوعًا مشتركًا للحديث فظلا صامتين. وقررت أستر أنها حسمت أمرها مع الرجل الأشقر. بعد أيام هتف هو لها قائلاً إنه سيأتى يوم الأحد إلى "بست" مع صديق له ، وسينتظرانها مع أختها هانيلكا فى مطعم "أمكه". مساء الأحد تعرفت فى "أمكه" الرجل المتوسط القامة الأسود

الشعر "زنتاى جورج". لم يتفوه. جلس صامتًا عند الطاولة دون أن يزيح عينيه عن وجه أستر. وإذا التقت عيناه بعينيها تبسم بارتباك. فيما بعد راقصها. وطلب منها أن ترافقه إلى البار لأنه راغب أن يعرفها على والده. كان العجوز زنتاى يجالس شلة تناسب عمره. "قبل يدها" بلهجة واثقة. إنه لم ير مثيلاً لجمال الفتاة. وهكذا قدمها للشلة:

– خطيبة ابنى.

رجع جورج زنتاى من أجل هانيلكا ، وصديقه. هيأ العجوز مكانًا. وطلب الكونياك ، والفليب بالشوكولا. وابتاع وردتين للفتاتين. وراقصهما. وروى لهما الحوادث المسلية الطريفة وضحك الجميع كثيراً.

فى الأحد التالى التقت أستر الرجل الأسود الشعر فى مقهى " بالما " " النخلة". تأخرت نصف ساعة ، ولكن جورج زنتاى لم يكن غاضبًا ، بل تأملها بعينين يغمرهما بريق سعادة وقال بهدوء:

– كنت خائفًا أن تنسى الموعد. طلب قهوة سوداء. أوضح لها أنه منفصل عن زوجته. استغربت أستر.

– طفل ومتزوج؟

أنصت جورج لحظة. ثم تحدث عن الكتب ، مشيراً إلى فرنتس هرتسغ ، كرونين ، دوستويفسكى ، وقال بهدوء:

– هؤلاء أصدقاء جيدون غالبًا ما يسامروننى ، حتى الصباح.

فيما بعد بالتاكسى ، صعدا إلى أولدفرنزا وشربا سينزانو. قال زنتاى إن أباه كان يعمل فى البوليس السرى ، وأمه انتحرت. وأمه بالتبني كانت تشرب الروم سرا ، ومرة أتته عارية إلى غرفة الدراسة ومصت شفتيه فى قبلة طويلة. كان حزنه مؤثرًا وهو يروى هذه الأحداث.

بالتاكسى أوصل أستر إلى بيتها بعد دقائق من إغلاق باب العمارة. وفى يوم اسمها صعد إلى الوالدين هابتلر أولاً وحمل للفتاة وردة حمراء ، وألبومًا للأورغ وأشعار "جيرالدى". أحبها وأحبته. وكانا كل أحد يقومان بجولة على دراجته النارية - تشابل.

وفى الصيف حصلت هانيلكا من النقابة فى مصنع التراكتورات على بطاقة اصطياف إلى "البلاتون"(*).

بينما اصطافت أستر فى "فولدفارى" وجورج زنتاى فى "بلاتون فنفش".

وفى مساء يوم سبت التقيا فى حديقة مرقص "لؤلؤة البلاتون". اصطحب جورج زميله فى الاصطياف الموظف "ديترا لاسلو" وأخته الكبرى مارغريت.

ولاسلو هذا ابن ضابط جمركى متقاعد ، أسود الشعر ، أخضر العينين فى الثالثة والعشرين.

(*) بلاتون : بحيرة واسعة فى المجر .

كان جل اهتمامهما مقتصراً على المسائل التجريدية ، يوغا : قراءة النجوم ، التقمص ، التنويم المغناطيسي ، ولكنه راقص هانيلكا كثيراً وطلب منها أن يلتقيا في بست(*) أيضاً.

وفعلاً، التقى الجمع في استراحة - الشبان. وهناك حدث ديترا لاسلو هانيلكا عن المسيح كأعظم منوم مغناطيسي. وفي رأية أن هذا العرس القاتي(**) عندما صير المسيح الماء نبيذاً ما هو إلا ممارسة للتنويم المغناطيسي الجمعي.

هكذا صاح المسيح – الآن أشرب نبيذاً – فنشأت الخدعة الشعورية.

وفيما بعد شرح انبعاث إليعازر بقوله إنه ما زال يعيش في الشرق حتى اليوم سحرة ، يقبرون أنفسهم ، وفي وقت محدد يفضون لحودهم فيبعثون أحياء من جديد. قال إنها حالة التركيز الأقصى ، وإنه يجربها لكنها نادراً ما تلقى نجاحاً.

وسبب فشلها تزاحم الأفكار الأخرى وبروزها إلى السطح والشرط التركيز على فكرة واحدة لا غير. هذه نقطة البدء في التعلم. ووعد هانيلكا أنه سيريهما في أقرب وقت ، كيفية الجلوس في رياضة اليوغا ، والذي يشترط التحرر من العالم وكيفية التنفس عبر المعدة.

(*) هنا اختصاراً للعاصمة بودابست .
(**) نسبة إلى قاتا .

بعد ذلك تحدثت هانيلكا عن أسرتها ، عن الموسيقى والشباب. ثم خرجا يتمشيان في ساحة الجمهورية وجلسا على مقعد يتعانقان.

تمت خطبة أستر في عيد الميلاد. وصار جورج زنتاى يسكن شقة بالإيجار فى شارع "ناج فرو" ، لدى رئيس قسم "المرايا" "ماندل يانو" وفى عيد ميلاده منذ الصباح دعا الفتاتين بقصد الذهاب للرقص فى مكان ما. وبصحبة ديترا الغرفة المستأجرة الصغيرة. كان جورج قد أعد مسبقًا سندويتشات الكافيار ، والسلامى ، واللحم المقدد. وفرقعت زجاجة النبيذ ، فانسكب نصفها رغوة على الأرض. أداروا الراديو يستمعون إلى الموسيقى ، وفيما بعد ، طلبت الفتاتان للغناء فأدتا أغنية "فى قرية اسكوتلاندية صغيرة عيد. الناس هناك يعيدون.... " وأغنية وقت الصيف وشارك جورج الفتاتين بأداء الأغانى الشعبية القديمة وظل ديترا صامتًا لأن إصغاءه الموسيقى كان سيئًا. بعد منتصف الليل بوقت طويل قالت هانيلكا إنها نعسانة. فرش جورج بطانية على الأرض وكانت المخدة مسنداً من مساند الصوفة فاستلقت هانيلكا بكامل ملابسها إلى جانب الشاب ذى الوجه اليونانى. واندست أستر مع خطيبها فى السرير الضيق ولم يلبثا ، بعد إطفاء الأنوار ، أن بدآ العناق.

انبثق ضوء الفجرَ من خلال النافذة. وسمع صوت الترام هادراً فى مكان ما. رتبت أستر شعرها قائلة جاء الصباح. هيا إلى البيت:

فى نهاية شباط "فبراير" طلب ديترا من ماريا بيك أن تسمح لهانيلكا بالذهاب إلى الحفلة المنزلية الصغيرة فى بيت خطيب أختها

الكبرى ، والبقاء حتى وقت متأخر بعد إغلاق باب العمارة. حدق هابتلر يانوش الأخ بعينيه الصفراوين فى الشاب الوسيم دون أن ينبس بكلمة.

خطيب مارغريت يسكن فى شارع "لونى" واسمه جولا شوهابا ، يعمل تاجر تحف قديمة.

فوجئت هانيلكا حين فتح باب الصالون الضيق شخص شاحب ، ذو شارب، فى حوالى الخمسين من العمر.... قادهم تاجر التحف إلى غرفة واسعة ، يشيع فيها الدفء. ويضيئها مصباح "كلوب" وحيد منتصب على جهاز راديو قرب نافذة مغطاة بستارة سميكة. عبر هذه الإنارة بدا كل شيء فى الغرفة بنيا. الأثاث الأنتيكى ، السقف ، الجدران ، أغطية الصوفات. وفى الركن ماغناتوفون يتولى إدارته شخص وسيم أسود المقلتين ، وإلى جانبه أنواع المشروب وأنواع الكعك الحلو ، والكعك المالح على طاولة واطئة. وعلى كنبات جلس كل من الشاب الجامعى ذى الوجه الأنثوى ، وزميله الوسيم بنظارتيه ، ومارغريت النحيلة ذات الخامسة والثلاثين من العمر ، إضافة إلى تاجر التحف المبلل الوجه. تحدث عن فن القرن السادس عشر ، وعرض بعض التحف الناعمة الصغيرة ، ومنها تمثال من البرونز لبوذا. طلبته مارغريت ورأته مع هانيلكا. تبسم تاجر التحف وقال لهانيلكا: ينبغى أن نقرأ عبر سطوة هذا التمثال شيئًا هو الصمت الحكيم ، وفيما بعد قرفصت قرب الماغناتوفون ، تبحث برفقة الملقم عن موسيقى مناسبة.

حين صدحت خفيفةٌ سيزنادا ضوء القمر ، دعت الشاب للرقص ، طووا السجادة ورقص الجميع. طبع دتيرا قبلة على جيد هانيلكا - هذه الموسيقى كثيفة. معبأة بالشهوانية - تبسم. أطبقت هانيلكا جفنيها موافقة - صحيح - أجابت انتهت مقطوعة رافايل.

وعند النغمة الأولى بدأ ملقم المغناتونون بهز خفيف لوسطه وردفيه ، ثم راح يرقص منفرداً في الجو الغبشي. وسرح متناسياً من حوله ، مبتغياً متعة شخصية وحين انتهت الضربة الأخيرة للإيقاع ، أطفأ المغناتونون وقال:

- في الأساس تمارس هذه الرقصة بأجساد عارية تحت وشاح.

صب تاجر التحف الكونياك. وأهاب بهم أن يتركوا الرقص ويلعبوا لعبة جماعية ، من يخسر فيها يخلع قطعة من ثيابه كل دور ، وإلا كانت اللعبة مملة لا حياة فيها. اقتعدوا السجادة ، وبدءوا في رمي حبات النرد. هانيلكا حالفها الحظ فترة طويلة جدا. وخسر ديترا ، وصديقه فحل كل منهما ربطة عنقه وخلع قميصه ، فجلسا جنبًا إلى جنب شبه عاريين. وفي أول خسارة لهانيلكا خلعت حذاءها ثم جوربها الطويل ، فيما بعد. أما تاجر التحف فصار عاري الساقين لايحجب سرواله الداخلي الأبيض الظاهر إلا القميص. لمحته هانيلكا ، وانفجرت ضحكتها. لكنها في الرمية التالية تجهمت. قامت إلى الزاوية ببطء ، وفكت سحاب فستانها الأسود ، ثم زرّ العنق. ورجعت إلى مكانها بثوبها الداخلي. واقتعدت ساقاها على السجادة. بعد ذلك خلع الملقم الموسيقى الوسيم

قميصه الأزرق الغامق فانكشف ساعداه عما يبرز شعار فصيل الطيران وتحته بلوزة خفيفة. فيما بعد انسلت الفتاة الجامعية ذات النظارات من ثيابها. وصارت مارغيت بالسروال الداخلي ، والحمالة الصدرية. تاجر التحف جعل هانيلكا محط نظراته. ولاصق الشاب ذو الوجه النسائي مارغيت ، وبدأ يداعب ظهرها. بشرتك مخملية – قال

– مخمل ملتهب.

الرقية التالية كانت لهانيلكا. رمت حبة النرد. ونظرت مذعورة ، محبوسة الأنفاس. وضحكت من نفسها مذعورة بصوت عال. نظرت إليها مارغيت.

– والآن يا أولاد. أنا اكتفيت من هذا. غضب المبلل "تاجر التحف" قائلاً : لا يجوز إفساد مزاج سبعة أشخاص آخرين. أومأت لها مارغيت وقادتها من ذراعها إلى الغرفة الأخرى. وبدوره ، اختفى الملقم الوسيم ، وصديقته ذات النظارات وراء باب بني اللون. وحدق الشاب ذو الوجه الأنثوي في مارغيت ثم لحق بهم. بقيا في الفرقة الغبشية وحيدين. أدارت هانيلكا الماغنتفون، بحثت عن مقطوعة رافايل، وعانقت الشاب. في بيت الغرفة، المطبخ صار يانوش هابتلر الابن – بدافع الضجر حسب رأي الفتاتين – يختلق مشكلة عصر كل يوم حين يرى أنهما قد أنهيا الاغتسال وتسريحة الشعر، ورسم حمرة الشفاه على فميهما.

– أين ستذهبان أيضاً ؟

"امتلأت هانيلكا غيظاً"

- إلى شغلنا.

- إلى المقهى - صرخ يانى

- وماذا ستفعلان فى المقهى ؟

ضربت هانيلكا طاولة المطبخ:

- نجلس - صرخت

- نجلس.

- نجلس، نجلس - صرخ يانى.

قهقهت ماريا بيك.

- أية جهنم تريد من الفتاتين ؟ لم لا تذهب معهما ؟

- تفضل - قالت أستر

- تعال معنا.

حدق فيهما يانى.

- أنا ؟ إلى هناكَ ؟ أنا ؟

وأصدر قهقهة ساخرة.

فى المساء بث شكواهَ إلى والده بصوت مشوب بمعاناة:

- أمس أيضًا، رجعتا بعد إغلاق الباب. إنهما تدخنان بين اللصوص وتحتسيان الـ ... جهنم بالشوكولا. ولا يعنى هذا شيئًا ...! لا يعنى شيئًا ... !

وبخته ماريا بيك، تشاجرا، تصايحا. وكان أن أفصح هابتلر العجوز قائلاً إن من المحزن والمعيب إذا ما بدأ الجيران ينتبهون إلى تأخر البنتين اليومي بعد الحادية عشرة ليلاً، وصاح بنبرة حاسمة متوجهاً إلى ماريا بيك.

– أنا لا أحتمل هذا. قولي لابنتيك إذا ما تأخرتا ولو دقيقة واحدة سأختلق مشكلة.

في اليوم التالي وصلت الفتاتان بعد الإغلاق بدقائق قليلة. نهض هابتلر العجوز من السرير، وتلقفها بصفعة جعلتها تقع على الأرض ثم جاء دور هانيلكا فضربها. ولولت ماريا بيك، ودفعت زوجها عبر الباب، ثم هجمت على الفتاتين تهز قبضتها:

– تستحقان هذا، انصرفا إلى النوم.

سألت هانيلكا أخاها ياني:

– أنت سعيد الآن ؟

بقي ياني مستلقياً على الصوفة يرمق أخته بعينيه الصفراوين. وأجاب:

– من دواعي سعادتي أن أقوم الآن وأشبعكما ركلاً.

كان ديترا لاتسي شخصاً فطناً، شديد الانتباه. دائماً كان يلاحظ تسريحة هانيلكا الجديدة، أحمر الشفاه المختلف وعندئذ (يقبل يد)(*)

(*) (أقبل يدك) تحية لفظية نبيلة ، المترجم .

الفتاة ويثني على ذائقتها الرفيعة. وكان يتعانقان ويقبلان بعضًا في المقهى والشارع وأمام باب البناية مساءً، ولذلك كان البعض يثيرهما بتعليقاته الساخرة. مرة قال العجوز زنتاى متضاحكًا: مادأما يحبان بعضًا فما المانع أحيانًا أن يندسا تحت الغطاء. وبادر إلى تقديم غرفة بالإيجار. بعد أيام.قالت هانيلكا لـ "ديمترا" باسمة:

- ولم لا نصعد ؟

كان العجوز زنتاى يسكن في وسط "كورفين" اصطحبهما إلى الغرفة قائلاً إنه سيعود حوالي الساعة الثامنة والنصف. تبادلا العناق والقبل طويلاً على الصوفة ثم طلبت هانيلكا من ديترا أن يدير وجهه، تعرّت واستلقت في السرير وسحبت الشرشف حتى جيدها . وحين اندس إلى جانبها كانت تدير وجهها إلى الحائط. وبقى فترة طويلة دون أية حركة. يدخنان معًا حتى قال ديترا:

- ليس جيداً هكذا. التخطيط للمسألة غير جيد.

- كلا - قالت هانيلكا

- ليس جيداً.

ثم نهضا يرتديان الملابس، وانصرفا.

ومن بعدها لم تقع، عينا هانيلكا على الشاب الوسيم ذى الوجه اليونانى، ولم يحضر أبداً.

فى الصيف ذاته اصطحب جورج زنتاى الفتاتين ـ هابتلر بالقطار إلى المصيف فى "شيوفوك" أحضر المشروب وعاد برفقة رجل زميل سابق له فى المدرسة الداخلية. كان الرجل وسيمًا، متواضعًا، قليل الكلام، قاصداً المصيف ببطاقة من مؤسسته.

وفى طريق العودة مساءً، قاسمهم المقصورة. كان يرمق هانيلكا بنظرات طفل متأمل مندهش وفيما بعد سألها بهدوء:

– أنلتقى فى بودابست ؟ أجابت هانيلكا ضاحكة:

– طبعًا.

التقيا فى مقهى الشباب. هو يدعى ميلكوت سوها. وقال إنه ابن لعائلة من ملاك الأراضى، يعيش مع والديه ويعمل فنيا فى مؤسسة للبناء. ولكنه من الكوادر السيئة، ولا يفيد فى شىء أنه متقان فى عمله، لأنه مشار إليه ومصنف من الجميع. أبوه مريض، وأمه تعمل فى نقابة الصناعات المنزلية. ويعيشون بصعوبة. لكنه على الأقل، ليس قلقًا من أن يزاح من موقعه فى العمل. أبدت هانيلكا أسفها وتعاطفها. وفى طريق العودة إلى البيت تبادلا القبل فى ساحة الجمهورية.

كان ميلكوت سوها ، كل مساء من السابعة حتى العاشرة ، يتواجد في بيت هابتلر. أحبته هانيلكا. كانت تشعر أنها أكثر قوة وتماسكًا ، وأدركت أنّ الشاب في حاجة إلى قوتها... وفكرت، في البداية، أنها ممكن أن تنجب منه، لأنه وسيم، ذكي، محترم. صارحت أستر بذلك مرة في السرير قائلة بأن ذلك سيكون خلطة رائعة في استراحة الملاكمين، حيث قبل عازف السكسوفون ذو العينين الزرقاوين صدرها أول مرة، صارحت ميلكوت بأنها ما عادت عذراء.

- ذات أمسية سيئة الطالع بالنسبة لي - قالت هانيلكا بهدوء.

قبلها ميلكوث سوها.

- كوني زوجتي - قال.

في عيد الميلاد، في عرس أستر ، أحضر خاتمين ، أعلنت خطبتهما. وبعد عيد الميلاد طلب من ماريا بيك أن تسمح لهانيلكا بمرافقته ، لثلاثة أيام ، إلى عند أقربائه في الريف. لنحر خنزير.

كانت أيامًا ثلاثة لا تنسى بالنسبة لهانيلكا. قصدا "شيوفوك" واستأجرا غرفة لدى امرأة عجوز. ندف الثلج ناعمًا ، وكان العالم كأنما في حلم أبيض لا يصدق. أمضيا جل وقتهما في السرير منحت هانيلكا جسدها حرا للسعادة والمتعة. وحين كانا يرتادان ليلاً مطعم "فوغاش" للعشاء، يرقصان متعانقين متلاصقين، وتركا انطباعًا جميلاً لدى الناظرين إلى هذين العاشقين، عادا متأخرين عن الموعد نصف اليوم. ودون مقدمات، تناوبت ماريا بيك وجه هانيلكا بصفعة شديدة.

في شباط "فبرايز" تزوجا. أعدت ماريا بيك مرقة اللحم، ولحمًا مطبوخًا والمقبلات الكثيرة المثومة والمفلفلة، إضافة إلى اللحم المقلى، والدجاج المقلى، والسمك المقلى، والقريش، وأنواع الكعك والكاتو.

أكل، وشرب، وغنى كل من في البيت. وارتجل هابتلر استفان كلمة جميلة بهذه المناسبة، ثم تلاه بيلا شابات وتمنى باسم الجيران القدماء كثيراً من السعادة. شرب بعض أقداح النبيذ. حل ربطة عنقه. وغنى بصوته الخشن، هيه يا صيادى السمك ... أيها الصيادون.

نهرته أستر: سد فمك! فيما بعد نادى ياني هانيلكا، ودس في جيب طقمها الأسود، ساعة يد، وألفى فورنت.

– اشترى مقلاة و... – قال باستحياء

وقفت هانيلكا على أصابع قدميها وقبلت وجهه.

وبعد منتصف الليل، استأذن الزوجان الشابان ماريا بيك، بالرحيل.

– ليس مناسبًا الآن - قالت ماريا بيك بحزم

– انتظرا حتى يغادر الضيوف.

ثم اتسعت على وجهها ابتسامة. ونادت العجوز هابتلر. قبلت هانيلكا يده مودعة.

وبعيون مغرورقة بالدمع وقف الجميع يشهدون كيف غادرت صغرى الفتاتين برفقة ميلكوت سوها، المنزل.

وبعد بضعة أيام فتحت عائلة هابتلر باب البيت على مفاجأة لا تنتظر وقوعها. جاءه شرش شاندور وزوجته لوداع العائلة.

– سنسافر إلى روما بالطائرة. من هناك إلى تل أبيب.

هدفنا النهائى. قدّرنا، أنا وبوريس، ألا نذهب بلا وداع، وألا ننفصل عنكم وأنتم الأعزاء بحزق. نحن الآن سنعمل ضمن الإمبريالية البعيدة من أجل الاشتراكية. بينما أنتم تعملون من أجلها هنا فى بلدنا الجميل، بلد الديمقراطية الشعبية. وبما أننا حصلنا على سماح رفاقنا بأن نتواصل بالمراسلة، نستطيع إذا شئتم أن نعطيكم عنواننا الدقيق، تستحق المسألة مزيداً من الانتباه تلفت انتباهكم:

أولاً: أن تضعوا الرسالة بمظروفين. المظروف الخارجى يعنون كالتالى: صندوق بريد (١١٤) بودابست.

وعلى المظروف الداخلى الذى يحتوى الرسالة ، اكتبوا اسمى: الرفيق شرش شاندور - تل أبيب - السفارة المجرية. فى هذه الحالة يكفى أن تلصقوا عليه الطابع وسيصل إلينا. هل أوضحت الخطوات؟ إذا شابها شيء من غموض سأشرحها لكم مرة أخرى.

كتبت ماريا بيك العنوان ، وتمنت لهما سفراً طيبًا. تعانقوا ، وودعوا بعضًا.

استأجرت أستر بيتًا فى شارع " ناج مزو". فقد صار زنتاى يعمل فى بودابست ، لدى مؤسسة المطاحن ، وغالبًا ما كان يسافر إلى

الريف فى جـولة رقـابيـة. كان راتبـه ١٣٥٠ فـورنـتًا، ودخـل أسـتر ٧٠٠ فورنت فى الشهر الأول اشتريا راديو. وفيما يخص المصاريف كانا يشدان الأحزمة، أيام الآحاد ليخرجان فى جولة على الدراجة النارية. وبعد ثلاثة أشهر من زواجهما جاء جورج زنتاى فخوراً إلى البيت. وعندما اندس ، بابتسامة بلهاء وأنفاس نبيذية إلى جانب أستر فى السرير ، انسحبت عنه.

– أكرهك. لا تقترب منى. أنا سأذهب.

ضحك جورج.

– ولتذهبى ، يابنيتى. انقلعى.

فى الصباح استعاد توازنه. قبل أستر وسافر إلى الريف.

لبست أستر ثيابها وذهبت إلى شارع تاج فوفاروت حيث أهلها. قالت لأمها:

– أنا رجعت إليكم.

ذهبوا ، مع يانى ، لإحضار الحقائب. وخلال ثلاث حمولات ، كانت كل الأغراض منقولة. وحين عاد زنتاى من جولته الريفية ، حدق فى الغرفة الفارغة مذهولاً. ولم يجرؤ على الدخول إلى بيت هابتلر خوفًا من حماته ومن عينى يانى الصفراوين. لمح أستر أمام المدخل. دعا زوجته إلى مقهى الشباب. وبعد حديث قصير أبلغته أستر بنبرة حاسمة أنها لن

تعود إليه ثانيةً. وبعد يومين حضر فيلاتو يانو بطلعته الوهاجة إلى بيت الغرفة - المطبخ. حيا أستر "أقبل يديك" واصطحبها فى موعد شاى الساعة الخامسة للرقص. فى شارع ناج فورفاروت أوقفهما زنتاى. ارتعد فيلاتو. رفعت أستر عينيها باردتى الزرقة وقالت : إياك والتهديد وإلا سأنادى أخى.

وعبر أسبوع بطوله كان زنتاى يرسل كل يوم ، باقات الورد لزوجته ثم يتلفن لها فى مشغل صنع الأحذية يطلب موعداً. التقيا فى مقهى "هانفولات". طلب زنتاى سيزانو ، وبلهجة هادئة صادقة استماحها عذراً. ووافق على الانقطاع عن الشراب. غازلها طويلاً ، وأبدى محبةً وافتتاناً وقال ضاحكاً.

- لن أفلت من يدىَّ أجمل نساء بودابست.

رجعت أستر إلى بيت الزوجية. وفى اليوم التالى ، على غير انتظار ، نقل العجوز زنتاى من بودابست إلى "أوهات بوست" قرب هورتو باج. وصارت ماريا بيك تعد له كل شهر طرود الطعام وترسلها بالقطار مع ابنة زنتاى.

حين حملت أستر ، أصدرت ماريا بيك تعليماتها بأنْ لا يتناولا وجبات الطعام عندها. وعبر تسعة أشهر طهت لابنتها ، وصهرها ، ولم تقبل منهما نقوداً. وضعت أستر بنتًا. لكن الطفلة ماتت فى اليوم الأول فى المشفى. وجاء فى تقرير موتها: نزف فى الجمجمة ، لكن أستر

لم تستطع أن تنزع من ذاكرتها كيف أوقعوها. ذهبت إلى دفنها كل العائلة عدا أستر التى اعترتها نوبة بكاء جعلتها تولول وتنتف بشعرها وظلت آغوثا الصغيرة ذات السنوات التسع إلى جانبها ترعاها وكانت تجلس مرتعدة على طرف السرير. "فى بودا" ، فى الطابق الأول من فيلا خاصة استأجرت عائلة هانيلكا غرفة مكعبة ، مضاءة هى امتداد لمطبخ وحمام. كانت الحديقة ملأى بالأزهار وزهر الآرغينيا متفتح فيها. كانت هانيلكا لا تنقطع عن الغناء. وكان حبهما كبيراً. وكانت رغبتهما عارمة فى إنجاب طفل. وذات أحد فجأة ، توفى والد ميلكوث سوها.

لم يبك الشاب. بل شخص بعينيه الواسعتين البنيتين ورمق هانيلكا ذاهلاً. لم يكلف بالتبعات والإجراءات المتعلقة بالدفن. بل قامت هانيلكا والعجوز بمتابعة وإنجاز ما يلزم من أوراق. حضرت عائلة هايتلر الدفن. ابتاعت ماريا بيك قوس زهر حى. ووقف ميلكوت سوها ساكناً قرب كتلة التراب الطرى إلى جانب أمه. اصطحبته هانيلكا بالتاكسى إلى البيت ، حيث جلس طويلاً عند الطاولة دون أن ينبس بحرف. فيما بعد تناول عشاءه مرتاحاً واقترب من النافذة يحدق فى المشهد الخارجى.

أنجزت هانيكا الترتيبات المنزلية ، وغسلت بعض البياضات. وهجعا إلى النوم. قبل ميكلوش سوها جيدها ، صدرها ، ومد يده إلى فخذيها.

فى الشهر السادس لزواجهما حملت هانيلكا. وجاء حملها قاسياً عليها ، فكانت تعانى من وعكات لا تفارقها. ورضوخاً لتعليمات ماريا

بيك تركت عملها فى مصنع التراكتورات ، وانتقلت مع زوجها إلى شارع فوفا روش حيث خصص لهما أهلها نصف الغرفة الأصغر. وحين تحرك الجنين فى بطنها تحسنت صحة هانيلكا . فى المساء كانا يراقبان حركات القادم المرتقب وتتلاقى عيونهما فى دهشة. ضحكت هانيلكا وسألته:

- سوف تحبنا أليس كذلك؟

تبسم الرجل وطبع قبلة على جبينها المبرقع بالطفح.

فى المرحلة التالية من الحمل تخاصم يانى باستمرار مع أخته الصغرى لأنها قليلة الحركة وكسولة.

حاثا إياها على المشى والحركة. لكنه لم يسمح لها أن تقوم بأبسط الأعمال فكان يلتقط كل شىء من يدها . أما فى الأيام الأخيرة فقد كان متوتراً لدرجة تشاجر فيها مع الجميع ، حتى هددته ماريا بيك بالطرد من المنزل.

- ماذا ستفعل فيما بعد لو كان الأمر يتعلق بزوجتك وهى على باب الولادة؟ هل تقتل الأسرة بكاملها؟

تلاقت نظراتهما . وكانت ماريا بيك متوترة هى الأخرى.

مساء الأحد توجعت هانيلكا من الساعة التاسعة حتى الرابعة من صباح الإثنين. ولم يغادر يانى وميلكوت المشى حتى اللحظة الأخيرة.

وضعت صبيا سليماً. عمد باسم ميلكوت. وانتقل سوها ميلكوت بأسرته إلى بيت فى الطابق الأرضى وهو منزل بغرفة ومطبخ تسكنه أمه بالإيجار.

ادخر هيرش أشتفان اثنى عشر ألف فورنت. استدان ما لزمه من نقود من زملائه فى العمل. للبدء ببناء منزله الخاص. وبحلول الصيف قصد كوخه على شاطئ الدانوب ، فى إجازة لمدة أسبوعين. صباح السبت شوت غيزيكا لحمًا ، ولحقت به مع آغوتا. وقفت فى الباب ، سحبت الستارة الكرتونية الملونة وقالت لآغوتا أن تنتظرها عند شاطئ الدانوب ، ثم دخلت إلى الغرفة (الكوخ). فتاة فى حوالى العشرين تجلس على البنك. لاحظت غيزيكا أنها تحت وشاح النوم عارية.

– من هذه بحق الشيطان؟ سألت.

– عفواً. لا أسمح أن تسيئى الظن – قالت المرأة – أنا خطيبة هيرش أشتفان.

التقطت غيزيكا ثيابها ورمتها:

– انقلعى. هيا. بسرعة.

بدأت المرأة ترتدى ثيابها بتؤدة. وطلبت من هيرش أشتفان أن يغلق سحاب الظهر. فسكن غيزيكا الغضب ، ورمت حقيبتها خارجًا عبر الباب ، حين ذهبت المرأة سألته بهدوء:

- كيف سمحت لنفسك بارتكاب مثل هذا ؟ ومسح بكلتا يديه شعره الأشقر المائل إلى الصلع ، وأشعل سيجارة. ثم قال:

- لكي أهزك: يجهد الإنسان يريد أن يضحك. وأنت إما سارحة ، وإما نائمة.

- لقد هززتني. أكرهك مثل جيفة.

وحملت آغوثا راجعة إلى البيت. مساء الأحد وصل هيرش أشتفان. قالت غيزيكا بنبرة هجومية لقد حذروني غير مرة ، في المصنع بأن زوجي عاهر وشاهدوك مع امرأة غجرية جميلة في شارع "بتوفي شاندور".

وضع الجريدة من يده:

- من قال ؟

شخص يوثق بكلامه.

- ليس صحيحاً.

- يا للحقارة. وتشوه سمعتك في المصنع !

صفعها. فارتمت بالكرسي الذي تجلس عليه. لم تبك ، احمر نصف وجهها وأذنها ، وانكشط الجلد عن زاوية فمها. واغرورقت عينا هيرش بالدمع.

قال:

– أترين ! لأنك تلقين كلماتك هكذا بلا تفكير.....

جلست غيزيكا على الأرض تحدق فى زوجها.

وصلت رسالة من شرش شاندور . واعتبر هذا دائماً أمراً مريعًا بالنسبة لعائلة هابتلر التى دمعت عيون أفرادها جميعًا من شدة الضحك. والآن كذلك جلس الجميع فى الغرفة منصتين إلى أستر وهى تقرأ الرسالة ، لأنها باتخاذها هيئة جادة ، برعت فى أداء هذه الكوميديا. وحتى فى أشد السطور إضحاكًا لم تفتر عن ابتسامة إضافية إلى أنها استطاعت أن تقلد لهجة شرش البطيئة فى الحديث. وهذا بحد ذاته يوقع من الضحك. جاء فى الرسالة المطولة:

عزيزىَّ ماريا ويانى أبلغكما أن الرسائل التى أرسلتماها وصلتنا، وقد سعدنا بها. وبرهنتما برودكما المخلصة أن لا وجود لأية مشكلة فعلية بين أفكارنا ونظرتنا للحياة. فقط أنتما لم تفهمانى فى النقاش السياسى الذى دار بيننا إلى جانب العمل الشيوعى الهادف إلى التربية الشعبية ، ياعزيزىَّ ، أعلمكما أننا فى حالة جيدة ، نتمناها لكما من القلب. ونحن سعداء بأنكما ، مع كافة أفراد الأسرة ، فى صحة وعافية.

ما يزال الحر شديداً عندنا ، وهذا ما لا تحتمله بوريش فهى تتعرق دائمًا ، والمناخ يضعفها لأن الإنسان لا يعتاد هنا على الجو مهما تطل إقامته ، بل على العكس فإن قوة احتماله تتراجع مع تقدم الزمن فى هذا

المكان. كل ما نفعله الآن ، نفعله من أجلنا نحن بالذات. ولكننا ستسعى إلى إنجاز ما يكلفنا به الحزب بأقصى ما لدينا من ضمير وإحساس بالمسئولية. لأنه إذا ما سعينا جميعًا ونظرنا إلى الأمور بهذه الروح العالية فسنقضى على الإمبريالية بأسرع ما يمكن. فقط هكذا من أجل النصر النهائى نستطيع أن ننجز الوثبة الأخيرة.

عزيزى يانى. كم يسعدنى أنك ترى فى حقيقة كونى لا أقف فى طريق أحد. وأبرهن على هذا بأننا ، نحن الشيوعيين الواعين ، نختلف عن أولئك الذين لا يهمهم إلا الصعود والتسلق ، ثم يتناسون أن الحزب هو الذى نصبهم ، بثقة الشعب ، لإنجاز المهمات الموكلة إليهم. لكن الذين يتناسون هذه الفكرة هم الذين يصلون بسهولة إلى مواقعهم.

عزيزى يانى: تكتب أن كفالتك رفضت. ما هو مهم استمراريتنا فى العمل بسلام. وهذا أثمن من رفض أى كفالة. كل ما أستطيع أن أكتبه لك فى هذا الخصوص أنهم لو لم يقبلوا أى كفالة فإن حكومتنا ستؤمن حياة أمينة ، وحقوقًا لكل منا. وهذا أثمن من كل شيء.

وتكتب أيضًا يا عزيزى: عن هانيلكا تركت العمل. هذا ليس باعثًا على السرور ، ولكنه أيضًا لا يستدعي القلق والقنوط. أنا واثق أن النقابة ستهتم بعودة هانيلكا إلى عملها ، لأن الثروة الحقيقية؛ بالنسبة لحزبنا ، إنما هى الفئات الشابة ، عماد المستقبل. فلا داعى للقلق ، وعما قريب ستحل المشكلة.

سأكتب عن نتائج لاعبينا في كرة القدم ، التي شغلت العالم بأسره ، ولاقت اعترافًا منه.

لكم كل الحب. ونحن في شوق عارم لرؤيتكم جميعًا وللجميع قبلات. شاني وبوريش. تحياتنا لكل سكان العمارة دون ذكر الأسماء لأنكم ستقدرون أي شخص نخص بتحياتنا".

لاقت الرسالة نجاحًا باهرًا. مما جعل حتى أستر تفتر شفتاها عن ضحكة وخاصة عند عبارة: فقط هكذا نستطيع أن ننجز القفزة الأخيرة لبلوغ النصر النهائي.

وأعجب غيزيكا: سنبذل كل ما بوسعنا ، إذا ما امتلكنا مصيرنا بأيدينا ، للحفاظ على إمكانية الحياة بسلام.

ويرأى هانيلكا أن الأروع هو: المناخ يضعف بوريش ، وهي تتعرق كثيرًا.

أما العجوز هابتلر فقال تغمره السعادة:

– إنسان غبي. إنسان غبي.

وكان لجورج زنتاي رأي مختلف

– يمتلك عقلاً أرجح من عقولنا. إنه يكثر من كتابة هذه الحماقات لأنه يعرف أن رسالته ستقرأ من قبل الرقابة. وسيكون مخبولاً لو غامر بأية كلمة أخرى.

ابتسم سوها ميلكوت وقال بلهجته الهادئة:

– أظن أنك على خطأ. هذا الإنسان مثال فى السذاجة. فى رأيى إنه مجرد موظف بسيط فى السفارة وزوجته – تنظف ، تطبخ ، تقوم بكل أعمال الخادمة.

– لا تغضب يا ميلكوت إذا ما قلت لك أنك لا تمتلك كثيراً من الأحاسيس تجاه الأمور العملية. أنا لا أزعم أن هذا الشخص فائق الذكاء ويشع بالفطنة ، ولكنه ضرب ضربته المتعددة الأبعاد. هؤلاء فى الخارج يقبضون رواتبهم بالعملة الأجنبية ، بالعملة الفلسطينية. فإذا ما عادوا إلى البلد بحقائبهم وطرودهم فأنت تعرف ما يعنى هذا....

مؤكد أن المجنون يأخذ بالتعابير البلشفية أكثر من أى شخص آخر. ثم تبسم قائلاً.

– ذات مرة سوف أفعلها وأجعله يجترع النبيذ البروغشى حتى ينطفئ ثم سنستمع منه كيف يتناول السياسة.

– ليس له سياسة. ولا يفهم فيها – قال يانى – وإذا سقيتموه النبيذ سيغنى لكم النوتات المجرية.

ضحكت هانيلكا قائلة:

– النوتات المجرية ؟ سوف يزأر زئيراً

فقال يانى:

– وما الضير فى هذا ؟ أليس أفضل من (B تنور) أو فى (فليب الشوكولا). أو من أى شىء آخر.

رفعت أستر رأسها عند الطاولة وقالت بعصبية:

– ما مشكلتك مرة أخرى ؟ انتسب إلى الحزب إذا كنت ميالاً إليه. أو قم الآن واغتسل بالماء البارد.

لم تفارق الابتسامة وجه يانى.

– أغلقى فمك. أقترح أن تغلقى فمك كى لا أحطم كل شىء هنا ... الأثاث ، المنزل ... كل شىء أحطمه إلى ألف قطعة وقطعة ثم أبصق عليه ... اخرسى.

قام هابتلر يانوش الأب عن الصوفة.

– ماذا ستفعل؟ – سأل – لست الآن على ضفة بحر "أو هوسكى". بين الروسيين. أنت ضمن أسرتى وعليك أن تسلك سلوكًا لائقًا بإنسان لطيف ، وإلا سأقوم بضربك.

ساد صمت. وضع يانى المطرقة من يده على الطاولة وقال:

– ما دخلك فى الموضوع يا أبى؟ أنت يا أبى أغبى من عليها فى الحي الثامن. قل لى يا أبى كم تسعة ضرب ستة؟

رنا هابتلر يانوش العجوز إلى ابنه بعينين دامعتين : وقال بصوت مرتجف :

– حين يسجنونني في التابوت، سوف تتذكر كلامك هذا . ولكن عندها لن يتمكن أبوك الغبي من أن يقول لك شيئاً من عالم القبور.

بدأت الفتيات بالبكاء الهستيري، عبرت ماريا بيك من المطبخ ، ولكمت ابنها على وجهه. ثم أمسكت به ودفعته إلى الخارج. .

– تتهجم على أبيك ـ زعقت ماريا بيك – أنت حيَّة، عدو لأهلك، عدو لأخواتك. أنت تمساح.

– ما الذي يضحك في رسالة حاجب – صرخ ياني– إذا كان الحاجب والخادمة يؤمنان بشيء ما فهذا مبعث سخرية للمخبولين فقط. والذين يسخرون من مثل هذا بأي شيء يؤمنون. قولوا لي أرجوكم، أمي أرجوك قولي لي.

بعد قليل هدأ . ساعد أمه في غسيل الآنية ، ونظف سطح المجلى. بينما ظل الأب جالساً فوق الصندوق العسكري حتى وقت متأخر من المساء. وبعد ذلك ، بابتسامة خجلى تمنى للوالدين ليلة سعيدة واندس سريعاً في السرير.

عينت هانيلكا في ديوان أحد مستودعات مؤسسة تركيب زجاج الأبنية. وكانت تستقبل قطار الساعة السادسة صباحاً.

يوم الأحد كانت تنام كثيراً . وكانت حماتها تسكن في المطبخ مع حفيدتها ، وكانت تقوم بترتيبات البيت.

جلبت هانيلكا ، بعد الغداء ، الماء من البئر ، وغسلت البياضات ، ونشرتها فى الحديقة لتجف. وقام ميلكوث سوها بأعمال متنوعة منها صنع مظلة كلوب. ومن القصاصات الجلدية ، محفظة نقود ، وبابوج. ثم اندسا فى السرير وتعانقا حتى موعد العشاء. نادته هانيلكا ، للتحدث معًا . ليقص لها بعض الحكايات والمغامرات الغرامية والنساء ، أو ليبوح لها عما رغب يومًا من الأيام ، أن يكون. صمت الرجل ماجًا سيجارته. ثم أجاب بعينين وهاجتين: طيار.

ذات عصر يوم أحضرت هانيلكا بطاقة مسرح. ولكن لم يكن ميلكوت سوها مستعدا للذهاب فى ثيابه المخططة.

فى الربيع تعرفت هانيلكا رجلاً وسيمًا ، كانا كل صباح ينتظران معًا على موقف القطار كانت تحياته المتكررة لها تنم عن ذوق ولطافة. فيما بعد قدَّم نفسه. ومنذ ذلك الحين لم يتوقف لسانه عن قص الأحداث الطريفة. كانت هانيلكا تضحك ، كاشفة عن أسنان بيضاء تأخذ بالأبصار. ولم تخل أحاديثه من مواضيع جادة. من ضمنها ، فى رأيه ، أن لقطة من مثل تقبيل الساقين فى فيلم الأحمر والأسود تثير ضحك المشاهد. ولكن ، فى الواقع ، أن ممارسة الحب تتطلب كثيراً من الخيال والتحرر من العوائق. وإن العاشق ليس أخرس ، أثناء العناق فى السرير ، على الإطلاق.

قلبيا أصغت إليه هانيلكا . وأحبت كثيراً تلك الأحاديث الصباحية فى القطار وفى عصر يوم من أيام آب "أغسطس" التقيا مصادفة ،

فى باص الخط السادس. كان مع الرجل حقيبة سوداء وبطانية ، وكان ذاهبًا إلى شقة نهاية الأسبوع.

– هل ثمة مايشغلك الآن؟ سألها

– لا ، لاشيء مهم

– إذن ترافقيننى.

بعيداً ، فى استراحة ذات حديقة فى بودا تناولا القهوة السوداء والكونياك. كانت الحديقة خالية. وكانت تصدح موسيقى عبر بافل صوتى فيما بعد قادهما درب مستقيم إلى شقة الويك إند. أعجبت الشقة ذات النوافذ البيضاء هانيلكا وكذلك حديقتها الناعمة الصغيرة ، والأزهار الصيفية الكثيفة. ثم دلفا إلى الغرفة. أنزل الرجل الستارة. وبعد حين حلَّ زرا من أزرار ثياب هانيلكا. فى هذا المساء لم تقبل هانيلكا طفلها ، ولم تتناول عشاءها. قالت إنها فى حال سيئة. اندست فى الفراش وابتعدت عن زوجها. أحب الأرمل هانيلكا ، وكان ممتنا لها أنها تجعل ابنه الوحيد سعيداً. وعندما ، فى الخريف ، أجريت عملية جراحية لهانيلكا فى المعى الغليظ ، بكت عند الجيران.

انتظرت أستر طفلاً مرة أخرى. ورضوخًا لأمر ماريا بيك انتقلت أسرتها إلى بيت الغرفة والمطبخ. ماريا بيك ، طبخت ، غسلت، نظفت البيت وكانت كل أسبوعين تذهب إلى "راكوش فالفا" محملة بالطبخ واللجم والكعك. تقبل حفيدها وترجع فى الساعة الثامنة مساءً إلى بيتها.

كان جورج زنتاى يبحث عن بيت، لأن يانى لم يكن يطيق صهره. مرة بعد العشاء نزل زنتاى إلى الحانوت ، اشترى لحمًا مقددًا، وألقى به على الطاولة.

- كلى - قال لأستر.

رنت إليه المرأة الحامل، ولم تجرؤ أن ترفض.

ولدت بنتًا سليمة. انتقل زنتاى بأسرته إلى بيت بحمام فى "بست الصغيرة".

ولكن فى أعياد الفصح، والميلاد، ورأس السنة وأعياد الاسم كانوا يحتفلون فى شارع "تاج موفاروش" "فى بيت هابتلر".

قامت ماريا بيك بالتنظيفات الشاملة، وأعادت ترتيب الأثاث وقام بمساعدتها فى كل هذا رب الأسرة ويانى، وأستر، وغيزيكا. أما هانيلكا فقدمت مساعدتها لأمها فى طهى الطعام. ولم يخل الأمر من مشاجرة وصياح. وصل الرجال مساءً مصطحبين الأولاد وباقات الزهر لماريا بيك، وقبلوا يدها البشعة المعقوفة الأصابع، وبعدها فرشت الأطعمة وتحلقوا إلى مائدة عامرة.

استفزَّ زنتاى العجوز ماريا بيك قائلاً:

- يا أولاد. تعرفت امرأة بديعة. زوجها دائمًا فى الريف. شقة مفروشة جميلة. امرأة نبيلة.

– ألا تخاف من أن يفاجئك رجلها النبيل، بالعودة – سألته ماريا بيك.

– آ .. لا يأتي ... لا يأتي.

– وكم عمر المرأة النبيلة ؟

– أربعون، أجمل الأعمار، لكنها لا تبدو بهذا العمر، تعشقني حتى العبادة.

عندئذ احمرّت ماريا بيك ثم قالت بعصبية:

– لعلها عاهرة يا بني، كيف تكون عاشقة ! ماذا تعطيها بالمقابل ؟

– كل ما تطلبه.

وانفجر الجميع في الضحك، ضربت ماريا بيك قبضتها على الطاولة، ونعتت العجوز بالعجوز اللعين، وأكالت الشتائم الفاضحة.

بعدئذ جلس هابتلر والعجوز زنتاي وشابات بيلا يشربون وجلس ميلكوث سوها وهيرش أشتفان وزنتاي جورج يتحدثون.

شرح هيرش أشتفان مشاغله في العمل وتحدث في السياسة، شتم المنطلقات، والنظام.

وأهان زوجته، وقال زنتاي جورج إن لأستر فمًا قبيحًا تخرجه أحيانًا عن طوره.

ميلكوت سوها ظل صامتًا يبتسم.

نظر إليه هيرش أشتفان وقال بجدية:

– أنت محظوظ.

أجاب ميلكوت:

– نعم. لا مشكلة لدي.

ياني لاعب الصغار. استلقى على السجادة العتيقة. امتطوه وصفقوا على ظهره. النساء في المطبخ ينظفن الآنية فيما بعد فرشت ماريا بيك على الأرض لينام أحفادها وصرفت الجميع إلى النوم.

وتحت عنوان تعديلات وظيفية نقل ميلكوت سوها من مؤسسة البناء البيتونية. وبقي دون تسمية وظيفية مدة طويلة ، حتى عين أخيرًا لدى السكك الحديدية في رصيف الحجارة. ولكن فيما بعد وبناءً على رغبة هانيلكا ، عين عامل شحن في مؤسسة تركيب زجاج الأبنية ، حيث هنا أيضًا واجه أصعب الأعمال. وكان الناس فيها غرباء عليه ، وطرائقهم ثقيلة الوقع ولكن دخله الشهري كان معتبرًا. كانت وردية العمل تجتمع شهريا يوم استلام الراتب في مطعم "بوشتا كورت" يدفع واحدهم مائة فورنت. يشربون ويغنون. ولم يجرؤ ميلكوت على البقاء طويلاً ، لأن هانيلكا كانت برفقته مرتين.

وهكذا صار شخصًا صامتًا قليل الكلام. فإذا ما انتهى وقت العمل توجه إلى البيت ولم يغادر الغرفة. يلاعب ابنه ، أو يحل الكلمات

المتقاطعة والألغاز. وبعد العشاء يضاجع زوجته ، ثم يغطان ، تعبين ، في نوم عميق. اشترى راديو يلتقط كل إذاعات العالم ، وأثاثًا للمنزل ، وطباخًا مع طاولة. وسترة صفراء ، وبنطالاً بنيا ، وصنع مع هانيلكا حذاء رياضة بني اللون خلف الباحة المكتظة بصناديق ضخمة جاهزة للشحن.

كانت هانيلكا في مكتبها الزجاجي تسجل واردات المستودع من الإنتاج التي على أساسها تحسب أجور وردية العمل.

كان في المكتب طاولتان – واحدة لأمين المستودع – وخزانة ، إضافة إلى خزانة أخرى توضع داخلها قطع الألماس ، والدحروجات القاطعة التي يقصون بها القطع الزجاجية حسب الطلب. كانت هانيلكا تنجز عملاً إضافيا مرة كل شهر. يذهب ميلكوت إلى البيت وتقوم هي بإنجاز الحسابات حتى العاشرة مساءً ، برفقة قائد وردية الشحن. كان قائد الوردية هذا رجلاً طويل القامة ، محض عضلات ، أصلع في الأربعين من العمر ، يرتدي ثياب العمل الزرقاء ويعتمر قبعة من الطراز السويسري.

كان عمال الشحن يقدرون قوته الخارقة والحيوية النادرة التي يتمتع بها إضافة إلى شهامته الملموسة.

بعد استحمام عناصر الوردية كانوا يجلسون بثياب الخروج في مطعمهم ويمارسون لعبة "واحد وعشرين" بالورق. فإذا ما ربح نقودهم

كان يوصى على النبيذ والطعام من المطعم المجاور. وإذا ما تزوج أحدهم كان يجمع النقود من كل عنصر من عناصر الوردية ويدفع من جيبه خمسمائة فورنت.

فى عيد الاسم لهانيلكا عبأ المكتب بالورد. وذيل إهداءه: بكل الحب – من الوردية. ولم لا. إن هانيلكا قدمت عونًا كبيرًا له ولكنه فى نهاية كل عمل حسابى مضن لهما فى المكتب كان قائد الوردية يوصى على عشاء ثم على القهوة من المطعم المجاور.

– لا تعملى مجانًا – قالها ضاحكًا مسندًا مرفقيه على الطاولة ، رانيًا فى المرأة ذات الشعر القصير ، وهى تجرى حساباتها فى ضوء مصباح المكتب.

فى المرة الأولى قبل قفا عنقها. استقامت المرأة ، وضعت القلم من يدها. حدقا فى بعضهما.

وفى العاشرة مساءً ذهب بها ، بالتاكسى ، إلى "راكوش فالفا".

ذات مساء صيفى عقدت هانيلكا اللعبة كثيرًا. حين انسلت من محاولة العناق ، لتضع الآلة الحاسبة فى الخزانة ، شد قائد الوردية المريول عن جسدها العارى. تماسكا بالأيدى.

بعدها ابترد الرجل غاسلاً وجهه بالماء البارد. ثم قدم اعتذاره بصوت هادئ.

بعد يومين من ذلك قال ميلكوت سوها لهانيلكا وهما فى السرير:

- لك علاقة مع قائد ورديتى.

شحبت هانيلكا . أجابت ليس لها علاقة. وأنهما تبادلا قبلاً مرات ثلاثًا أو أربعًا . صمت ميلكوت طويلاً ، حتى قال:

- البسى. سنذهب إليه.

- وما يفيد هذا؟ سألت.

- البسى.

مسكن قائد الوردية فى بست الجديدة. حين وصلا كان جالسًا فى المطبخ. زوجته فتحت الباب. باغته ميلكوت بسؤال هبط عليه كالشلال:

- ما علاقتك بزوجتى؟

اندهش قائد الوردية وأجاب:

- ولا أية علاقة؟

بدأت هانيلكا تبكى وقالت:

- لا تتغاب. أنا قلت لزوجى أننا قبلنا بعضنا.

- أنت تكذب - قال ميلكوت - وهانيلكا صرحت لى بكل شىء ، ومن المضحك أنك تنكر.

أجاب قائد الوردية:

– كل ما حدث بسيط ويدعو إلى السخرية ولا شيء أساسًا ، لنكرانه.

كل ما كان لزوجته أنها وقفت تحملق مشدوهة ، بين ثلاثة مجانين. أمسكت هانيلكا بذراع ميلكوت وقالت متوسلة:

– هيا لنذهب.

استغرق مسيرهما أكثر من ثلاث ساعات في شوارع المدينة وأزقتها الداخلية المظلمة. وعند محطة القطار الشرقية قال ميلكوت إن الولد سيبقى تحت رعايته طبعًا. هنا ولولت هانيلكا جزعة ، وقالت بتوسل:

– لا إلا هذا لا. ليس بإمكانك أن تفعل هذا.

رجاها ميلكوت أن تضبط نفسها. فلا حاجة للفضيحة. وأشعل سيجارة.

– كيف سمحت لنفسك أن ترتكبي هذا ؟ – سألها بشحوب وبغض – لا أستأهل منك. ومع قذر من أمثاله. أنت أم الولد. كيف تستطيعين أن تقبليه؟.

ظلت صامتة ، تتأمل أسقف الأبنية ، والنجوم.

ثم رفع عينيه الحزينتين المستديرتين إلى هانيلكا:

– والآن ماذا على أن أفعل؟ – سأل المرأة بهدوء.

ظلا أسبوعًا بطوله ، لا يتحدثان مع بعض. مساء الأحد عانق زوجته فى السرير. فانهمر الدمع من عينيها ، وقبلت يده.

– شكرًا . – قالت.

كانت تحب ميلكوث كثيرًا .

حين عاد شرش شاندور وزوجته بالحقائب الأنيقة ، إلى البلد وكانت وجهتهما الأولى بيت الغرفة – المطبخ فى "تاج فوفارش". لغط قاطنو البناية وتحدثوا كثيرًا فى الحدث الضخم. وانتشرت أنباء شتى ، تمس مجوهرات نفيسة وأغراضًا متنوعة.

قالت تشالا يولى: أدخلا معهما ألف زوج من الجوارب النايلونية ، إضافة إلى مغناتوفون بإبرة من البلاتين ، يمكن وضعهما فى صندوق صغير ، وجهاز ليستخدمه أطباء الأسنان. وبلغت شابات بيلا أخبار عن دراجتين ناريتين من طراز .BMW وحسب رأيه أنه يخفيهما فى مرآب الحزب. أما الوضع المالى لهما فلا يستطيع أحد تخمينه بدقة.

وفى مثل هذه الحالات يكون الناس فى غاية التهذيب إذا لم يولوا اهتمامًا بالمهربات.

وبالمقابل كان فى استطاعة أى كان أن يلمس القفزة المادية التى حققاها والتى لا تحتاج إلى براهين خارج الملاحظة العادية.

ابتاعا خزانة فاخرة ، وأثاثًا معدنيا فاخراً ومذياعًا يلتقط محطات العالم. فاستخدما لطلاء البيت شابات بيلا ، الذى أذاع فى حانة هارفاش أنه تعمد أن يطلب أجراً مرتفعًا قيمته ثمانمائة فورنت وقد أدياه دون أى نقاش أو امتعاض.

– الرفيق شرش يخفى حتى تحت بشرة جلده المال الذى يكد من أجله الشعب المجرى. وينزف عرقًا. وسوف يسأل عن ذلك ذات مرة.

كان رواد الحانة يحتسون النبيذ. وهم ينصتون لحديثه ثم بدءوا يتحدثون عن مباراة "رفادى" يوم الأحد.

لم يول شرش شاندور اهتمامًا بالثرثرات المغرضة. كان كثيراً ما يرد فى طريق عودته إلى البيت تحيات الجيران بأحسن منها. وكان يكثر من زيارة عائلة هابتلر.

يأخذ مكانه على الصوفة ، متخذاً وضعية مستقيمة للجلوس كمن ابتلع عصا ، وهو يخاطب ماريا بيك بإصرار وبلا كلل ، لكن بصوت متباطئ:

– عزيزتى ماريا! صدقينى أن ثمة بالنسبة لشيوعى مخلص فرقًا كبيراً بين نظام الأسياد السابقِ ، ونظام الديمقراطية الشعبية. ويجب أن تقتنعى أنت بالذات بذلك. لأنك وصلت إلى عتبة الاشتراكية ، من صفوف الخدم البؤساء الحزانى. على الشيوعيين أن يبرهنوا على صحة منطلقاتهم بأمثلة ملموسة ، وإلا سيقعون فى شرك الديماجوجيا القصوى. لذلك سأضرب لك مثلاً ملموسًا: ألم يصبح ابن صديقتكم

العزيزة القديمة كوفئتني أنا رائداً في الأكاديمية العسكرية للجيش المجري المجيد ، والابن الآخر مهندساً إلكترونيا ولا أعرف عن الباقين شيئًا . هذه الأمثلة الملموسة تثبت أن التاريخ الآن يمر في طوره الجميل.

قدمت له ماريا بيك كأساً من النبيذ وقالت ضاحكة:

– يا شاني! أنت بوق سيئ. يقال إنك تكنز كثيراً من الذهب. وقد صرت السيد البارون للديمقراطية. تتأنق. وتترك الآخرين يعملون عنك. أين العدالة في ذلك؟

احمر شرش شاندور فاجترع قدحه من النبيذ وضربه على الطاولة. أداره قليلاً بأصابعه ثم أجاب بهدوء:

– مثل هذا لا يقال ، يا عزيزتي ماريا . أنا مستمر في العمل منذ طفولتي. وأنجز كل ما يوكل إلي من مهمات كما يجدر بشيوعي. لم أفوت يومًا ، ولا حتى ساعة. ولم أتغيب مرة واحدة عن مكتبي. ولذلك كوفئت بترقيتي على عملي الدءوب ، وعلى استعدادي المتواصل للدفاع عن الحق. ثم انصرف بحمية.

بعد أيام ، تدهور زنتاي جورج ، بدراجته النارية خلال جولته التفتيشية في الريف. وظل ساعات مشلوحًا في الخندق. وجدوه عند الغروب ونقل فاقداً الوعي إلى مشفى "نيرجهازي" حيث جبروا كسور عظامه دون أن تسكت أوجاعه ، وفي بودابست قرر له عمل جراحي.

فعلت أستر الكثير من أجله ، وظلت حائرة قلقة حتى وجدوا طبيباً ذائع الصيت تعهد بإجراء العمل الجراحي الصعب والخطير. وبعد أشهر نقل إلى شارع "ناج فوفاروش". وحين التحقت أستر بالعمل ، صارت ماريا بيك تعتني بنظافته ، وإطعامه ، وتقليبه في السرير فترة طويلة إضافة إلى عنايتها بابنته وبآغوتا.

في أكتوبر – تشرين الأول – وقف على قدميه بمساعدة قائمتين. ورافقتهما هانيلكا بالترام إلى "بست الصغرى" ، لمساعدتهما في حمل الحقائب. بعد الغداء دخل مع أستر إلى الحمام. وفي المساء رن الهاتف فقال الطبيب الشاب أن يخبروا الممرضة أنه لن يستطيع أن يأتي إلى البيت بسبب بقائه في المشفى. فيما بعد استمعوا إلى خطاب "غيرو". بالراديو. فقال زنتاي: ترقبوا أزمة.

فتلفن لبعض معارفه. وأقلقتهما الأخبار المتناقضة. وظلا طوال الليل يسمعان الطلقات النارية تلعلع في السماء من جهة "بست" وفي اليوم التالي ، بناء على تحذير المذياع لم يغادرا المنزل. وفجأة في المساء قدم هيرش أشتفان. كانت ثيابه مغبرة ، لحيته طويلة ، عيناه مشتعلتين وسألاه في الحال : ما الذي يحدث في بودابست ؟ أجاب: ثورة.

– لكن ما حكاية الاشتباكات بالرصاص. من يطلق النار؟ وعلى من؟ ولماذا؟

مسح هيرش أشتفان شعره بكلتا يديه فكر. ثم قال:

– أنا عضو فى حلقة "بتوفى"(*). نحن قررنا أن نتظاهر. أعلناها فى المصنع وقدناهم. كنت عند تمثال بتوفى، عند تمثال بم ، وعند الإذاعة. هنا أطلقوا علينا للمرة الأولى.

اغتسل. قلّتْ هانيلكا له البيض. فرشت أستر لينام، لكنه قال إنه ذاهب. فقالت أستر:

– ممنوع التجوال. هل جننت ؟

هز كتفيه:

– علىّ أن أذهب.

وذهب. قال زنتاى بهدوء:

– يا إلهى ! ما أبأسنى الآن.

غطت أستر ابنتها. صلّت فيما بعد ، بدأت حركاتها الهستيرية فى البيت ، ولولت ماذا ستفعل الآن ؟ هانيلكا توجهت إليها بالرجاء أن تدع هذا، حتى تشاجرتا فى النهاية، وانتحبتا.

صباح الخميس انطلقت هانيلكا إلى شارع "ناج فوفاروس" كان يخيم ضباب كثيف وكلما اقتربت من بودابست كان يتكثف عدد القتلى الذين تشاهدهم، ملقين فى المداخل والشوارع ولكنها لم تفهم شيئًا.

(*) الشاعر والثائر الأعظم فى تاريخ هنغاريا .

ماريا بيك عانقتها وهى تبكى. هدأتها هانيلكا مطمئنة إياها بأن أستر وعائلتها فى صحة جيدة وأن هيرش أشتفان مازال حيا، وقد زارهم ثم خرج إلى مكان ما.

– إلى عند العاهرة صاحبة المعطف الأحمر – قالت غيزيكا.

رنا إليها الجميع، ولم يسألوها شيئًا. بقى العجوز هابتلر حيث أمكن فى الشارع طوال النهار واصطف من أجل المواد الغذائية. شابات بيلا، وتشالا جولى حصلا على أربع دمجانات بالينكا(*) من المستودع وقدماها لأفراد البيت. ابنة تشالا جولى كانت تلعب فى الممر، وتروى كيف يعلقون الشيوعيين فى ساحة الجمهورية، ويخصونهم.

كتب على باب شرش شاندور بالطباشير: هيا يا فرادى "فريق كرة قدم". الموت للشيوعيين ! رمق شرش شاندور الشعار ثم مسحه بمنديل فى جيبه. ووجد زوجته تبكى فى البيت. ألقت عليها ثوبًا من الفانيل، وعقدت رأسها بمنديل فبدت تشبه الفلاحات وعلى الطاولة انتصبت حقيبة.

– لنذهب من هنا – توسلت المرأة

– الشارع قامت قيامته. وفى أيدى أبناء الغجر فى ساحة ماتياش مسدسات وأمام حانة "هارفاش" رَجال الأمن قتلوا رَجلاً بالبيجاما بعد أن أخرجوه من أحد المنازل. شانى الناس سكارى وهم يرددون كلامًا مخيفًا، ولا أحد يفعل شيئًا. لنذهب يا شاندور.

(*) المشروب الكحولى الشعبى المجرى.

راح شرش شاندور يذرع الغرفة نازلاً، صاعداً ثم أحكم إغلاق الباب بالقفل وأغلق النوافذ.

- وإلى أين سنذهب يا بوريش ؟ - سألها

- طردونى من المكتب أيضاً.

- من المكتب ؟ من طردك ؟

- يانو شلايفيرت.

جلسا على الصوفة، وراحا يحدقان فى بعض.

عند الغروب جاء إليهما هابتلر الابن. وقف أمام الباب ورن الجرس ونادى بصوت عالٍ: يا عم شانى. جهزت أمى حساء السمك. وهى تنتظركما.

تناولوا العشاء فى المطبخ. واستخدمت أصابع يديها الاثنتين لإبعاد (حسك) السمك عن شفتيها. أثنت على مذاق الطعام وقالت إنها لم تذق فى أى مكان آخر طعاماً أطيب.

- كلى يا بوريش الغالية - شدَّد عليها هابتلر الأب - تفضلى أرجوك (فصصى) من السمك ما يطيب لك.

أنا سعيد حقا أن ينال إعجابك عشاؤنا المتواضع.

شكرته بوريش على تشديده عليها وقالت إنه إنسان فى غاية اللطف. ثم فجأة نظرت حولها.

– كتبوا على الباب – جهدت كى تبتسم– الموت للشيوعيين. بمن ألحقنا أذى نحن؟ نادراً ما خالطنا الجيران وتحدثنا معهم حتى نؤذى أحداً منهم. أشعلت هانيلكا سيجارة :

– لا أحد يرغب فى إيذاء الخالة بوريشكا لابد أن أحداً كتبها من باب الدعابة.

بكلماته البطيئة شكا شرش شاندور من الرفيق شلايفر الذى كان له صباح هذا اليوم رأى مُفاده أن ثمة مشكلة كبيرة ستحدث هنا ، وأنه لابد من مساعدة فورية ولو بأقسى الوسائل لإنقاذ قضية الديمقراطية الشعبية. قاطعته ماريا بيك قائلة:

– كل يا شانى. لا تظل تتحدث بالسياسية إلى الأبد. لا تفهم فيها. هكذا الحزب ... كذلك الحزب ... أوجعتنا رأسنا. سنرى أين سيكون الحزب الآن.

ورفعت عينيها الزرقاوين إلى وجه شرش.

– لا يعلم حتى الشيطان ماذا فعلت ... حك شرش ذقنه التى بزغ شعرها:

– لا أدرى كيف أرد عليك الآن يا ماريا ، قال ببطء معتاد– كنت أعتقد يوماً أن هؤلاء الناس سيكونون مختلفين عمن سبقوهم. وهذا ما كنا نسمعه ونؤكده فى محاضراتنا. لكن ... يبدو أنه لحق بالإنسانية

ضلال كبير. أنا مارست حياتى دون أنانية ، لم أنحرف كغيرى – مع احترامى للاستثناء – الذين ارتقوا مناصب الحزب لمنافعهم الشخصية. أنا مازلت حتى الآن ذلك العامل فى وزارة الخارجية الذى لا يلقى تقدير نظراً لمرتبته المتواضعة. بينما بوريش خادمة تنظيفات ، لست غرف ، وممر بطول أربعين متراً ، ومغاسل. وكما ترين يا عزيزتى ماريا علينا أن نخاف مثل الآخرين. كل سكان العمارة يرمقوننا بنظرات موارية ، كما يرمقون مجموعة من اللصوص.

قالت بوريش وهى تداعب الخاتم فى إصبعها:

– دعهم يثرثرون ، فهم يعرفوننا تمام المعرفة.

يانى هز رأسه:

– وحوش ، دائمًا يشهرون البنادق ، والمسدسات. مرة هنا. مرة هناك. يتسلقون أسطحة المنازل ويطلقون الرصاص لا أعرف من يكونون. الإنسان ينخبل!

أجابت بوريش:

– نعم. يزأرون ... صباحًا وعاء الحليب من يد امرأة.

رتب شرش شاندور من وضع ربطة العنق وقال:

– ما يحدث ، مشكلة كبرى ... على رفاقنا أن يروا هذا.... إنه سوء طالع.... وعلى رفاقنا بحس عالٍ بالمسئولية ، أن يروه.

نظر

إليه ياني، فتبسم.

– انزل إلى الشارع ، واجلس على عمود كهرباء، تشع منك رائحة جيفة.

شحبت ماريا بيك، رفعت قبضتها النحيلة صارخة:

– بدأت تنبح؟ أنت حيوان، أنت ثعلب مخبول، تنبح ثانيةً؟

ضحك ياني وصرخ:

– أنبح! لماذا؟ أليس الأمر كذلك؟ لقد أهملوه وعليه أن يجلس على عمود كهرباء ويتخوزق، لقد تخلوا عنه، وإذا فطس سيفطس من حظه السيئ.

أغلقت هانيلكا أذنيها قائلة بتوسل:

– ياني، أنه الأمر يا ياني! حفظك الله.

ما في هذا الإنسان يكفيه، ينقصه أنت وتهريجك؟ دائمًا سيركك أنت!

أخفض رأسه على الطاولة، وبدأ يبكي، أغلق هابتلر العجوز باب المطبخ، سوى وضع الستارة الكرتونية، وبابتسامة خجلى اعتذر من الزوجين، ثم قدم لهما القريش وجلب دمجانة من الغرفة وصب كأسين من النبيذ البروغتي، ورفع نخبهما ونخب الجميع متمنيًا الصحة والسعادة وطول العمر، لضيفيه الجميلين ولعائلة هابتلر.

حوالى الساعة التاسعة دخل شابات بيلا وجلس على صندوق فى المطبخ. اشتعلت عيناه من البالينكا.

ضرب أسداسًا بأسباع. وحكى أنه أمام مقر الحزب، وفى ساحة الجمهورية يحفرون فى الأرض بحثًا عن قبو للاعتقال، حيث يعانى دون ذنب أكثر من ألف معتقل. قدم هابتلر له النبيذ واجهر أنه لا يثق بنتيجة التنقيب، حتى إنه يعتبر التنقيب حيونة وغباء لأنهم لم يبنوا معتقلاً فى البقعة المذكورة وعلل ذلك هكذا:

– على أن أقول بكامل الصدق، إننى لم أغرم بالسياسة أبدًا، لذا فأنا لا أزعم أننى أفهم فيها. ما عنانى، وأخذ كل اهتمامى مصير عائلتى الغالية وسعادتها فقط ، من أجلها عملت. وبذلت كل طاقتى وجهدى ، لكننى رغم ذلك، أستطيع أن أتصور أن بناء ضخمًا كهذا، يتسع لألف شخص، لابد أنه يكلف كثيراً من المال يستحيل على الـ (Avh) صرفه، فى حين تحت حوزتهم ما يكفى من السجون. رفع شابان بيلا كتفيه. وقال:

– المال لا يهم. من يدفعونه ليس الشيوعيون مرتزقة المجلس التشريعى المسافرون إلى الخارج، وليس فروع الـ aAV المجرمون، بل الشعب العامل. خذ مثلاً السكة الحديدية التى أنشئت تحت الأرض. ما فائدتها ؟ ومع ذلك أنشأوها.

أشعل سيجارة. وأشار إلى نبأ مهم. بعد ثلاثة أيام سيصل مبعوثو الأمم المتحدة ويحررون الشعب المجرى ، من نير الاستعمار الروسى. صدر قرار عالمى بهذا الشأن.

– الأمم المتحدة؟ – استغرب هابتلر العجوز .

– أجل – أجاب عامل الدها

– سيدخلون نظام الأحزاب الثمانية ، أو البيت العلوى - السفلى. النظام الملكى.

تبسم. وسأل:

– وأنت يا رفيق شرش. ما رأيك؟ ماذا تلقنك الكتب الحمراء بهذا الخصوص؟ صمت شرش. جلس على الصوفة كمن ابتلع عصا .

– علمونى فى المحاضرات – قال ببطء

– إذا ما ارتكب أحد ما شيئًا معاديًا للنظام القائم، سوف يحصل على جزائه المناسب.

وأضيف أنه لم يكن بالإمكان اختباره فى مدة قصيرة ، إن المجتمع الرأسمالى استطاع أن يحافظ على نفسه أكثر، وهذه إجابتى على سؤالك الساذج ، مج الدهان من سيكارته. وأطبق عينيه:

– وبعد ثلاثة أيام؟ هل سيكون هنا فى المجر المظليون مظليو الثياب الزرقاء؟ وآخرون؟ ما موقفك عندها؟ رمقه شرش شاندور وقال بامتقاع:

– أنت بالذات ، لن أجيبك. لأنك متسكع. أنا ألفظك. سأخبر زوجتى التى ترتعد من رؤية وجهك كما ترتعد من المتظاهرين الصارخين فى الشوارع، والتى صارت فى حالة نفسية هى من السوء بحيث يصعب علىَّ تهدئتها، لأنها ترى بأم عينها ما يجرى من أحداث. وأما أنا الذى درست حتى الصف الرابع الابتدائى كيف سأدعى بذكاء أننى متفائل.

صب نبيذاً فيَ الكأس. اجترعه ثم قال بهدوء: في عام واحد وأربعين حين اجتاح الألمان الاتحاد السوفييتي سألني أحد أقاربي وكان فتي صغيراً: من الذي سوف يربح الحرب ؟ الألمان أم الإنكليز أم الأمريكيون ؟ كان جوابي أن السوفييت سيأتون إلى هنا. فارتعد مما يسمع، لأن المعلم أخافهم من الروس. فقلت لا تصدق المعلم لأن كلامه غير صحيح. ونحن لن نظل عبيداً للأسياد، لكننا سنعمل من أجل أنفسنا وسنكون بشراً. فسألني هل صحيح ما تقول ؟ فأجبته:

سيأتي يوم وتقول لي عندما تراني أمامك:

الحق معك وهذا ما حدث فعلاً. قال : الحق معك يا أبتي. كم أنت متفائل. وكم أنا فخور بك. قلت له: إن القدر دلني على جهة انتمائي. فإما أن نظل عبيداً للأسياد وإما نحن الذين بيدنا السيطرة، لنخلق سعادة الشعب الفقير. وعندها كان من أوائل المنتسبين إلى الحزب الشيوعي. وعلى إثر ذلك تقدم للعمل في سلك الشرطة، حيث سئل عن دافعه لممارسة هذا العمل، فذكرني وأشار إلى أنني كنت نصيره ودافعه إلى الانتماء. وهكذا صار من عناصر (AVH) وهكذا مات قبل أيام.

لم يتفوه أحد. ملأ هابتلر الكئوس واستمروا في الشرب. بدأ تأثير النبيذ في رأس شرش ، فقال إنه دائخ ، وأن عليه أن يضحك. فنصحته ماريا بيك أن ينام وستفرش له على الصوفة مع زوجته. لكنه أبى مجهراً أن له منزله الخاص. وعلى كل حال إنه يريد أن يطمئن عائلة هابتلر بأن لا يخافوا.

فليس من قوة على وجه البسيطة يمكن لها أن تقف في وجه سعادتهم لأن قضية الاشتراكية قضية صحيحة وصالحة حتى النهاية.

مسحت بوريش قطرات العرق عن وجهها الأبيض، وبعدها رافقهما يانى موصلاً "شرش" إلى البيت. سمعت ضحكاته العالية في الممر، وراح يغني: "أوو، أنت الجميل والرائع". وكان الجيران واقفين على عتبات الأبواب يبتسمون. عصر اليوم التالي وصل هيرش أشتفان. اغتسل، وطهت له الطعام، أعطته قميصًا نظيفًا. نام ساعة. ثم في المطبخ، بسحنة جادة، وبابتسامة ناعمة هازئة زمق يانى وجه صهره. اقترب منه وسحب من عروة قميصه الشعار بالألوان الوطنية.

– نهرّج يا هيرش أشتفان – سأله

– على أساس أنك عضو في الحزب ! لم لا توقع الآن على الاستمرار ؟ ليس الآن تجارة رابحة ؟

صرخت ماريا بيك أن يغلق فمه فلا علاقة له بهذا. خرج هيرش أشتفان، وابتعد وما زالا يتلاسنان بصوت مرتفع.

بعد الظهر خرجت هانيلكا إلى "راكوش فلفا". اصطحبها والدها إلى المحطة الشرقية، قبلها، وقبلته ثم رجع ماشيًا تحت زخ المطر، فوصل إلى البيت مبللاً تمامًا. في المطبخ عانق ابنه وانفجر يبكي.

– لم تبكي يا أبي ؟ – سأله.

– لأن الحرب قامت.

العجوز سخنت له ماءً ، فاستحم. وما إن اندس فى السرير حتى وصل ميلكوت سوها قادمًا من الريف فى سيارة باعتباره الفنى لدى مكتب المساحة. أطالوا عناق بعضهم ، وفيما بعد سألته هانيلكا ما نهاية كل هذا ؟ اعتدل ميلكوت سوها فى السرير باحثًا عن سيجارة.

– ادخل فى الحزب الشيوعى. ربما تتحسن حياتنا لأن الحياة هنا لن تتغير أبدًا. وإذا تغيرت ، أنا وأمى سوف نوافقك ...

لم تكن هانيلكا ترى وجهه فى الظلمة.

وذات عصر تشرينى بشع ، تعصف فيه الرياح ، أطلق الرصاص على هيرش أشتفان. ليس بعيدًا عن جسر "لانتس" (جسر السلاسل).

وكان يحاول نقل مناشير إلى بودا فى كيس على ظهره. مزق الرصاص كفه. ركض قرابة مائتين متر فأوقفه الناس أمام حانوت. استدعوا الإسعاف ونقل إلى مشفى "سيكلا".

بعد أيام زارته غيزيكا. وفى الغرفة الطويلة المكتظة بالمرضى والزائرين أشعلت الأنوار وبحثت عن رأسه. جلست على طرف السرير. وظلا صامتين. فيما بعد أطبق هيرش جفنيه وقال إن حرارته مرتفعة وعليه أن ينام.

فلتذهب هى إلى البيت. ولعل غيزيكا لم تسمعه فقد ظلت على جلستها ترمقه وتداعب شعره الكث، الأشيب.

حتى دخلت المرأة ذات المعطف الأحمر ساحبة معها عطر الخزامى حتى السرير. فحملقت فيها غيزيكا وحملق هيرش اشتفان في زوجته بكراهية حتى خرجت من الباب.

بعد أسابيع زارت كل من أستر وهانيلكا الجريح حاملتين له الكاتو، والليمون والدخان لكنهما لم تجلسا للتحدث معه لأنه محموم، كما قال ، ويريد أن ينام.

أخرج من المشفى في نهاية شباط "فبراير"، ذهب من أجله هابتلر الأب ، حين التقيا في الممشى المنار توقف هيرش أشتفان وألقى التحية بشيء من حرج ثم مدت المرأة ذات المعطف الأحمر يدها إلى ذراعه وأخذته.

فيما بعد تواصلوا. وكانت غيزيكا، في كل لقاء، تحمل له الطعام، والدخان في صينية، لكنها لم تلتق المرأة ذات المعطف الأحمر مطلقاً.

عملت هانيلكا محاسبة على صندوق في متجر "آتكسن". كان مدير المتجر شخصًا ماهراً طويل القامة، محبوباً من الجميع. وكان يزوره رهط متنوع من الأصدقاء، خياطون وسيمون، ممثلون مساعدون حزينون، ملاكم رفيع الصوت، شخص آخر ضخم يجر كلبًا ذئبًا، وأشكال غريبة أخرى. يطلبون القهوة السوداء من المقهى المجاور، ويتحدثون، وكم أثنوا على جمال المرأة المحاسبة. كانت هانيلكا مبتهجة، دائمة الشعور بالاعتزاز بالنفس، وكانت تضحك لأتفه غباوة عابرة.

فى بداية الصيف جاءهم مراقب جديد. شاب شديد الشقرة مفتول العضلات فى العشرين من العمر ، قدم إلى المتجر من قسم الشرطة. هادنته هانيلكا منذ اليوم الأول. كان المراقب دائم المكوث عند صندوق المحاسبة. روى أنه مصارع ، وأنه يقرأ قصص الرعب والتشويق واستعرض أمامها علبة السجائر الفضية الجديدة.

تورطت عدة مرات وهزأت منه ، فصارت ترجوه أن يقلل من حديثه الغبى. لكنها سألته عن كل ما يدور بذهنها حول علم نفس الجريمة.

بعد الإغلاق أخذت عشرين كيلو من الكرز إلى البيت. والمراقب هو الذى حمل الحقيبتين. سارا فى شوارع ثانوية وفى أحدها وضع الشاب الحقيبتين وتعانقا.

فى الخريف تعرفت على الراقص فى الفرقة الشعبية الحكومية. كان وسيماً ، طويلاً ، أسود الشعر ، رافق هانيلكا ، مرات عدة ، إلى موقف القطار الداخلي. وحدثها عن رحلاته الخارجية وسعادته الفائقة بأن يرقص. فى منتصف تشرين الثانى "نوفمبر" جلسا فى محل الحلويات فى الشارع الدائرى. مضى الوقت سريعًا فأبدت هانيلكا حركة مرتعدة وقد صارت الساعة الحادية عشرة.

زارها الراقص:

- الآن ستحدث مشكلة ؟

هزت هانيلكا كتفيها.

– زوجي في الريف. حدث قبل ذلك وبقيت حتى الليل عند أختي الكبرى.

رقصا حتى منتصف الليل في "بيباتش". وبعد ذلك استقلا التاكسي إلى بودا القديمة ، ونزلا أمام بيت أرضي قديم. بعد رنين متواصل طويل سمح لهما ناطور العمارة بالدخول. انفتح البيت عن فناء تلحق به حديقة. خلع معطفه في الغرفة الأولية. عبر الرجل غرفة مظلمة إلى أخرى حيث أضاء مصباح كلوب أزرق. كانت الغرفة صغيرة ، وفي وسطها عند الجدارين المتعامدين صوفتان ، وطاولة نصفية خلت من أي شيء عليها. وإلى جانبها كنبة صغيرة.

جلست هانيلكا على الصوفة بطقمها الأسود. خلع الرجل سترته ، وربطة عنقه ، وجلس إلى جانبها بكنزة دون كم. ولفته. ثم بدأت المرأة تخلع معطفها ، وقد تغير لون وجهها ، وعيناها ، واعتراها إحساس بالانقباض بدا مرتسماً حول شفتيها. دفعته هانيلكا عنها وانتصبت في جلستها:

– لم أتيت إلى هنا ؟ سأل الراقص. وضحك.

في الصباح ، وقفت هانيلكا في الشارع المرصوف بالحجارة وسألت امرأة معصوبة الرأس كيف يمكن بلوغ المدينة؟

فى منتصف الشتاء ، تلفتت أستر فى حالة من القنوط والغضب لأختها الصغرى لتقول لها إن زنتاى يرجع إلى البيت فى حالة سكر دائم. أجابتها هانيلكا مظهرة غضبها منها:

– نعم، تستحقين. هذا لأنك لا تعرفين كيف تتعاملين معه. لو شرب زوجى قدحاً واحداً من النبيذ أعمل له فضيحة. وأقطع أنفاسه.

صرخت أستر:

– إنك تعطينه الحق دائماً. أنا أعرف كيف أتعامل معه. هل أتركه على هواه ليظل مخموراً ليل نهار.

وخبطت المهتاف.

بعد أيام هتفت *لها* هانيلكا لتستفسر عن سلوك زنتاى. فأجابت أستر أن سلوكه جيد.

– تصورى. هذا المجنون انضبط بكنزتين. كما ترين إذا كان مستقيماً أنا كذلك مستقيمة معه.

بعد عشرة أيام حطمت مظلتها على رأس زنتاى جورج. فانكشطت عنه رقعة شعرية. رد لها زنتاى بلكمة على وجهها فانخلعت الضحكة من أسنانها.

نظرت هانيلكا ، كالملسوعة ، إلى أختها الكبرى فى مقهى الشباب.

– يا إلهى ! وهل رأى الولد هذا ؟ هل فقدتما العقل ؟

بكت أستر:

– لم أعد أحتمله. لم أعد أحتمل رؤية صورته المقرفة حين يكون سكران.

عصر كل يومي أحد ، أخذا إلى شارع "ناج فورفاش" حيث بيت أهلها. وهناك بثت أستر شكواها لماريا بيك التى راحت تغلى غضباً.

– ألاحظ عليه حين يعود من الريف. يجترع الكحول كالماء.

قاطعتها غيزيكا:

– هذا غير مناسب. كلكم تتهجمون عليه. بينما عليكم أن تروا الوجه الآخر للمسألة ، أستر تتحمل جزءاً من المسئولية ، وهى مخطئة كثيراً. نكدية ، عنيفة ، جارحة ، هذه الإنسانة ليس لها وجه حق. لا تعرف السكينة. تبسم يانى قائلاً بسخرية:

– تأخذ دور محامي الدفاع ، الذى لا يهزم.

وأشار برأسه نحو غيزيكا ثم زأر:

– أنت بقرة. وصلتنى أخباره. إنه سكير ، دوماً. أتدرين ماذا يفعل فى الريف ؟

إنهم يراقصون النساء فوق الطاولات.

– أما أنت فأغلق فمك صاحت – ماريا بيك

– لماذا ؟ لأنه لم يقدم حتى لقمة واحدة لزوجته الحامل !

قال هايتلر العجوز:

– ضمن عائلتي لا مكان لمثل هذا السلوك الشاذ. فيما بعد سأتحدث معه.

صاحت ماريا بيك:

– أما أنت فلا تتحدث مع أحد. ما الذى تريد قوله ؟

ألست أنا منتمية إليك. هذه قضيتنا معًا.

التفتت غيزيكا إلى أختها الصغرى:

– أما أنت فمجنونة. هل تأتين إلى البيت لتناقشى مثل هذه الأمور ؟

فسألتها ماريا بيك:

– ماذا تقولين ؟ إلى أين ستذهب إذن وتبث شكواها؟

– إلى أى مكان غير هنا. ينتقون ذلك الإنسان المنحوس ، ويقدمون ، فى ثورة غضبهم أسوأ النصائح.

رفعت ماريا بيك كفها النحيلة:

– اسكتى. أو انقلعى.

لملمت أشياءها ووضعت على الصغيرة "آغوثا" المعطف وقالت باكية:

- كنت أنا المخطئة دائمًا. لا أحد يقف إلى جانبي ويعطيني الحق. في هذا البيت أنا المخطئة دائمًا. سأنصرف. سأنصرف ولن أعود ثانية أبدًا.

أسرعت ماريا بيك وأغلقت باب المطبخ.

- تذهبين إلى الجحيم. تعرفين. إلى الجحيم. ثم فرشوا طاولة كبير الأساقفة العميد تاوينغر وجلسوا إلى "الملفوف المحشي". ضحكوا، مرحوا، أثاروا ياني وشجعوه على الزواج. كان ياني يحمر خجلاً.

- ضاقت بنا الطاولة - قال بارتباك

- ألم نتشاجر كفاية ؟

ضحكت ماريا بيك :

- الشجار عندنا لا يعني زعلاً وغضبًا. أما زوجتك فسنوسع لها مكانًا بيننا. سكت.

- بودي لو يطول عمري وأحضر زواجك، رفع هابتلر العجوز كأسه:

- أنا لا أحبذ النبيذ. ويمكنني القول إنني خلال مراحل حياتي كلها لم أشرب أكثر مما شربته أمكم خلال أسبوع. لكنني الآن أرفع كأسي نخب زوجتي الطيبة والغالية، ونخب أولادي. نخب عائلتي الغالية. المتيم بحبها.

فسألتها ماريا بيك:

– والأرملة الجميلة ! أتنساها ؟

قبلها هابتلر. وضحك

– دعيها في سلام. يشتد عليها وجع المعدة.

ضحك أفراد العائلة، لأن الأرملة آنا كوفتش قد دارت من عيادة إلى عيادة، مرة تشكو من قلبها ومرة تشكو من معدتها، وقد أخبر الأطباء أبناءها جميعًا بأنها سليمة ومعافاة وصحتها جيدة.

اشترى زنتاى جورج لأستر قماشة معطف شتوى، وباقة زهر كبيرة. والتحق بدافع ذاتى لعلاج التسمم الكحولى، واحتفيا بالمصالحة السعيدة فى مطعم كورفنى وقد وجها الدعوة لكل من العجوز زنتاى، وميلكوت سوها، وهانيلكا ، ورغبة من ماريا، يانى أيضًا طلب العجوز زنتاى للرهط الكريم، العشاء، والنبيذ. وفيما بعد الكونياك.

– بصحة أمكم، من أجل سعادتها وعمرها الطويل بيننا. أنا لا أعرف كيف أرد جميل ما بذلته لأجلى أيام الغربة.

سكِرَ يانى سريعًا، تبسم وقال إنه دائخ ، وعندما حاولوا مرافقته إلى البيت لم يسمح لهم. فيما بعد قبَّل أختيه الصغيرتين، وصافح الرجال ومضى.

عند ناصية شارع فوفاروش التقى يولى تشالا.

– ما خطبك ؟ – سألته تشالا يولي.

– سكِرت.

ضحك واستند على عمود الكهرباء وكان الثلج يندف غزيراً.

– هل أغضبك أمر ما ؟ سألتِ المرأة.

– لا سبب لذلك – أجاب وأطبق رموش عينيه – هل تؤمنين بالأحلام ؟ حلمت بمياه غزيرة. وهذا حسب معرفتي تذير سوء، موت، أو مشاجرة عنيفة. تقول أمي إن الحلم يقول الحقيقة. لم أخبرها حتى الآن.

رفعت يولي كتفيها.

– أنا لا أؤمن بهذا. يمكن أن تتذكر أن رأي العم رايش من رأيي.

فكر ياني طويلاً.

– أنتِ عاهرة – قالها دون غضب

– لصة. تلطخت روحك في المبصقة.

سحبت تشالا يولي قفازيها وأشعلت سيجارة.

– وروحك أنت ؟ – سألته.

صمت ياني لحظة.

– تخلعين ثيابك لأي كان ... تكذبين، وتسرقين وتختلسين.

هزت رأسها.

- أنام معك أيضًا وإذا شئت أدفع لك من أجل ذلك. الآن أملك نقودًا كافية. كم أمقت الليالي وحيدة. تعال سأرتدي ثوبي الشفاف من الحرير الصيني. إنه يبعث على العجب. تنينات ملونة، سوداء، وصفراء، وخضراء، تقتتل ... مخلوقات مقيتة لكنني اعتدت عليها منذ زمن فلا أخافها.

حملق فيها ياني.

- حيوانة - قالها بهدوء.

ابتسمت يولى تشالا.

- طبعًا. أنا مجرد امرأة تافهة. بينما أصولي فاخرة. تشتري بالذهب. لن تفيدك السخرية. صدق أو لا تصدق كان يمكن أن أكون طبيبة أو قاضيًا ، أو مستشارة قانونية ، لم لا؟ ... ذلك المجنون شرش يقسم على ذلك ... تصور أن سكان المبنى يستغربون أنني أذهب إلى الأوبرا ... قسمًا كم أتمنى أن يكون زوجي لطيفًا ، وذكيا ، إذا ما شقّ على الفهم في أمر ما : أسأله فيجيبني ... ياني ... كم يخفى على المرء من أمور ... صحيح أم لا؟

انتظرت كي يتفوه الرجل بشيء. لكنه ظل مشغولاً بسقوط الثلج. عندئذ ضحكت:

بم م م. وما هو واقع حالى الآن؟ لم أحصل على وثيقة الثانوية. ولا أرتاد الأوبرا. أعبد البالينكا ، والنقود ، والرجال. وهذا أيضًا جيد. صدق أو لا تصدق. أن أحدهم اعترف بأن عينى عينا فتاة صغيرة. ظننت أننى سألتهمه. لكننى حملقت فيه وبكيت. قلت له حالاً إننى أحبه. هذه تفاهة. لا يمكن للمرء أن يحب أيا كان. لكن هذه الكذبة لازمة معهم. لازمة لأننى خبرتهم فى أنها تجعلهم من الصعب أن يتخلفوا ... طبعًا هذا شيء فاسد فى النتيجة وعليك أن تكون أكثر ذكاءً.

دلفا إلى الحانة. اجترعا البالينكا حتى إغلاقها. ساعدته يولى على الدرجات ولم يرغب أن يحدث فى المطبخ المظلم ، ضجيجًا. جلس على الحجر. خلع حذاءه حتى أتت ، فيما بعد ، ماريا بيك ، وأشعلت الأنوار. استلقى على ظهره. وبعينين مفتوحتين راح يغمغم : فى عيد الميلاد أطلق سراح هيرش أشتفان فتوجه حالاً إلى بيت هابتلر. قبل يدى ماريا بيك ، وشكر طبيب العائلة كلها. واستقبل بكثير من الود والحفاوة. ووضعت تحت شجرة الميلاد ثلاثة مناديل ودزينة سجائر لأجله أيضًا. ومثل ذلك كافة الرجال. وبعد العشاء جذبته غيزيكا إلى الركن وقالت:

– فى محنتك وقفت إلى جانبك. أنت الآن حر ، ويمكن لك أن تعمل. ومن الآن فصاعداً لا تلزم لى.

سوى هيرش إشفان ربطة عنقه السوداء وخرج. حملق الجميع فى المرآة. تقدمت منها هانيلكا وسألتها:

- ما الذى حدث ؟

روت لها غيزيكا كل ما جرى بصراحة ، فدمعت عيناها.

- ما كان مناسباً الآن ما فعلته يا غيزيكا. فهو الآن خارج لتوه من المعتقل. إلى أين ، وإلى من يلجأ ؟

أستر أيضاً حل عليها البكاء. فسألها العجوز هابتلر قلقاً:

- هل فكرت بذلك جيداً يا ابنتى؟

فأجابت غيزيكا بهدوء وحزم :

- فكرت، وأعرف ماذا أفعل. عندما اكتشفتم حماقاته ، أردتم جميعاً ، عودتى إلى البيت. فقلت لكم لم يفض الكأس بعد. انتظرت ووقفت صابرة إلى جانبه. لم يكن بوسعى أبداً الحصول على منزل لوحدى. صار الآن لا يحتاج إلىّ. ونحن أيضاً لسنا فى حاجة إليه.

ثم انتقلوا إلى حديث آخر

فى ليلة رأس السنة فاجأهم هابتلر الابن وأحضر معه ضيفاً مجهولاً. فكانت بهجة الجميع استثنائية لا نظير لها من قبل فى حياة الأسرة. كان اسمها "بيروشكل تسيرا" وهى فتاة شقراء، هيفاء ذات قوام نحيل، تعمل معه فى الورشة. قام العجوز هابتلر حالاً وساعدها فى خلع المعطف ، وقادها إلى جانب المدفأة :

– تفضلي اجلسي هنا وتدفئي في بيتنا الصغير المتواضع.

قدمت لها الفتيات الطعام والمشروب ورمقتها ماريا بيك بعينيها الزرقاوين ، ورشقتها ببعض الكلمات على سبيل المجاملة.

والتقط زنتاي جورج صوراً فوتوغرافية ضمت بيروشكا أيضاً إلى العائلة ، وقد ارتسمت على فمها ابتسامة خجلى إلى جانب ياني. وبعد منتصف الليل ، جمع ياني الأولاد الصغار ووزع عليهم المعاطف ، والقبعات.

– لا تترك يد الولد لكي لا يفلت إلى الشارع ، فتكتمل الكارثة ـ قالت أستر بتوتر :

– هل تظنينني مخبولاً ؟ – قال ياني.

– ولم تتذاك. لا تعرف كيف تسهو عنه للحظة ، فيصدمه شيء ما.

فصرخ ياني :

– إذن لن آخذه. سأتركه هنا.

تقدمت ماريا بيك وصاحت:

– تضجان من جديد. طبعاً لن يفلت يده. انقلعا من أمامي.

بعد ساعة أرجعهم إلى البيت ، بالمزمارات والبالونات والقبعات الورقية. فكانت جلبة جهنمية. شيئاً فشيئاً صار صمت ميكلوش سوها

يثير أعصاب هانيلكا. فكان انشغاله بحل الكلمات المتقاطعة والمعادلات الرياضية مجال تسليته الوحيد ، ثم بعد العشاء يعانق زوجته دون التفوه بكلمة ، ويغفو عميقًا. في شباط "فبراير" حصلا على عطلتهما. زارهما ياني ودهن البيت ، بينما قامت هانيلكا بالتنظيفات والغسيل ، وكيّ الثياب ، واندست مساء في السرير وسلمت جسدها المتعب للعناق. مضى الأسبوعان بطيئين ، وكانت سعيدة لأنها أخيرًا بدأت تعمل.

عصر يوم ماطر صادفت في الشارع عازف السكسوفون "أرفين". تبادلا ، من شدة ابتهاجهما ، قبلاً على الخدود. وجلسا في مقهى الشباب ، يتبادلان الأحاديث.

روى الشاب فخورًا ، بأنه شكل فرقته الصغيرة الخاصة ، وأنهم الآن رجعوا من بلغاريا ، إثر عقد مجزٍ هناك. وأنهم قاموا بعرض حفلاتهم على شاطئ البحر بدخل وفير. وحكت هانيلكا أن لها بنتًا صغيرة رائعة وأنها تعمل محاسبة وراء صندوق في متجر "آتكس". وأن زوجها غالبًا ما يسافر إلى الريف ويقوم بجولات تقنية على حساب مكتب المساحة.

– يموت في الرياضيات – ضحكت.

ثم استرجعا الذكريات الماضية. فتبسمت هانيلكا وسألته:

– هل مازلت تعزف مقطوعة النجم ؟ .

قبل الشاب يدها قائلاً.

- تعالى معى. سأحكى ....

والتقيا ، مرتين أو ثلاثًا فى الأسبوع.

مرضت ماريا بيك. كانت تتنفس بصعوبة. تكاد تختنق وتسعل سعالاً جافا مريرًا يخرج من الأعماق. كانت تنجز أعمال البيت ، ولكنها لم تتحرك خارجه خطوة واحدة. كان العجوز هابتلر يتبضع من سوق ساحة "تلكى" ويانى يمسح أرضية البيت والمجلى ؛ ويلمع النوافذ حتى إنه كان ينجز أعمال الغسيل الصغيرة.

تراجعت أحوال العجوز هابتلر أيضًا ، فصار شيئًا فشيئًا يقطع الدرجات صعودًا ونزولاً بخطوات بطيئة. ويتوقف أحيانًا فى صعوده عليها دقائق بطولها. ويشد بيده على صدره من جهة القلب.

عاينه طبيب الحىّ وحذّره من إجهاد نفسه. ووصف له أنواعًا مختلفة من الأدوية. فصار العجوز هابتلر يتناولها بدقة وعناية. فى موسم تفتح الأكاسيا سافرت ماريا بيك لترتاح فى بوغتش. كان الوالدان المربيان قد قضيا ، وقطنت البيت القديم الفتاة الكبرى مع زوجها. فنزلت عندهما. كان العجوز هابتلر يزورها كل سبت. حاملاً الخبز واللحم والكارفيول والفليفلة الخضراء. الأمر الذى أغضب ماريا بيك.

- ولم تعتل الفليفلة الخضراء إلى هنا أيها العجوز ؟

– انظرى ما أجملها. انتقيتها قطعة قطعة كانت ماريا بيك تنسج التنانير والسراويل للفلاحات ، وتزركشها بخيوط من مختلف الألوان ، فتحصل مقابل ذلك على الدجاج والبيض ، واللبن ، والقريش ، فتقسمها بالتساوى وترسلها مساء الأحد إلى الأولاد. وبعد ظهر الإثنين يقوم العجوز هابتلر بتوزيع الطرود لكل منهم.

فى منتصف الصيف ساءت حالة العجوز وهو فى القطار ، فشحب وجهه واغتسل بالعرق. وعند نزوله فى محطة أكاتس العليا شعر بألم حاد اعتصر قلبه. مشى بعض الخطوات ثم جلس يرتاح على طرف الخندق. ولم ينزل الكيس عن ظهره. لم تتقلص حدة الألم.

– لعلنى أحتمل حتى البيت – فكر جزعًا .

تحامل على نفسه. وانطلق بخطوات متباطئة. رأته ماريا بيك من مدخل الجنينة فأسرعت إليه.

– يا مسيح ! ماذا جرى لك ؟

– قلبى – وأنزل الكيس مبتسماً

– لكنى فى حال أفضل الآن.

ساءت حاله فى المساء. وجد صعوبة فى التنفس. التوى رأسه وغاب عن الوعى. وقفت ماريا بيك جانب السرير وحيدة فى القرية البعيدة الخرساء.

رجع الأقارب صباحاً من حفل الزفاف فباغتهم الخبر ، أحضروا سيارة أقلته على فراش من القش ، مسافة عشر كيلو مترات فوق الرمال الصفراء. حتى محطة أكاتس العليا .

استدعى الطبيب من الكنيسة. أسعفه بحقنة وتلفن للإسعاف. وخلال وقت قصير كان برفقة ماريا بيك فى مشفى أشتفان فى بودابست.

هتف شابات بيلا لأستر. ورجاها أن تخبر أخواتها. جلست ماريا بيك في المطبخ ، ما كان المنديل فوق رأسها ما يزال مغبرا. وكانت ترنو فى هدوء قلق من خلال ستارة الباب إلى أشعة الشمس الساطعة. ذهب ثلاثة منهم إلى المشفى.

نام هابتلر يانوش العجوز بلا وسادة. أفقيا ، دون أن يبدى حركة. وجه شمعى شاحب يتقطر عرقًا. فمه فاغر ، صدره يخفق، يلتقط الهواء بصعوبة. تحلقوا حول سريره ، نادوه فلم يعرفهم. أطلقت أستر بكاءها الهستيرى. جذبتها هانيلكا إلى الممشى، هزتها:

– اضبطى نفسك. أو انصرفى من هنا وضعت مائتى فورنت فى الظرف. ثم بحثت عن طبيب القسم وناولته إياه. عدل الطبيب نظارتيه. وبلهجة صادقة ، مليئة بحس التضامن قال:

– للأسف. لا يمكننى أن أخبركم بشىء موثوق لكن الغريب في الأمر أن حالته احتملت أن يصل إلى هنا سالمًا.

سالت دموع هانيلكا.

– هل سيكون السيد رئيس الأطباء إلى جانبه في المساء؟

– الطبيب المناوب. لكني سأكون هنا منذ الفجر. لا تدعي أباك وحيداً.

بعد حين وصل ياني وغيزيكا وزنتاي جورج وبيروشكا. بكى ياني. أخرج من جيبه خمسمائة فورنت وقال لهانيلكا:

– تدبري الأمر. وزعي على الجميع. وغداً أعطيك أيضاً .

أعطت هانيلكا مائتين للطبيب المناوب وعشرين فورنتا لكل ممرضة جاءت إلى غرفة المريض. ظلوا في المشي حتى الساعة العاشرة ليلاً ، تتناهى إلى سماعهم الحشرجات الأليمة. وفي النهاية وبعد إلحاح من الجميع أوصلوا ماريا بيك إلى البيت.

في صباح اليوم التالي ترافقت هانيلكا وأستر إلى المشفى. أجلسهما طبيب القسم وشرح لهما مطولاً وبالتفصيل حالة أبيهما.

– إنه في خطر– قال بصراحة

– لا أستطيع أن أطمئنكما.

عندئذ بكتا. وأسرعتا إلى شارع ناج فوفاروش. كانت ماريا بيك جالسة على الصوفة. قبلتاها. تبسمت هانيلكا:

– الحمد لله. تجاوز الخطر هذه الليلة. وقد لا تتأزم حالته. هذا ما قاله الطبيب أيضاً ...

رنت إليها ماريا بيك دون أن تبدي حركة ، ثم ما لبثت أن انفجرت بالبكاء.

عصراً عادت هانيلكا وأستر إلى المشفى عرفهما هابتلر يانوش العجوز. فقال بصوت خافت:

ابنتيّ. ابنتيّ!

وأخذته نوبة بكاء حادة.

انحنت هانيلكا إليه وقالت دامعة:

– لا يجوز أن تبكي يا أبتاه. ممنوع الكلام. والحراك والبكاء. عليك أن ترتاح وستعود إلى البيت بسرعة. نحن جميعًا سنزورك ، ونطعمك يا أبي. وعبر أسابيع أطعمتا أباهما. كان يغلبه الوهن ، حتى لا يكاد يقوى على بلع ملعقة حساء الدجاج ، من يد هانيلكا لولا إلحاحها الشديد. وكان لا يمكن الانتفاع من أستر لأن يدها ترتجف ، فظلت تدور حول السرير ولم يفتها أن تلاسنت مع أبيها كلما لامست أصابع قدميه.

انتظرهم عازف السكسوفون في ساحة "ناج فارد" أوصل النساء إلى شارع فوفاروش. وفي أيام السماح بزيارة المرضى كانت العائلة دائمًا في المشفى. وفي أيام الآحاد لم ينقطع كل من العجوز زنتاي وميلكوت سوها وشرش شاندور وبوريش والجيران ، عن زيارته. وكان هيرش أشتفان يحضر دائمًا حلويات الكستناء ، ويقبِّل العجوز ثم يخرج إلى المشى. يدخن ويتحدث مع الرجال. ومنذ أن انتقلت تشالا يولي من البيت ، واشترت منزلاً خاصا ، أشيع أنه يعيش عندها ، لكن لم يوجه إليه أي سؤال بهذا الخصوص. ساءت صحة ماريا بيك. وصاروا

ينقلونها بالمصعد إلى غرفة مرض زوجها. وإذا كان المصعد عاطلاً ، ولم يجدوا حلا لتشغيله يدويا صعد بها يانى بين ذراعيه ، بعد جدال عنيف.

حين تكاثف ضباب الخريف فوق المدينة ، صار يصعب تنفسها ، وشعرت بالاختناق ، ولم تستطع الخروج من المنزل. بقيت بيروشكا معها وصارت أخيراً تنام هناك ، وترافق يانى كل صباح إلى عملهما. وذات مرة سألت ماريا بيك ابنها بلهجة قاسية متى سيتزوجان؟ طبع يانى قبلة على جبينها.

– حين يجيء أبوك إلى عيد الميلاد.

مساء السبت فى بداية تشرين الثانى "نوفمبر". قالت هانيلكا لزوجها فى السرير ، بأنها المرة الأخيرة التى تنام بها فى هذا البيت. وأنها لا تريد أن تأخذ شيئًا معها سوى طفلها.

وظل الليل بطوله يتوسل إلى زوجته أن لا تتخلى عنه.

قالت هانيلكا فى الصباح إنها ستأتى يوم الإثنين لأخذ أغراضها ، وطفلها. ارتدت ثيابها وميلكوت فى السرير ، يراقبها.

– هل ستذهبين إلى المشفى؟

– نلتقى هناك.

وافقها ميلكوت سهوا. وراح يمج سيجارته.

صباح هذا الأحد ذهبت هانيلكا إلى أمها في البيت، كانت وحيدة ، تطبخ لأن ياني وبيروشكا سافرا إلى بروغتش من أجل النبيذ. قبلت جبينها المليء بالتجاعيد جلست قربها . وأشعلت سيجارة.

– سأترك ميلكوت – قالت لأمها:

توقفت يدا ماريا بيك فوق الإناء، وسألتها:

– ما الذي حدث؟

فكرت هانيلكا قليلاً وأجابت:

– لقد فسد هذا الزواج، لا أستطيع أن أتفوه بكلمة سيئة عنه ، لكنني سئمت الحياة معه، باختصار... ليس جيداً ، ليس جيداً . وربما ما كنت شعرت بكل هذا لولا أنني أحب غيره، عازف السكسوفون ، أرفين.

– يا مسيح! ماذا تقولين؟ ولكن ميلكوت شخص نزيه ، مهذب ، محب لأسرته. هل فكرت جيداً ؟

– أجل، فكرت يا أمي، وقد أتيت الآن لأعرف إن كنت تسمحين لي بالعودة إلى البيت؟

صمتت ماريا بيك، وعدلت منديلها الأسود.

– متى تحضرين الولد ؟

سألتها وتابعت العجن.

عند الغداء وصلت أستر وزوجها وابنتاهما. أجهرت أستر:

فليذهب ميلكوت سوها بكلماته المتقاطعة إلى الجحيم. تشرين الثانى "نوفمبر" على الأبواب، وليس لدى هانيلكا أو طفلها معطف شتوى.

ثم التفتت إلى أختها الصغرى.

- كم راتبه ؟

- لا أعرف.

- كيف لا تعرفين - صرخت فى وجهها - كنت تعطينه كل مدخولك حتى آخر فيللر. كم قدم زوجك للبيت؟

ستمائة فورنت ؟ قولى لأمك. قولى إنك أنت التى تنفقين على الأسرة. وكنت تفتقدين دائمًا ثمن الدخان وأجور الترام.

والتفتت إلى أمها:

كل أحد تمضى وقتها فى الغسيل والكى ولم يصطحبها إلى السينما. أفضل لها أن تعيش وحيدة مع طفلها.

نظرت إلى زوجها لكنه كان يأكل صامتًا.

أعدت ماريا بيك طعام هابتلر العجوز، وانهمكت فى غسيل الثياب أما هم فقد ذهبوا إلى المشفى لإطعام أبيهم. بعد حين وصلت أنا

كوفتش، برفقة ابنها المقدم، وغيزيكا وأغوتا، وتلاهم هيرش أشتفان مع حلوياته الكستنائية، وأخيراً ميلكوت سوها بوجهه المتجهم.

شعر هابتلر يانوش العجوز بتحسن في حاله فسمح لأحدهم بالمكوث عنده دقيقة أو دقيقتين قرب السرير، ولكن لم يسمح لهم كثيراً بالحديث.

انتهت الزيارة الساعة الخامسة. وقف جميعهم أمام مدخل المشفى والمطر يهطل.

رفع زتتاي جورج ياقة معطفه المطري وقال:

– ما وجهة كل منا ؟ نحن ذاهبون إلى أمنا فقال هيرش أشتفان:

– وأنا أيضاً أزورها.

– وأنا كذلك – أردف ميلكوت سوها.

ودعت آنا كوفتش ابنها. قالت غيزيكا وقد حملت آغوتا:

– سيلحق بنا الآخرون بعد قضاء أشغالهم.

جلسوا في المطبخ. شعر الجميع بأن جوا من التوتر يخيم بينهم. فصاروا يدخنون وينظرون في بعضهم. ماريا بيك على الصوفة، تسعل.

قالت أستر:

– حالة أبي في تحسن دائم. وعلينا الآن ألا نسمح له بالتحرك كثيراً.

ظلوا صامتين. رمقت هانيلكا وجه ميلكوت سوها. ثم، بعد حين، أطلقت ضحكة عالية. وانتصبت.

فتحت ذراعيها، وقامت بانحناءة مازحة. وقالت:

– الآن، اكتمل مجلس العائلة. يمكن أن نبدأ. أعتقد أن كلا منا يعلم باستقلالي عن ميلكوت سوها، لأنني لا أريد متابعة حياتي معه. لا أريد منه شيئًا سوى طفلي.

أطفأ هيرش أشتفان سيجارته.

– ما الذي ارتكبه في حقك ؟

– لا شيء. لكن المسألة ليست في هذا.

تفوه سوها:

– لكنما هي ارتكبت في حقي ...

نظرت إليه ماريا بيك

– لماذا ؟ ما الذي فعلته ؟

– خانتني. مع رئيس مجموعتي.

حدق زنتاي فيمن احتمت بالجدار، وارتجفت يدا أستر. وحملقت هانيلكا في زوجها بعينين مطبقتين نصف إطباقة. وابتسم هيرش أشتفان. ماريا بيك ثبتت بصرها في وجه ميلكوت سوها، وأطبقت أصابعها المعقوفة، وضربت بقبضتها على الطاولة:

– إذن ابنتي عاهرة ؟

شحب الرجل.

– لم أقل هذا ...

ضحكت هانيلكا قائلة:

– رائع. إذن لم تابعت حياتك معي ؟ المسألة لم تكن كذلك أبداً. أنت تعلم تمام العلم أن المسألة ليست هكذا.

جاء دور زنتاي جورج ليقول بصوت هادئ:

– يا جماعة. الفكرة غير هذا. هذه قضيتكما أنتما وهي لا تخص أحداً. علينا نحن التحدث بمصير الطفل. هذا هو الشيء المهم.

بعد قليل تفرقت المجموعة. انتحى ميلكوت سوها بزوجته جانباً وسألها بخفوت مرتبك.

– أتأتين معي إلى البيت ؟

حدقت هانيلكا بعينيها الكبيرتين المستديرتين. وصرخت في وجهه بغتة:

– لا يا ميلكوت. غداً سأجلب أغراضي والطفل.

أطرق ميلكوت سوها. ثم سحبه هيرش اشتفان في التاسعة مساءً وصل ياني وبيروشكا، ومعهما أربع دمجانات من النبيذ ذاقت ماريا بيك كأساً ، نظرت إلى ابنها:

- رجعت أختك إلينا - قالت

- أحضر الطفل غداً ، سيسكنان هنا .

انحنى يانى ليحل رباطى حذائه، وأجاب.

- البيت متسع.

كان زفاف هابتلر يانوش الابن فى عيد الميلاد. بدأت ماريا بيك، منذ الفجر، فى إعداد الأطعمة وقطعت خمسة أزواج من الدجاج، وقرقر الماء المغلى فوق النار، عجنت هانيلكا . قشرت غيزيكا البطاطا . ونظفت الكمية الكبيرة من الخضار وغسلت أستر اللحم البقرى ولحم الخنزير وأعدت تبلة القلى. وأرحن بيروشكا فلم يسمحن لها بالدخول إلى المطبخ.

- سيأتى يوم تشتغلين ما يكفى، حتى تملِّى.

جلس يانى حول طاولة الاحتفال ببزته الزرقاء الغامقة وزوجته بطقمها الأزرق الغامق. شربا النبيذ البروغنتشى القوى. قام زنتاى بمهمة التقاط الصور. فيما بعد رغب هابتلر العجوز فى كلمة يلقيها . كان جالساً فى السرير تسند ظهره الوسائد. كاد أن يكون أصلع، وما تبقى من شعره أبيض تماماً .

دلَّ عنقه الثخين على قوة غابرة، وامتلأت بشرته بالتجاعيد. سكبوا فى كأس قليلاً من النبيذ، وناولته إياه غيزيكا . عدل جلسته وقال:

- أولادى الحلوين من كل قلبى أتمنى لكم أن تعيشوا كما عشنا أنا وأمكم الغالية. لا يخلو الأمر من المشاجرات والخلافات التى يعود الفضل

لأمكم فى فضهّا وعلى أن أعترف أننى أمقت الكلمة الكاذبة كما أكره الإنسان الكاذب، فأنا ألفظه ولا يعنى لى أى شىء. صحيح أننى لا أريد أن أتفاخر بنفسى، لكنى كنت أسلم كل مدخولى لها، لأننى لم أقدم على ارتكاب أى فعلة مسيئة من أى نوع والآن أرفع نخب زوجتى الغالية ، نخب الزوجين الشابين، نخب أسرتى الغالية وأتمنى لكم دوام السعادة. وسالت عيناه بالدمع.

بعد منتصف الليل، اشتدت حرارة الاحتفال فأجهر العجوز زنتاى أنه سيتزوج. وسيتخذ إحدى الأرامل زوجًا له، وهى تملك ستين ألف فورنت، وجميلة أيضًا ضحكت ماريا بيك:

– أيها القرقة العجوز ! دائمًا، هذا ما يدور بذهنك . استغرب العجوز زنتاى فقال:

– ولم لا ؟ ليس هذا أكثر من شىء مريح ويبعث على البهجة ننفق نقود الـ "ماما" ثم نرحل.

احتدت ماريا بيك.

– ليحترق لسانك. عاجلاً ستوضع فى التابوت، ومازلت تفكر بالنساء.

وضع زنتاى قدحه.

– التقدم فى العمر ليس مشكلة.

ضحكت ماريا بيك:

- لماذا ؟ ألا نترهل مثل جزمة.

كرر:

- ليس مشكلة. ذات مرة سيقع المرء في الشارع أو في أي مكان آخر لا أفكر أنا بمثل هذا ...

صار زنتاي جورج سكران. فراح يغني كيفما اتفق: هيه أيها السماكون ... هاجمته هانيلكا واصفة إياه بالجيفة ، والحيوان. توهجت عينا ماريا بيك من النبيذ ، فاحتدت وطردت أستر من الغرفة. ذهب وراءها العجوز زنتاي ومسح شعرها.

- آسف. لأن القدر قادك إلى ياني. لن يكون في يوم شخصًا رزينًا. مثل جده ، يشرب ويلحق العاهرات وينفق المال. أقترح عليك أن تخونيه ليكتشف غروره.

شرش شاندور وزوجته اشتريا شرشفين وغطاءي لحاف بلون كرزي هدية زفاف الشاب. كان شرش شاندور قد توهج وجهه من النبيذ البرغنتشي. اجترع قدحه وأمر بالصمت. لكن حين انتصب واقفًا كان تأثير النبيذ قد بلغ حدا جعل عينيه تدمعان:

- كن سعيداً يا ياني. أنت وزجتك. هذا ما أتمناه لكما.

وعاد إلى جلسته سريعًا. منحه شابات بيلا قبلة ، ثم قبل زوجته. وبدأ يغني ملء حنجرته "توشوش الغابة ، يوشبوش القصب" وغني

الجميع حتى الفجر ، وبين الحين والحين كانوا يشربون نخب صحة وسعادة العروسين الشابين.

فى آذار "مارس" أدخل العجوز هابتلر مشفى الأمراض القلبية فى "بلاتون فردى". وبعد ثلاثة أشهر خرج إلى البيت فى أفضل الحالات الصحية وأحيل ، حسب تقرير الطبيب وإرشاداته ، إلى التقاعد. أعد زنتاى كافة الأوراق ، وبعد شهرين من المتابعة حصل على راتب تقاعدى سبعمائة فورنت لكل شهر. واتفق الجميع على أن يدفع كل منهم مائة فورنت لتجميع المبلغ.

فى البيت الغرفة – المطبخ صارت الحالة مزرية.

وصار العجوز هابتلر يشعر أنه فى سجن ، وسيطر عليه القنوط. بذلت ماريا بيك ، كل ما فى وسعها للعناية به فلم تدعه حتى فى المشى. لم يعر اهتمامه لصحيفة أو كتاب ، بل كان يتمشى فى البيت ذاهبًا آيبًا ، يشكو ويوجه ملاحظاته الحادة ، والهازئة ، يجرح بها زوجته. فى مثل هذه الأوضاع كانت ماريا بيك تشرب ثلاث كئوس من النبيذ ، ثم تأخذ بشتم زوجها بنبرة صوتها الهيستيرية. وحدث أن لكمها على وجهها. ويومًا بعد يوم احتد الشجار بينهما ، فامتنعا ، غير مرة ، عن الكلام معًا. فنشأت بغيضة صامتة شديدة تجاه بعضهما البعض.

انتهت قضية طلاق فانيلكا. وحددت المحكمة مبلغ أربعمائة فورنت غرامة لحضانة الطفل.

وفى مستهل الخريف عقد قرانهما فى مقر المحافظة بشهادة شخصين غريبين. واشتريا منزلاً خاصا فى شارع " أوللوى" دفع منها عازف السكسوفون أرفين أربعين ألف فورنت كدفعة أولى.

التحق زنتاى جورج بالمعهد التقنى الاقتصادى ، وأنهى سنته الأخيرة بحضور المحاضرات الليلية. درس بإرادة صلبة ، وبعد الحصول على الشهادة الثانوية أراد الالتحاق بالجامعة.

وعقد العزم على أن لا يهدأ له بال حتى ينادوه الدكتور زنتاى.

– حتى لو تغير النظام ستبقى الشهادة صالحة – قال.

والذى أغاظ أستر. وأفقدها صوابها أنه فى كل مساء كان ينشغل بالدراسة. فكانت تهزأ منه.

– لا تغضب! ولكن يضحكنى أن بشراً صلعًا يمشون الخيلاء. أقبل ذلك فى عمر ثمانية عشرة عامًا ، لكن ، هكذا بالنسبة لى ، يبدو الأمر...... مضحكًا.

احمر زنتاى.

– لا يهمنى رأيك – أجاب بجفاف.

قالت أستر ذات مساء إنها ستسجل فى الجامعة. وقد زكيت لذلك فى الورشة ، لأن وثيقتها فى الثانوية العامة ممتازة. وأنها تريد أن تدرس الحقوق.

– سأكون الدكتورة أستر هابتلر.

أجاب زنتاى:

– لا توجعى رأسك بهذا ، لأننى غير مستعد أن أولى الولد اهتمامًا كل مساء.

تجددت بذلك منغصات حياتهما المشتركة ، عاود زنتاى الشرب. وصار غالبًا ما يرجع إلى البيت مطفأ من شرب الكحول. عندئذ غضبت أستر قائلة:

– لا تلمسنى. أمقتك. لا تلمس الولد. انقلع من هنا. هذا لا يحتمل.

– حسنًا – قال

– لا بأس. سأنقلع.

لكنه لم يذهب.

بثت أستر شكواها باكية فى بيت أهلها.

قالت ماريا بيك: تعالى مع طفلك أما غيزيكا فقد نظرت إلى المسألة من منظار آخر. ولم تغادر البيت وتترك الأثاث ، والغسالة؟ كى يشرب بثمنها الكحول؟

يانى كز بأسنانه:

– وما دخلك أنت؟ أنت مجنونة دائمًا طوال حياتك. وربما انهال عليها ضربًا فى حالة من حالات سكره. ماذا تقولين عندها؟

وبعد بكاء طويل ، وشجار ، وجدال عادت أستر إلى "بست الصغيرة". خلع العجوز هابتلر ثيابه ، واندس فى السرير ، أشعل مصباح الكلوب، ورمق زوجته بنظرة متحدية ساخرة. وقال بنبرة معتبرة:

– على أن أتحدث مع زيتاى ، أنا لا أسمح بالسكر بين أفراد أسرتى وأرفض إنسانا مثله.

شجيت ماريا بيك وصرخت:

– صار يلعلع لسانك ثانية؟ هل ترغب فى القضاء على؟ وعن قصد؟

دخل يانى إلى المطبخ.

– أمى! لا تبدئى من جديد. أرجوكما بحق الله يا أمى. وإلا سنغدو جميعًا فى مشفى الأمراض العقلية.

نظرت إليه ماريا بيك شذرًا:

– وتقول ما تقول لأمك؟ أيها الفدان!

– أعرف – قال يانى

– تشرب أمى ثلاث أقداح نبيذ ويصير كل منا فدانًا!

تناول الزجاجة وألقاها أرضًا. ثم خرج إلى المطبخ يغتسل.

كانت بيروشكا حاملاً. وكان يانى يترقب المولود كالممسوس. فكان يراعى زوجه ويحرص عليها من النسيم. ويأخذ من يدها حتى أخف

الأعمال المنزلية ، ويجلب من أجلها الموز والبرتقال. ومرة أخرى ، حلم بالماء الغزير ، فحكى حلمه هذا لأمه التى نصحته بألا يخاف. صحيح أن بيروشكا شديدة النحول ، وتعانى من نقص فى دمها إلا أن طبيبًا ممتازًا ينتظرها فى مشفى أشتفان.

تبسمت:

- لكن كل صباح ، حين تستيقظ ، انظر حالاً من النافذة. وسوف تنسى حلمك.

ومسحت يده القوية.

ساءت حال بيروشكا فى الشهر الثامن ، وتوجعت قبل حينها. وجاءتها آلام المخاض الدورية كل عشر دقائق. لملمت ماريا بيك أغراضها وأحضر عازف السكسوفون أرفين (التاكسى) ونقلوها برفقة هانيلكا إلى مشفى أشتفان.

جاء يانى بعد حين. وانتظروا مضطربين فى الممشى. حتى خرج الطبيب من غرفة التوليد. وأخبرهم أن عليه القيام بعملية قيصرية وأن هناك خطورة وعلى ذويها أن يختاروا بين حياة الطفل وحياة الأم. وطلب يانى الحفاظ على حياة زوجته ، كانت عيناه مغرورقتين بالدمع.

نقلت بيروشكا على عربة العمليات ، وريثما كان الأطباء يغتسلون استعداداً لإجراء العمل الجراحى سمع صراخ طفل معافى أصلع باغت

الجميع دون تدخل من أحد. وبعد شهر كانت تجرى طقوس عماده ضمن كنيسة الإصلاحية فى ساحة " ناج فارد". قلت ماريا بيك السمك وأعدت القريش ، فاجتمعت العائلة واحتسى النبيذ ، وصدح الغناء حتى الصباح. وكان يانى أسعد من عليها.

يومًا بعد يوم صار خناق العجوزين يتنامى ، فلم تسمع من أحدهما كلمة طيبة تجاه الآخر. مارس هابتلر قتاله بهدوء ، وطول بال ، ملاحقًا بتعليقاته واقتراحاته زوجته حتى أخرجها عن طورها الهيستيرى.

ذات صباح على قدح الشاى سألها هل زارتها "آنا" حين كان نائمًا فى المشفى؟

وضعت ماريا بيك القدح.

– أهذا ما يدور فى بالك؟ أيها البقرة العجوز! حتى وأنت ميت فى الحياة يشطح خيالك الأسود بمثل هذا؟

هز هابتلر رأسه :

– لا تجرحيها دائمًا. آنا امرأة شريفة. جديرة بالحب. ودود ، وهى مخلوقة رقيقة وتستحق الصداقة.

هنا انفجرت ماريا بيك.

– ومع ذلك ضربتنى لأجلها. ورميتنى أرضًا أيها القواد. اشتغلت وغسلت أربعين عامًا ، كالحيوان وأنت مع عاملات التنظيف فى أكاديمية

لودفيكا. وكنت تعتقد أننى لا أعرف وكنت تظن أننى لا أعرف أنك ضاجعت زوجة شابات بيلا.

– ممكن – قال هابتلر

– ولم لا؟ إنها ، كما أذكر ، امرأة قوية ، ذات جسد بديع.

زعقت ماريا بيك حتى بدا التشوه على وجهها الصغير المجعد ، وراحت تشد شعرها وتنفشه بأصابعها المعقوفة ، والدموع تسيل من عينيها الزرقاوين.

صرخت:

– هل تريد أن تضعنى تحت الأرض؟ سأفعل ذلك وأحقق لكم هذه الرغبة بنفسى. لكن لا تحمل لى زهوراً لتضعها على قبرى. أنت المجرم الهانئ البال. حقير ، وكنت دائماً حقيراً أيها الحرباء.

قال هابتلر:

– اسكتى بحق الله. وإلا سأفجر البيت بكل ما فيه. منذ أربعين عاماً وأنا أتوسل إليك أن تطبقى فمك القبيح ، وأن تتحدثى بصوت هادئ ، كما يليق. لكنك لا تتقنينَ غير الصياح فى وجهى ، ووجوه أبنائك والجيران ، كالخنزير البرى ، اسألى أيا كان ، وأى أحد من أبعد الجيران ، ناظر العمارة وأى فرد من أفراد عائلتى فى بروغتس ، وأى ولد من أولادنا إن كنت قد أظهرت احترامك وتقديرك لأحد فى هذه

الحياة. الجواب لا. هل خاطبت أيا كان ، فى أى مكان ، إلا بفجاجة؟ الجواب لا. إذا طرحنا السؤال للتصويت لن يقف أحد فى العالم إلى جانبك.

لم يرف لماريا بيك جفن، بل قالت :

– ليحاسبك الله أيها الدودة ...

ودخلت إلى الغرفة تبكى.

فى مثل هذه الحالات يتخاصمان ، فلا يكلم أحدهما الآخر. تعد ماريا بيك غداء وعشاء الحمية ، وتضعه على المائدة دون أن تتفوه بكلمة. لكنها بعد أيام تهزأ من نفسها!

– كل أيها العجوز ملعونة معدتك.

تبسم هابتلن. وطبع على شفتيها قبلة بأسارير معترفة بالذنب.

وقال بصوت مرهف الحس:

– شكراً جزيلاً أيتها الأم الرائعة. شكراً لهذه العناية بقلبك الطيب ، والتى بذلتها من أجلى دائماً وأبداً.

وفى اليوم التالى تجدد خصامهما وهما يسترجعان ذكريات غابرة قديمة .

حتى فى النهاية سأل يانى أختيه أن تفعلا شيئًا لإنهاء هذه الشجارات القاتلة خاصة أمام زوجته بيروشكا.

عصر يوم الأحد حضر جميع الإخوة واجتمع شمل العائلة. وأنصت الوالدان كطفلين ملعونين.

تحدثت هانيلكا بمرارة وعينين دامعتين.

- الحياة ، هكذا ، مستحيلة. كلاكما مريض. لا نعرف هم أي منكما سنحتمل أكثر. كم مرة وعدتما بأن لا تعودا إلى الشجار ثانية. لكن دون أي جدوى. إذن لم يبق إلا حل وحيد. تأتي أمي وتعيش عندي أو عند أي منا. وأبي يظل هنا. الحياة معًا مستحيلة.

احمرت ماريا بيك وقالت مثارة:

- حسنًا. حسنًا. ليهتم كل منكم بأموره الخاصة. وكفى. على كل حال ما دامت حياتنا خلال أربعين عامًا ، كانت جيدة ، ستظل جيدة إذن.

وضحكت بغضب مشوب بحياء.

بدا أنهما في حالة سلم. هيمن المرض على ماريا بيك. فوهنت يومًا بعد يوم ، قواها ، وصوتها ، ولم يبق إلا عيناها على سابق عهدهما ، تشعان نقاءً وحزمًا. تناولت كثيرًا من الأدوية: سوفالسمين ، أستماميد ، قطرات إزولانيد ، كودريت ، والمهدئات العصبية ، وشدد عليها طبيب الجادة أن تلزم الراحة. لكنها كانت تخاف أن تنام ، لأنها تشعر بضيق أنفاسها عند الاستيقاظ، فتعض على الغطاء من الألم. لذلك كانت تظل

ساهرة الليل بطوله ، جالسة فى السرير ، تستمع إلى همسات الآخرين ، ثم تأخذ غفوة عند حلول الفجر.

كان نوم العجوز هابتلر هانئًا ، عميقًا ، وكان يستيقظ نشطًا مليئًا بالحيوية. يحلق ذقنه وينظف حذاءه ويلمعه. ويعقد ربطة عنقه راغبًا فى الخروج ، يتسلى بمزاورة المعارف ما دام لا يتاح له أن يعمل. لكن ، وبإرشادات من الطبيب ، وبرغبة ملحاح من قبل الأبناء لم تسمح له ماريا بيك بالخروج من المنزل. عندئذ ، من شدة ضجره وحنقه ، يبدأ بالتفاخر بقوته ورجولته. مجاهراً أن أشد النساء حرارة لن تشكو بين ذراعيه.

لكن ماريا بيك صنفت تفاخره هذا فى باب التجريح وقسوة القلب ، فتجددت المشاحنة ربما على نحو أشد ، بينهما.

فجر يوم أحد فى نهاية الصيف ، تحدث يانى مع أمه ، فى المطبخ. بهدوء لكى لا ينزعج النائمين. جلست ماريا بيك على الصوفة وفى حضنها مقلاة وكانت تقشر التفاح وتقطعه. وكان يانى يحلق ذقنه:

– سأذهب يا أمى. سآخذ زوجتى وابنى.

– إلى أين يا بنى؟

– لا أعرف. طلبت سكنًا من الورشة. إذا لم يساعدونى سأذهب إلى "جور" أو إلى مصنع جديد حيث يعطوننى سكنًا.

- والأسرة؟

- لا شأن لى بها.

- حقا؟

- حقا يا أمى. لا أبى السافل ولا إخوتى المومسات ولا كل الشلة الشلة الملعونة.

- وأمك؟ بماذا تنعتها؟

غسل يانى الرغوة عن ذقنه. نشف.

- لا يمكن العيش هنا. لن ينتهى هذا الوسخ والضجيج على خير. أريد أن أرتب حياتى. سآخذ ابنى.

أوحت العجوز بضحكة دون صوت:

- لن تغادر هذا المكان. سأقتلع عينيك من وجهك ولن أدعك تذهب. سأنام على عتبة البيت لتمرق فوق جثتى. أنا أمك. أنت خلقت فى. تحت قلبى. أنت ضناى، وسعادتى كأخواتك الأخريات. لى أنا الحق فى الكلام لأننى عانيت وشقيت من أجل الأسرة. عشنا معًا فى السراء والضراء، وسنبقى معًا ما دمت أنا حية ترزق.

ثم إنك ... ابنى. أضحك أحيانًا حين تصرخ، وتضغط على أسنانك، وتستخدم قبضتك ... لا تسئ لأبيك، صار عجوزًا خرفًا. لا تسئ لأخواتك من دمك. أقول عليك أن تقوم بحمايتهن لأنك أصبحت رجل البيت، ودعامة الجميع. هذه وصيتى لك.

– أمي – أجابها

– لو ربطت بقدمي تراكتوراً سأغادر حظيرة الخنازير هذه. لي طريقتي في تربية ابني ، ولي الحق في ذلك يا أمي. وبابتسامة رقيقة ارتدى قميصه.

بعد يومين. قبل ظهر الثلاثاء. هتف شابات بيلا مرعوباً إلى منزل هانيلكا ، قائلاً إن مدام هابتلر في حالة سيئة ، وعليها الحضور في الحال. لم تكن هانيلكا في البيت ، لأنها ذهبت مع العازف إلى شارع "فورفاروش". انتظرها شابات بيلا في الممر. اقترب منها بوجه يبدو عليه الاهتمام وأجهر أن مدام هابتلر ، في رأيه ، انتحرت.

جلس العجوز هابتلر وحيداً مقوس الظهر في المطبخ. قفزت عيناه جافلتين ، تتابعان سحنة صهره وقال:

– أنت ودود وطيب ، وأظهرت لطفاً كبيراً بقدومك.

استلقت ماريا بيك بقميص النوم الفانيلا في السرير. أشعة الشمس تغطي وجهها ، وشعرها الأشيب منفوش. ولسانها المزرق خارج فمها ، وعيناها الزرقاوان شاخصتان في سقف الغرفة. جلس عازف الساكسوفون حاضناً جسدها الخفيف ، وملصقاً وجهه بوجهها المجعد الصغير.

– ماذا فعلت؟ أجيبي يا أمي. أتسمعين ما أقول؟ انبثقت دمعة من عيني ماريا بيك. طلب عازف السكسوفون حليباً وأطعمها. عندئذ بدأت المرأة تبكي.

– أترين؟ حتى إنني لا أقوى على الموت ... قال إنه لم يحبني قط ... وأنه عاش معي من باب العطف ، يكره أن يقبل يدى ... يا للبشاعة .

هدهدها عازف السكسوفون دقائق ، حتى أغفت. ثم خرج من المطبخ ، وسأل هابتلر لم لم يدع طبيبًا؟ فأجاب لأنه لم يجرؤ على مواجهتها ، لكن حين وقعت الحادثة لم يكن هو فى الغرفة.

– إذن صل الآن. فقد تذهب لكى تشارك فى دفنها.

ما إن جاء المساء حتى تحسنت ماريا بيك. واستقبلت أولادها كالعادة.

ولم يذكر هذا اليوم ثانيةً.

وفى الليل المتأخر دعت ماريا بيك ابنها إلى سريرها.

– أنا لم أستطع الخلاص ، ارحل أنت من هنا. أتمنى لك السعادة.

هز هابتلر الشاب رأسه وقبل يدها.

عاد زنتاى جورج كل ليلة مخموراً إلى المنزل. خف وزن أستر ونحلت. وباتت يداها ترتجفان ، وصارت عاجزة ، حائرة ، قانطة. رمقت ابتسامة زوجها البلهاء بكراهية:

– أنت حيوان. حتى أبوك سيأتى ليشهد فى المحكمة. أى نوع من المخلوقات السكيرة أنت. ثم... لا تستعمل صابونى ولا معجون أسنانى.

أشرب زجاجتين من النبيذ أقل لأنني أنشغل بك. قال أبوك بأن أركلك إلى الجحيم. وأجد لنفسي شخصًا محترمًا لائقًا بي.

حل زنتاي ربطة عنقه. شرب كأسًا من الماء ، تبسم لكنه ظل حزينًا ، عيناه كئيبتان. فقال بصوت جاد :

– يا إلهي لكن تربيت تربية ممتازة. توقظني المثلات كل صباح. لأن أبي يظل نائمًا تحت تأثير الكحول. يضع وهو نعسان سماعة الهاتف على أذني فلا أسمع إلا الأنغام حتى أن كارادي كاتالين غنت أغنية قصيرة للسيد رئيس القسم في الأمن الجنائي. طبعًا ، على أن أعترف ، لكي لا أتجني عليه ، بأنه أولاني عناية فائقة. مرة في حالة من حالات سكره ضغط فوهة المسدس في صدغي لأنني امتنعت عن العشاء. احتملت أمي معه ثلاث سنوات. ثم ماتت ... لكن هذا الشخص المستقيم أبي على كل حال.

سأخط على قبره يومًا: هنا لا يرقد أحد ... أما أنت ، فحشرة صغيرة تافهة ، أقسم أنني أكن لك بغضًا شديدًا.

بكت أستر بكاءً شديدًا. وفي النهاية بدأت تنغص تبعًا لنصائح أختيها ، حياة زنتاي جورج. فكانت تبادره بنبرة قاسية كل ليلة بالسؤال:

– متى سوف ترحل؟ متى تنصرف؟ متى نتحرر منك؟

– سأرحل. سأرحل ، فى وقت قريب.

وكان رأى العائلة أنه لن يرحل أبداً .

فى نهاية تشرين الأول "أوكتوبر" رحل بغتة. حمل معه بعض شراشف النوم ، وآلة التصوير ، والراديو ، حين أتت أستر من العمل وجدت منضدة الراديو فارغة ، فأخذت تبكى. وفى اليوم التالى هدأتها أختها فى بيت الأهل قائلة:

– هل جننت؟ أليس أفضل من أن يقاسمك الأغراض كلها. ابتهجى لأنه لم يأخذ غير ما أخذ .

سمعت ماريا بيك تشهق فى المطبخ ببكاء خافت.

– يا إلهى ثلاثتهن ، ثلاثتهن ...

لكن فتيات هابتلر ضحكن وسخرن منها ، وأوضحن لها أنهن كيفما وجهن أبصارهن يجدن زواجًا فاشلاً. والنساء يصبرن على الخناق ، والأزواج السكيرين ، لأنهن يخفن من أفواه الجيران ، ويحزنهن اقتسام الأثاث والأغراض. لكنهن ، والحمد لله ، لا يحملن نفوس العبيد ، ولا يخفن من الوحدة ، وإنهن على استعداد لحضانة الأولاد وتربيتهم.

ضحك يانى:

– أكيد ، الأول سيصبح مغنيا ، والثانى عازف بيستون. سيلتهمان ما يتسع بطناهما من السمك المقلى والقريش.

بدأت الفتاتان تبكيان. ودمعت عينا غيزيكا .

– هذا كل ما تستطيع أن تقوله؟ وإذا ما أوقعت بك الحياة؟ إلى من ستلجأ؟ أنا حرصت على رعايتك في البراكة ، حين انشغلت أمنا بالعمل. أنا رافقتك للنزهة والفرجة على مصح رينغر. اعتنيت بنظافتك ، أعطيتك خبزًا وتفاحًا.

ياني طفح كيله. صرخ:

– لا تلعبي معي ولا تعبثي! أعرف ما يكفي عنك ، وعن أفعالك؟ تحسبين أني مخبول؟ سأعلق المصباح الأحمر على الباب لكي يعرف الناس أين توجد بنات هابتلر. كل فتاة تمتاز عن الأخرى. جاز. رقص. فليب شوكولا. نرجو الانتظار في الدور!

– لا أصدق! – شهقت – لا تصدقن كلامه! إنه يصرخ ، فقط يصرخ. مني أنا ورث هذا الطبع البائس. أخوكن ذو قلب دافئ. لن يتخلى عنكن أبدًا.

– ياني استأنف:

– أبصق على العائلة بأكملها! وعليك أيضًا. لا تظنيني أهرج ، لن تقنعيني. كفى ما أصابني من الجميع ، ومنك يا أمي.

طفحت حتى حلقي حتى الإقياء.

تسمرت خدقتا ماريا بيك فيه. وألقت بنفسها على المجلى تمزق شعرها ، حتى انهارت. وقعت أرضًا فتكدم جبينها ورعف أنفها وهي تصرخ:

– فقط يصرخ. لكنه ذو قلب دافئ. لن يدع الأسرة تتفكك.

أسرع يانى إليها ورفعها من ذراعها. قبل جبينها المتجعد، وتقطر الدمع من عينيه الصفراوين.

أنا أصرخ فقط يا أمي. أجعجع. أعرف نفسي، مجنون. لن أتخلى عنهن في حياتي أبداً يا أمي. لا يمكن لإنسان أن يتخلى عن أخواته.

تعانق الجميع عندها، وبكوا قليلاً. وفيما بعد شكت غيزيكا من ألم في ظهرها. استلقت على الصوفة فشلحت ماريا بيك غطاءً عليها. فغطت في نوم عميق. ولو كان في مكنتها لنامت على الدوام.

واستمر ألم ظهرها فلم تذهب إلى الطبيب رغم إلحاحهم عليها. مبررة عدم ذهابها بأنها كل شهر تدفع أربعمائة فورنت قسط البيت إضافة إلى الكهرباء، والتدفئة، والطعام، وبطاقة المواصلات الأسبوعية. حتى أنها لا تتمكن من شراء الثياب من مصروف الطعام. صارت آغوتا في الصف الثالث الثانوي، وكانت فتاة جميلة هيفاء. من غير الممكن شراء ثياب لها من متجر "أوترو". كان هيرش أشتفان يرسل لابنه بداية كل شهر ثلاثمائة فورنت، من عمله، كيد خبيرة، في ورشة تصنيع عدد خاصة.

كانت آغوتا تزوره أحياناً فيطمئن عن أحوالها ويسألها عن دراستها، ويتفاخر غالباً بأنه مطلوب للعمل في مختلف المصانع نظراً لموهبته العالية.

ولم يسألها عن غيزيكا مطلقًا ، كما لم يحدث ابنته أبدًا عن حياته الخاصة. اشترى لآغوثا بطاقة حضور مهرجان غنائى ، ودراجة ، واصطحبها لتشاهد معه أوبرا "بانك بان" فى المسرح القومى. وذات مرة نزلت على الدرجات ابنة تشالا يولى إلى الورشة ، محضرة غداءً فى إناء. كانت "تشالا بوبى" فتاة نحيفة ، صلبة النهدين ، ترتدى سترة بنفسجية ، صبغت شعرها أشقر. بضحكة عالية قبلت عامل الخراطة الأصلع.

– مرحبًا ، بابا.

عندها احمر هيرش أشتفان. وراح يكنس نثار الحديد تحت الآلة. شعرت آغوثا للمرة الأولى بقرف ، تجاه أبيها.

كان طفل يانى الخديج كثير المرض مما جعل أمه بيروشكا تلازم البيت أسابيع بطولها فكانت خمولاً ، غالبًا ما تنام حتى العاشرة قبل الظهر ، أو تقرأ فى السرير ، متكاسلة عن تنظيف الحفاضات.

حتى يأتى يانى مساءً ، وينظفها. وهذا جعل ماريا بيك تغضب ، حتى قالت مرة لكنتها فى المطبخ:

– يا بنى. من لديها طفل صغير ، لا تسمح لنفسها بالنوم حتى العاشرة. ثم إن تنظيف الحفاضات ليست من أعمال الرجال بل النساء.

استيقظت بيروشكا صباح اليوم التالى ، جلت وتسوقت ، وطبخت ، لكنها تكاسلت عن الحفاضات حتى أتى "يانى" مساءً ووضع ماءً فى وعاء الغسيل.

– أنا أغسل كل ما يتعلق بابنى ، ليس فقط الحفاضات بل القمصان ، والثياب الداخلية ، بيروشكا واهنة وأنا قوى ، لا أتخلى عنها.

نظرت ماريا بيك إلى كِنتها

– يا ابنتى. لابد انك صليت كثيراً حتى ترزقى بزوج مجنون كهذا.

ولعل ماريا بيك أحبت أكثر من أحفادها جميعًا هذا الولد النحيل الشاحب. هدهدته فى حضنها ، لعبت معه ، وأركبته على ظهرها وغنت له:

من بابا إلى فراشة

ومن هناك إلى "كوما روم" .

لكنه سرعان ما يخدر ، فتضعه فى السرير ، وتتابع غناءها المهدهد. لم تعد تشتهى النبيذ. زارتها بناتها كل يوم حاملات لها البرتقال والأزهار ، ولأبيهن الثابولى والشوكولا لأنه أحبها " بجنون شديد". كان يُقبل بناته بعينين دامعتين ، ويلومهن بنبرة مؤثرة على كثرة ما ينفقن من نقود ، وماريا بيك تحملق فيه حانقة وهو يغمغم بفمه الأدرد.

- الإنسان يخرف عندما يهرم - قالت مطلقة ضحكتها الهازئة.

كان العجوز زنتاى يلتقى أستر كل سبت فى مقهى " فيدام" (الضاحك). كان له رخصتان صناعيتان لتجهيز مصاريع النوافذ ويعمل لديه عاملان ، ويقتصر هو على السفر فى البلاد لتجميع الطلبات. كان دخله كبيراً. ويدفع أجراً مرتفعًا للعاملين لديه. اشترى لحفيدته دراجة ، ولعبة قطار وحاجيات كثيرة. وأعطى أستر مائة فورنت فى كل لقاء لهما. ولامها على نحافتها وتوترها. وحفزها على ألا تأسف من أجل زوجها السكير ، لأنه لا يستحقها ، وأجهرت هانيلكا أنها غير آسفة عليه وأنها تمقته ، وتعتبره نافلاً فى حياتها ، وأنها لا تراه إلا مرة شهريا حين يدفع الفورنتات الثلاثمائة نفقة ابنه...

صار العجوز زنتاى متعبًا. تثاقلت حركته ، واشتدت التجاعيد فى وجهه ، لكن عينيه البنيتين ازدادتا ألقًا. ولم يطرأ أى تبدل على شعره ، فلم يعثر فيه على شعرة بيضاء واحدة. وكان يسرحه إلى الوراء بعناية فائقة. لم يثرثر عن النساء ، والمغامرات ، والمكاسب المرتقبة. شرب بضع زجاجات من البيرة ، وقص لأستر عن الأيام العصيبة والمخيفة. وتحدث عن عمله بسعادة ونبرة متواضعة. لم يؤمن بالله ويكره الأديان ، والآخرة ، ورجال الدين والقساوسة ، لأنهم عالة على الآخرين ، ويعيشون ، هكذا ، بأفضل حال.

- إذا مت ، بعد خمسين عامًا- قال لأستر

- لا تدعى قسا يقترب منى. وإلا سأدب من نعشى وأطرده.

رفع سبابته محذراً ...

في بداية تشرين الثاني "نوفمبر" ارتفعت حرارة ابن ياني ، فصار قلقًا يبكي من الوهن. تناولته ماريا بيك إلى حضنها ، وفتحت فمه. ثم قالت: لا شيء يدعو للخوف. أسنانه تطلع. وأشارت بإصبعها على مكان السن الطالع.

بغتة في التاسعة ليلاً ساءت حالة الطفل وتقيأ. ثم بدأ جسده يرتعش: تصلب وشخصت عيناه. فقد وعيه. زعقت ماريا بيك ، ورمت نفسها على السجادة العتيقة وراحت تنتف شعرها .

يا إلهي ، بلاء الأسنان ، انتهى الولد. يا رب المسيح لماذا تأخذه؟

صرخ ياني:

– اسمعي! يا الله ، يا أمي! أرجوك أن تسكتي ، طبيب ، أسرعوا وأحضروا الطبيب.

– انتهى الأمر – صرخت المرأة العجوز ـ لا دواء ضد الموت. يا سيدي. يا ربي لم أنعم بحبك أبداً . لم هذه الزهرة الصغيرة؟ لم هذا البريء؟

أسرع شرش شاندور إلى المناوبة الليلية. أحضر معه فتاة شابة نظرت مرتعدة إلى الطفل :

لست طبيبة أطفال ـ قالت مرتبكة

– سأحمله إلى الطبيب المختص.

لفته بيروشكا جيداً ، ونقلوه بالتاكسى إلى مشفى الصليب الأبيض. بينما ظل هابتلر يانوش منكبا فوق طاولة المطبخ يبكى. صباح الإثنين تحسن الولد. بعد الظهر جاءت البنات للاطمئنان عليه. طمأنتهن ماريا بيك أنه سيخرج من المشفى بعد عشرة أيام. أحضرت أستر لأمها سمكًا مقليا ولأبيها الشوكولا.

صباح الثلاثاء مرضت ماريا بيك.

– سأموت. استدعوا الطبيب! أعطاها طبيب الحى حقنة عضلية وذهب. ولكنه عاد مجدداً بعد نصف ساعة دون دعوة ثانية. كانت قد حضرت هانيلكا التى رمقت أمها بنظرة متوسلة بينما طلب الطبيب سيارة الإسعاف.

– قلب ...

جلست ماريا بيك فى السرير. ألبستها هانيلكا سروالاً دافئًا ، وفستانًا ومعطفًا شتائيا أسود اللون. صححت شعرها ،وعقدته بالمنديل الأسود القديم. ورتبت فى كيس كأسًا ، وأدوات طعام ، وصابونا ، ومنشفة.

وصل الإسعاف. طلبت هانيلكا من الطبيب أن يسمح لها برفقة أمها. جلست فى العربة ، حاضنة المرأة ذات الوجه الناحل ، والجسد الذى فقد قواه فاستبد بهانيلكا هلع عظيم.

– سرعان ما نصل إلى هناك يا أمى.

أدخلت ماريا بيك مشفى أشتفان، وحصلت على سرير واطئ. أنهت هانيلكا كل ما يتعلق بأوراق دخول أمها وبحثت عن طبيبة القسم فى غرفتها وأعطتها ثلاثمائة فورنت. قالت المرأة:

– دقات القلب ضعيفة. ليس بوسعنا أن نفعل الكثير. سنسعى لإعطائها الأوكسجين فقد يفيد فى شيء.

مضت نصف ساعة ولم يحضر الأوكسجين. قالت الممرضة: الأجهزة معطلة ، يصلحونها. أسرعت هانيلكا نصف مجنونة إلى الطبيبة. توسلت: قولى لهم أن يصلحوها ، فغضبت الطبيبة ورفضت توسلاتها.

– رجاءً، لا يستطيعون أن يسرعوا في إحضار الأوكسجين ، لأنه ليس جاهزًا وعندما يجهز سوف يحضرونه بطبيعة الحال.

وبعد حين زودوا سرير ماريا بيك بجهاز الإنعاش.

حوالى الساعة الثانية عشر بدا شرش شاندور قادمًا من جهة بيت الدرج. أحضر مرقة الديكة. وقف طويلاً إلى جانب هانيلكا فى الممر دون أن يتفوه بكلمة ، حتى رحل بعدِ أن ألقى تحية الوداع بخفوت.

بعد الظهر وصلت غيزيكا ، وآغوتا ، وأستر ، ويانى ، وبيروشكا ، وآرفين عازف السوكسوفون. دس يانى نقودًا فى يد هانيلكا قائلاً:

– افعلى، تدبرى، وزعى على الجميع.

وبجسده الكبير استند على الحائط وراح يبكي بكاءً مريراً. وبعدها دخل كل منهم إلى الغرفة ليشاهدوا أمهم المستلقية فاقدة الوعي.

في الساعة الخامسة ذهبت أستر إلى "بست الصغرى" لتأخذ ابنتها من الحضانة. وفي السادسة بان في الممر هابتلر يانوش العجوز بظهره المقوس.

لم يسمحوا له بالدخول إلى عند زوجته، أجلسوه على المقعد، تحت مصباح أزرق، وقالوا له إنها نائمة ولا يجوز إزعاجها. في الساعة السابعة غادر ياني وبيروشكا المشفى إلى البيت. وبقي في الممشى غيزيكا، وآغوتا، وهانيلكا، وأرفين. وعند الساعة العاشرة مساءً صرفتهم الممرضة المناوبة بلهجة ودودة حازمة.

كانت غرفة الطبيبة قبالة بيت الدرج. دخل عازف السكسوفون إليها وطلب منها أن تبيت إحدى البنات قرب أمها. هزت الطبيبة رأسها رافضة.

– لا أستثني أحداً – قالت

– وهل تسمحين أن نتلفن إلي هنا؟

– إذا سمحت بهذا لن ينقطع الهاتف عن الرنين طوال الليل.

لأن في القسم كثيراً من الحالات المرضية الخطيرة، التي تقلق ذويها.

– أي أمل لنا إذاً؟

– أقصى حد صباحاً سينشأ الاستسقاء الرئوي ....

أطرق السكسوفونى برأسه.

وعند الصباح لم يجدوا الأخوة ماريا بيك فى غرفتها. فارقت الحياة الساعة الرابعة فجراً.

تسلل هابتلر يانوش الأب إلى الحانة ليسمع خبر وفاتها على الهاتف. وعندما وصل الإخوة إلى البيت كان مستلقيًا فى منزل ناظر العمارة ، فى حالة يرثى لها. تسارعت أنفاسه عبر فمه الأدرد. شعره منكوش ، بللت شاربيه الدموع التى هطلت من عينيه وكان يصرخ صراخًا مؤلمًا.

– لم تسمحوا لى أن أراها. لم أكن إلى جانبها: لم أمسك يدها الغالية. يا ربى لم يسمحوا لى. لم يسمحوا لى. ماذا فعلت بى يا ربى؟

انفجر يانى بكاءً.

– لا تفعل هذا بنفسك. إنك تمزق قلبى. آن أن تتفهم الأمر يا أبى.

جلس العجوز. هز رأسه:

– لقد قالت إنها ستتركنى وترحل. قالت لى. سيرقد جسدها فى الأرض. وتتركنى إلى الأبد. سأرحل بعدها عاجلاً. خذينى معك يا أمى الغالية. سأنزل أنا أيضًا إلى أعماق قبرك.

أعطاه طبيب الحى حقنتين وخاطبه بحزم:

– تماسك أرجوك. لا يجوز أن تسلك مثل هذا السلوك. وحين رأى عينى يانى الصفراوين أغلق الطبيب حقيبته ، وقال مرتبكًا:

– ستأتى أيام صعبة. سنحتاج إلى القوة.

أجلسوا بتلر العجوز على كرسى ، ثم قادوه من إبطه ، وصعدوا به الدرجات الموصلة إلى بيت الغرفة – المطبخ .

خرجت غيزيكا.وأستر لتدبير الجثمان .

فى الزاوية البعيدة من فناء المشفى يقوم بناء صغير قرميدى ، وعلى جانبيه صفصافتان هرمتان ، ينفتح مدخله الأصفر على ممر منار بمصباح كهربائى ، فى نهايته باب زجاجى خط عليه "اقرع الجرس".

فتح الباب كهل قصير ذو شاربين ، وثياب بيضاء ، ومريول ، يعتمر قبعة. قال:

– عليكما الانتظار قليلاً. يوجد الآن شحن. كانت فى غرفة الانتظار طاولة وحيدة ، بالية السطح ، ومقعد أحمر من نوع المقاعد التى ترى فى الساحات العامة. الأرضية بيتونية ، الجدران الأربعة بيضاء. والنافذة ذات المصراعين تبث الضوء. كانت السماء قاتمة ، والمطر يتساقط ، والإضاءة خفيفة. بعد حينَ دخل الكهل ، وخط المعلومات بقلم رصاص رفيع ، على دفتر أزرق. أخرجت غيزيكا من كيس نايلون الثوب المخملى الأسود ، والثوب التحتانى الأسود والجوارب السوداء ، والحذاء الطويل العالى الأسود.

قال الكهل القصير:

اعتدنا استخدام "بابوج" أسود ، بدل الجزمة لأن الساق قاسية. لكن إذا شئت أن نقص الحذاء الجلدى ... لكن ليس هذا لزامًا علينا ...

ناولته هانيلكا عشرين فورنتًا ، فتناول الكهل القصير الأغراض ووضعها فى منديل كبير.

أين السروال الداخلى.

لايوجد. أجابت غيزيكا مرتبكة: نسيناه.

أى تسريحة ترغبان.

أنصتتا لحظة ثم قالت غيزيكا: التسريحة القوسية إذا أمكن.

ثم انصرفتا.

وعند موقف الترام ودعت غيزيكا أختها الصغرى. وفى شارع "ألوى" دخلت إلى متجر أزياء، واشترت سروالاً داخليا مخمليا أزرق.

– من فضلك أعطنى إياه بغلاف جميل، لأنه للمرحومة أمى.

رتبت هانيلكا مسائل الدفن من الدرجة الأولى، آخذة بعين الاعتبار حالة أبيها السيئة، فدفعت ثمنًا لقبرين متجاورين ، ليرقد الأب والأم جنبًا إلى جنب فى سلام الأبدية.

بدت هذه الرغبة صعبة المنال، لأن كلفة قبرين، وجثمان منمق وعربة خيول زجاجية ، تزيد على خمسة آلاف فورنت. فضلاً عن كلفة الأقواس وحاملى التابوت ، والقس ، وحفارى القبور ، والمصور.

إن المساعدة الفورية من النقابة عنت الكثير. إذ حصلت هانيلكا على ثلاثمائة فورنت، وأستر على أربعمائة فورنت، وياني على ستمائة، وبيروشكا على ثلاثمائة ، وغيزيكا على ستمائة فورنت. إضافة إلى أن العمال زملاء غيزيكا قد جمعوا ألفًا وخمسمائة فورنت من الورشة. ودفع صندوق التقاعد للأرمل هابتلر يانوش أربعمائة فورنت. وأكمل ما لزم من نقود عازف السكسوفون أرفين.

أوصت هانيلكا على بطاقات النعي المؤطرة. وعلقت واحدة على المدخل. وأرسلت البقية معنونة إلى أصحابها. واشترت بيروشكا مناديل مزخرفة ووزعتها على أفراد العائلة.

احتاروا فيما هم فاعلون بأبيهم. بح صوته. واستلقى على الصوفة ، متقطع الأنفاس. وقد شعت عيناه ألمًا حارقًا ، انهمر على شكل دموع لا تنقطع. ظل ياني إلى جانبه:

- استرح يا أبي. أرجوك أن تستريح.

لم يجب العجوز. كان وجعه الداخلي الصامت أصعب من أن يلفت اهتمامًا إلى جانب أنينه المسموع ، عارض عازف السكسوفون فكرة خروجه إلى المقبرة مقترحًا:

- أعطوه منومًا قويا. قد يوبخكم فيما بعد ، حين ترجعون من الدفن ، لكن التوبيخ أرحم من نوبة قلبية تقضي عليه.

وولولت بنات هابتلر حائرات ، ولكنهن أجهرن أخيراً بأن ليس من حق الجميع أن يمنعوا والدهم من الوداع الأخير. قالت غيزيكا:

– أمى أيضًا فى انتظاره. كانت العائلة ملتمة الشمل دائمًا ... والأجدى أن نفطن إلى ذلك.

أما طبيب الحى فقد وافق عازف السكسوفون ، واعتبر من الخطورة تفتيق الجروح مجدداً عند الدفن. لكن بان على وجه غيزيكا الجافل أنها وافقت. فقالت:

– إذا شئتم ، أعطيه قبل الانطلاق حقنة مورفين ، ويبقى إلى جانبه من يعتنى به.

ثم ناقشوا إمكانية نقله بالتاكسى برفقة القسيس ، لعل هذا يمنحه قوة ، ويخفف عنه من أوجاعه عبر الطريق الطويل.

استعارت البنات معاطف ومناديل ، وحقائب سوداء. بينما خاطت آغوتا شرائط الأذرعة. ووزعت منها لخالتها وعمتها فوضعها الجميع متفاخرين.

أما مسألة الأحذية فتدبرها يانى الذى لمع أحذية الجميع بالأسود.

تبدلت قدود فتيات هابتلر خلال هذه الأيام القليلة. فتقوست ظهورهن. وتباطأت حركاتهن ، وصارت وجوههن وجوه عجائز ، فشبهت ثلاثتهن ، طبق الأصل ، بأبيهن. ولم تجف الدمعة من عيونهن. وظلت هانيلكا تذرع البيت الجميل ، بصمت وحركات حائرة. بينما كان عازف السكسوفون يتولى العناية بنظافة الطفل. مد له الفراش وأخلده للنوم.

– سألت هانيلكا : صرت بلا أم؟

جلس السكسوفونى على السجادة ، أمسك يد المرأة الناحلة ، وقبلها. صمتا قليلاً ، حتى قال الرجل بخفوت:

– غداً حين تودعينها ، سترين فى جثمانها وجهًا غريبًا ... على أن أقول هذا ... رمقته هانيلكا ، بنظرات شاحبة ، وغضب شديد. سحبت يدها ببطء، وأطبقت شفتيها باندفاعة وحزم. لكن لم تجرؤ أن تتفوه بكلمة.

قبل أن تدق العاشرة عبروا مدخل المقبرة. كان فى الداخل على الناصية ، أمام المنصة كل من غيزيكا وأستر ، وآغوثا وبيروشكا. التفتت هانيلكا إلى أختها الكبرى:

– هل كنت فى الداخل؟

هزت رأسها أستر بإيجاب. عندئذ دخلت لرؤية أمها. ولكنها سرعان ما عادت. هزت رأسها. ووقفت إلى جانب عازف السكسوفون.

– ليست هى – بإكية – ليست هى.

عانقها السكسوفونى دون كلمة.

هطل مطر تشرين الثانى "نوفمبر". وجاءت الوفود متتالية من الأقارب ، والأصحاب ، والعمال والمعارف ، تحمل الزهور وأقواس الغار.

وجاء سكان البناية فى شارع فوفاروش ضمن مجموعة واحدة. شابات بيلا وشرش شاندور حملا قوس الأزهار الصفراء الحية يتقدمهما أولاد البناية ، بقوس أبيض ومن شدة بلل وجوههم وشعورهم بالماء ارتبكوا فأطبقوا عيونهم وتقدموا مبتسمين.

أحضر العجوز زنتاى وابنه قوسًا من الورد وزهر البخور. (سيكلامن). فاكتظ المكان بها حتى صار من العسير وضعها بين الشمعدانات المشتعلة فتكدست فوق بعضها. قبلوا بنات هابتلر، وأخذ زنتى أستر من ذراعها. وتقدم المصور بمعطفه المطرى الرمادى وسألهم إذا ما كانوا يرغبون فى شراء الصور التذكارية التى التقطت فى حفل التأبين. أجابه السكسفونى بهدوء ، بأن يذهب إلى الجحيم. لكن غيزيكا لم تدعه ينصرف.

– سيبتهج أبى بالصور – قالت برقة – وقد يرسل بعضها إلى بروغتش. عرض المصور صوره: مجموعة الهارمونيا بسبع لقطات: الجثمان ، إنزال التابوت ، رفعه إلى العربة ، التابوت قرب الحفرة ، إنزال التابوت ، القبر والشاهدة. القبر وحوله العائلة المنكوبة.

أوصى السكسوفونى على عشر نسخ لكل منها وناوله ثلاثمائة فورنت على الحساب.

لم يبق إلا دقائق قليلة حتى العاشرة. ملأ زائرو الجثمان المكان ، فاصطفوا كى يلقوا على الميتة ، نظرة الوداع الأخيرة ، حتى عربة

الخيول الرباعية كانت تتهادى بطيئة قرب المدخل. لكن يانى وهابتلر ، والقسيس لم يصلوا بعد. بكت الفتيات حائرات ، لعل حدثًا ما قد وقع ، وتساءلن ماذا بوسعهن أن يفعلنه ، فحفل التأبين يجب أن يبدأ بدقة وان تسير أحداثه حسب خطة مقررة ، ولا يجوز تأخيره ، أو إعاقته.

أرادت غيزيكا أن تشاهد أمها ثانية. طلب السكسوفونى مكانًا إلى جانب التابوت لم تبد رأس ماريا بيك أكبر من قبضة رجل صغيرة. أطبقت عيناها وقرئ على وجهها أشد الغرابة ، وصلت إلى التاكسى فى اللحظة الأخيرة. سار هابتلر يانوش العجوز ، محنيا ، بخطاه الوئيدة خلف القس حتى باب الملبس (غرفة اللباس). وكان يحمل صندوقه الخشبى الذى يحتوى على الرداء الأسود والقبعة ، وكتاب المزامير ، والإنجيل ، والمنشفة ، وقطعة الصابون.

اصطف أفراد عائلة هابتلر إلى جهة من الجثمان يبكون منتظرين قدوم القس. كان القس رجلاً هرمًا ، تلامع شعره الأبيض تحت القبعة السوداء الصلبة. توقف عند مقدمة الجثمان ، وفى يده الكتاب وانتظر انقطاع الهمسات المتناثرة ، هنا وهناك. عندئذ رفع رأسه ، وبصوت نقى ، شديد البأس قال الكلمة التالية:

أيها المحزون! نقفَ هنا عند جثمان أختنا ماريا بيك. لا أحد يبكى. محبة الله لا نهاية لها ... مؤلم أنها من الآن لن تكون بينكم. لكن عليكم أن تحسوا وتدركوا تمام الإدراك أنها صارت قريبة من ربها. دعاها إلى جانبه ، لكى يخلصها من معاناتها.

وهى الآن تخدم ، فى صفوف الملائكة ، رب السموات ، وعيد ميلاد المسيح يقترب على الأبواب. المسيح الذى يبدل روحنا ، والذى عبر موته مصلوبًا نبلغ رحاب السماوات العلى. لا تخافوا! إن روح أختنا الراقدة هنا كذلك ، تأخذ نصيبها فى هذا التبدل ... يا عيسى المسيح ... تقف هنا عائلة الفقيدة: زوجها الذى عاش برفقتها. أولادها الأربعة الذين أنشأتهم بشرف. شيعوها ... زوجها ، أولادها ، أصهارها ، كنتها ، أحفادها ، أقرباؤها ، ومعارفها. وكل الذين جئتم لكى تمنحوها اندبوها ... وليبق فى قلوبكم محل لمحبتها التى من عند الله دائمًا وأبدًا.

راكعًا ، دس هابتلر يانوش العجوز وجهه فى منديل الجنّاز المغسول بالدمع ، وأجهش بالبكاء.

حاول يانى إسناده خوفًا عليه من السقوط على الحجارة

– يا رب. تركتنى ورحلت. يا ربى. تركتنى ورحلت.

– أرجوك يا أبى. أرجوك .

وانفجرت البنات هن الأخريات ببكاء فجائعى ، موجع. حتى شملت نوبة البكاء الأقرباء والمعارف.

عدل القس الشال حول عنقه متقيًا الرياح التى هبت صقيعية واخزة بين الحين والحين. رفع ذراعه فلمعت يده بارقة بين الألوان السوداء. وقال:

– لنرتل يا إخوتى. المزمور الستين. رتلوا بخشوع وسيمنحكم الله الخالد من لدنه الرحمة.

وبدأ الغناء ، وغنى معه الكثيرون. حين انتهت مراسم الترتيل رفع حاملو التابوت أقواس الزهور ودبت الحركة في الجمع الغفير من الحاضرين ، وأمسك ياني بأبيه الواهن ، لكن القس أوقف الجميع بصوته الحاد:

– لنردد معًا قانون الإيمان المسيحي .

– اجتماع.

خرس الجميع. وتوجهت عيونهم على القس العجوز صاحب الرداء الأسود وبيده الكتاب المقدس وشيئًا فشيئًا تكاثر وراءه المرددون بصوت واحد:

– أومن بالله الواحد الأحد ، خالق كل شيء ، عالم الغيب حاكم الأحياء والأموات آمين.

آمين. قالها الجميع. صارت البنات عند الجثمان الخالي. وتشالا يولي قرب هيرش أشتفان في الجهة المقابلة وتحت الستارة المخملية الموشاة بالفضي ، وقفت آنا كوفتش مطرقة. فلاش كاميرا التصوير يبرق في مختلف الجهات. حين أخرجت ماريا بيك إلى عربة الخيول الزجاجية ، طلب زنتاي العجوز من القس أن يختصر كلمته فوق القبر. ألا يطيل الدعاء لأن العجوز هابتلر في حلة يرثى لها. ومما قاله له:

– للأسف ، سنستثني آيات الكتاب الرائعة. وهذا يجنب مقامكم عبارات التأنيب خاصة وأنكم تفضلتم بمباركة نفوسنا ، بكل ما أوتيتم من حماس رفعه القسيس دون أن ينبس بكلمة.

العجوز زنتاى قاد هابتلر العجوز وسار به خلف العربة ومشى كالأعمى لا تقوى على حمله قدماه اللتان ما تنفكان تغوران بالوحل ، فتلوث سرواله بالطين واغتسل شعره بالمطر الذى تابع مسيله ، بخيوط رصاصية من رأسه إلى عنقه.

حين لمح زنتاى العجوز حفارى القبر يقتعدون الصفائح الحجرية ، وكومة التراب المحيطة بالحفرة ، توقف فجأة. خرج من بين الصفوف وانطلق بخطوات سريعة عائداً باتجاه مخرج المقبرة.

أنهى القس مهمته بسرعة. ووريت ماريا بيك الثرى. ولم تمضِ دقائق قليلة حتى تحلقت العائلة حول القبر المغطى بالزهور. وبرق ضوء الكاميرا للمرة الأخيرة. قام السكسوفونى بإعطاء الحفارين النقود. وأرسل فتى صغيراً من أجل تاكسى. وزعت آنا كوفتش قبلاتها لكل من بنات هابتلر. وعلى مبعدة من القبر ، عند بركة بيتونية لخزن الماء صيفاً وقفت نساء شارع "تاج فوفا روش" يكلن الشتائم على تشبالا يولى ويلعنها ، ووصفنها بالعاهرة القليلة الحياء لأنها جاءت تقلق راحة الميت.

دفعها شابات بيلا من ظهرها بقوة قائلاً:

– انقلعى من هنا. دعى هذه العائلة فى الحداد وشأنها ، فتلت رأسها تشبالا يولى مذعورة وراحت تبحث عن هيرش أشتفان. لكنه كان بعيداً فتعذر عليها أن تراه. كان يدخن مع زنتى جورج ، ويتحدثان تحت شجرة. فما كان إلا أن ألقت نظرة جافلة على الوجوه الغاضبة ، وبدأت

بكاءها المرير. اقترب منها يانى وجال بعينيه الصفراوين على جمع الحاضرين وخاطبهم بهدوء:

"لا يحاول إيذاءها أحد. لقد أحبت أمي كثيرًا. وصلت إلى التاكسي. جلست هانيلكا قرب السائق ، وجلس القس في الخلف ، ووقف هابتلر يانوش الأب عند الباب يوزع بأصابعه الثلاث قبلاً نحو الحاضرين ، حتى ردعه يانى. عندئذ سعل ، واعتمر القبعة وجلس إلى جانب القس. فى طريقه إلى بيت هانيلكا. لكنه فى المساء كان مشوقًا إلى بيته فى "ناج فورفاروش".

المصيبة تلو المصيبة. من شيم المصائب أن تجر وراءها المصائب. ومن شيم الأحزان أن تتلوها أحزان وحداد. تكاثرت البلوى وبدأ الخوف يتضخم.

ولم تنفع منهم حيلة. منذ اليوم التالى للدفن صارت غيزيكا تخرج لزيارة قبر أمها فى "راكوش تور" حاملة باقات الزهور عصر كل يوم بعد نهاية دوامها. وكانت تدعو أباها لهذه الزيارات لكن الإخوة لم يسمحوا بخروجه. اهتزت صحة العجوز ، صار نحيلاً ، وأهمل نفسه ، وترك لحيته تطول. توعك قلبه مجددًا وعادت يده إلى اعتصار صدره. وضاقت أنفاسه بين الحين والحين. أعطاه طبيب الحى حقنة. ووصف له النيترومين. لكنه فقد رغبته وإرادته فى تحمل الآلام. فكان طيلة النهار ساهمًا فى صورة ماريا بيك الفوتوغرافية ، مستذكرًا محاولة الانتحار. وترك العنان لنفسه ومشاعره وآهاته الموجعة للقلب ، ينغّص بها حياة الأسرة.

– أسمعها تشكو – قال دافنًا وجهه في المنديل المخطط – وتقول: الرياح جليدية ، وأنا بردانة ، لأنكم جئتم بي من سريرى الدافئ إلى هنا ... إلى المقبرة الباردة.

سأغطيك، وأستلقي إلى جانبك وأضمك إلى الأبد يا أمى الغالية الحلوة.

في موقف كهذا كانت البنات تبكى ، وكانت عينا يانى تطفح بالدمعات ، وهو يضغط على أسنانه.

– أرجوك يا أبى لا تفعل ، بحق الله لا تفعل هذا بنفسك!

لم يتركوا العجوز وحيداً لحظة واحدة تناوبوا على البقاء إلى جانبه ليل نهار.

كان يخاف من عازف السكسوفون ، ومن ابتسامته الودود الغريبة، إذا طلب إليه أن يأكل أكل بشهية. وإذا كانا معًا ، وحيدين في البيت ، لم يبك بل يضج قائلاً: إنهم يومًا أوكلوا إليه تحفًا في متحف الآثار إلا أنه تعفف عن مغريات العالم. وبقى شريفًا لم يشأ أن تطول يده ، ليحظى بأية غنيمة ، لا يستحقها.

وهذا ليس من باب المفاخرة بالنفس، وأنه لم ينطق يومًا بكلمة كاذبة وأنه كان يسلم زوجته كل مدخوله ، ويشرب النبيذ في الأعياد الكبيرة فقط وحسب الأصول. سكر مرتين - حسب ما يذكر - في حياته كلها .

مر فى حفل عماد يانى. ومرة ثانية بسبب خلاف مع زوجته عندها خرج من البيت وظل يشرب حتى الثمالة.

واستأنف الحديث قائلاً:

– يانى ، وغيزيكا ، والبنات كلهم يظنون أن بينى وبين آنا كوفتش علاقة ما. لأن أمكم اعتقدت ذلك ، وكان من العسير إخراجه من رأسها.

هز السكسوفونى رأسه:

– لا أظن أنهم يولون ذلك اهتمامًا.

أطرق العجوز:

– أكذب إذا ما قلت إننا لم نمارس القبل ... لأن آنا كانت فتاة مريمية ، متدينة تؤمن بجهنم ، لا ترضى بأكثر من هذا ، أما عند وجود امرأة أخرى فى حياتى. فأنا لا أقول إنها لم تكن. بل كانت. لكنى لم أنفق على إحداهن أكثر من كأس أو كأسين من البيرة. وليس على حساب أسرتى.

جادا ، طمأن السكسوفونى العجوز ، قائلاً له بأنه رجل مبارك "قديسيا". وما تبقى من أمور ليس له أى تأثير ، فلا داعى لذكره أبداً.

أمضوا حفلة عيد الميلاد فى بيت هانيلكا. عصراً وكان المطر يهطل ، خرجت الأسرة بكاملها إلى المقبرة سواهما: العجوز وعازف السكسوفون ، اللذين مكثا فى البيت لتزيين شجرة الميلاد الصنوبرية.

أمضت غيزيكا ، وأستر ، وبيروشكا وقتًا طويلاً في المطبخ يساعدون هانيلكا. ولاعبت آغوتا الأولاد. وكان العجوز جالسًا على كرسي يتباكى ، حين وصل زنتاي جورج ثملاً ، حاملاً لعبة لابنته. ساعده عازف السكسوفون في خلع معطف الجلد الصناعي الأخضر. أخذ قبعته ، ثم طلب من ياني أن يعتني بصهره ، لأنه أصبح فاقداً لمزاجه وصبره من الإنسان المعقد ، ورائحة نبيذه الكريهة.

كان زنتاي بثياب صيفية رثة ، وصار يتضاحك ويضج ، ويتألق بقميصه الأبيض الناصع. ومن جملة ما قاله: إن له غرفة جميلة ، وإنه يدرس كثيراً ، وإن امتحانات الثانوية ممتازة. والآن جاء دور المهمة الكبرى. الجامعة ، التي لا يثنيه عن دخولها أي أمر ، ولا يقف في طريق الدبلوم أي عائق مهما يكبر أو يصغر ، وإنه مستعد للتضحية بأغلى ما عنده من أجل الحصول على الشهادة حتى لو اضطر للمقاتلة حتى الموت .

ابتسم ياني. وسأله:

– وستتخلى عن الحانة كذلك؟

– لا علاقة لك بهذا – أجاب زنتاي وبعد انتظار قال:

– تظن أنني أخافك وأنك ترعبني... لكن الأمر غير ذلك ... لو رحت الآن تصرخ بأعلى صوتك ، وترفع قبضتك نحوي ، لا يهمني. وسيكون ردي ضحكة عالية. أرجو أن تأخذ هذا مستقبلاً بعين الاعتبار.

– أنت مجنون – قال، رفع عن الرف تمثالاً صغيراً لبوذا:

– لو رفعت قبضتي نحوك... لكن أنت لا يجوز ضربك لأنك قضيت على نفسك بنفسك.

رن عازف السكسوفون الجرس في الغرفة المجاورة فدخل الجميع. وعندما أطلقت آخر شرارة ضوئية قبل الجميع هابتلر العجوز. ووزعوا هداياهم على بعضهم بعضاً وتحلقوا حول المائدة للعشاء.

حمل زنتاي ابنته الصغيرة وودعهم مسرعاً. في اليوم التالي سطعت الشمس ، وكانت السماء زرقاء صافية. أخذت أم ميلكوت سوها الولد إلى "راكوش فالغا". وخرجت عائلة هابتلر للشكر. كانت خطبة القس العجوز جميلة. استذكر فيها ماريا بيك وصلى لروحها . تناولوا الغداء في شارع "ناج فوفاروش". وعكفت الفتيات ، بعدئذ ، يحسبن كلفة الدفن والجنازة . وكم نصيب كل واحد ولم تكن العملية سهلة ، إذ من الصعب تذكر كل التفاصيل والمصروفات الصغيرة. وقد تولت هانيلكا كتابة القائمة الطويلة ، حتى أصابها الإعياء فألقت بقلم الرصاص أمام أستر. وقالت مرهقة:

– دوخي أنت!

لكن أستر لم تسرها الفروقات الحسابية التي بلغت مئات الفورنتات. فكان ذلك مثار جدل وصراخ بين أفراد الأسرة. مما جعل

هابتلر العجوز يغلق باب المطبخ تجنبًا للفضيحة أمام الجيران. يانى رأى الأمر بسيطًا ولم يعنه بشيء. وظل يلاعب ولده الصغير فوق الصوفة. حل المساء حين نادته بيروشكا لمساعدة البنات لأنه معنى أيضًا بالأمر. أجاب بأنه سيدفع كل ما يترتب عليه من نقود.

- رفعت بيروشكا كتفيها.

- إنهن يحسبن منذ الظهيرة ، دون نتيجة. إمسكت أستر رأسها وقالت بفجاجة :

لا تخافى، لن نتجنى على أحد. ليس من عاداتنا.

- ولا من عاداتنا - أجابت بيروشكا وخرجت إلى المطبخ.

رنا يانى إلى أخته الصغرى ، ولم يتفوه بكلمة ، كان العجوز هابتلر خلف المدفأة الأسطوانية ، جالسًا على صندوقه العسكرى القديم البالى قطب جبينه ، وراح يتمتم متأوهًا أنه لم يتسنَّ له أن يلقى على زوجته النظرة الأخيرة وأنه غاضب غضبًا شديداً على ميلكوت سوها ويشكو لعازف السكسفون بصوت متألم:

- فى رأيى ، إن سلوكه هذا سلوك بشع. فأثناء وفاة والده حضر دفنه كل أفراد عائلتى ، حاملين الزهور إلى قبره.

هدأه عازف السكسوفون. الآن من غير المجدى التركيز على مثل هذه المسائل ، الكثيرون قد ألقوا عليها نظرتهم الأخيرة وكان من العسير عد الأقواس والأزهار على قبرها. ضم العجوز عينيه قائلاً:

- المسألة ليست كذلك. إذا التقيت ميكلوش سوها سأقول له إنني أعتبره شخصًا تافهًا. وإذا وجدت أن رده على كان جارحًا فلن أرد عليه حرصًا على سلوكي اللاحق لأنني يا بني ، أستطيع أن أكون أيضًا ، طيبًا ورديئًا ، يا ويل من يزعجني لأنني ، عندئذ ، لا أرى أحدًا في العالم. كان وجهه رصينًا ، عابقًا بالتهديد وهو ينظر إلى يديه المتشابكتين. أنهت البنات الحسابات ، وبقي على ياني اثنا عشر فورنتًا يدفعها لهانيلكا. وعلى أستر ثمانون فورنتًا يدفعها لياني. وعلى غيزيكا مائة وأربعون دفعتها حالاً . وخطر لغيزيكا أن يدفعوا لهانيلكا كلفة عشاء عيد الميلاد لأنها لم تعد بالفلليرات القليلة.

لكن السكسوفوني رفض الفكرة معتبرًا إياها فكرة بشعة ثم شلح على زوجته المعطف الرملي اللون ، وقال منزعجًا: - لنذهب . لدى حفلة ليلة الغد. آن لي أخيرًا أن أنام. لكنه لم ينم تلك الليلة.

كانت السماء مربدة ، واعدة بالثلج. أسرعا خطاهما في شارع "بيركوتشيش" ، حتى وجدا "تاكسي" عند زاوية شارع يوجف الدائري.

في المنزل أعدت هانيلكا الحمام الساخن. وبعد الاستحمام جلسا ، بالبيجامات ، للعشاء. تحدث عن مشاريعه ، وأنه بحث عن برنامج جديد عصري جذاب يتيح له المشاركة في مهرجانات خارجية. خطر لهانيلكا شعر بابتس وكانوا قد قاموا بأدائه في المعهد. دندنته.

– جميل الوقع . احتفالى. لكن المرافقة الهرمونية ، والأروغون وربما بيانو مع غيتار.

فى هذه الأثناء رن جرس البيت. قام عازف السكسوفون لفتح الباب فى الممر البارد وقف زنتاى جورج بمعطفه الأخضر ، وقبعته الرمادية. اعتذر بلطف وأرفق اعتذاره بابتسامة: وقال:

– مات أبى. تسكعت طويلاً فى المدينة. فكرت فى أن أتدفأ هنا قليلاً. دمعت عينا هانيلكا :

– يا إلهى! صعقتنا بهذا النبأ.

واندست فى ردائها المخملى الأزرق الغامق ، الموشى بالبرتقالى ، والذى بلغ حد ركبتيها ، وخلعت بابوجها وتكومت فى الكرسى. كانت ترتعش من البرد. أخرج السكسوفونى زجاجة كونياك لكن لم يتمكن من فتحها ففتحها زنتاى. وسكب بالأقداح الثلاث. أشعل سيجارة. وبعد صمت قصير قال:

قسماً بالله كنت أعرف منذ الظهيرة أن شيئًا ما سوف يحدث. تلفنت له مرتين . مرة فى التاسعة ومرة فى الحادية عشرة. لكن لم يرفع السماعة. ذهبت إليه فى الثانية عشرة. رننت الجرس فلم يفتح الباب. شعرت برائحة الغاز ، فأيقنت أنه ليس على قيد الحياة. لم أجرؤ على الدخول وحدى. ناديت ناظر العمارة بأن يأتى إلى الطابق الثالث. جاء

برفقة الشرطي واقتحمنا - الباب. كان العجوز جالسًا فوق جلاس المرحاض ، مستندًا برأسه على الجدار. هكذا كانت ميتته. فتحنا النوافذ من شدة رائحة الغاز .

– هل انتحر؟ سأل السكسوفوني .

– كلا – أجاب بحزم

– احتمال الانتحار ملغى تمامًا . للأسف كان ثملاً. وضع اللحم في الفرن. فتح صنبور الغاز ونسي أن يشعله. هذا رأى الشرطة أيضًا .

ساد صمت.

أخرج زنتاى مرآة جيب صغيرة. عدّل ربطة العنق. ثم لف شاله الصوفي الرمادى حول عنقه. قال:

– سأستقل الترام بعد ساعة. إلى الجحيم. سأمشى فى المطر ، والوحل.

– نم عندنا – قال السكسوفونى.

لم يشأ أن يبيت هناك. قال إن آلة التصوير فى "بست لورنس". سيأخذها صباحًا إلى متَجر الأدوات المستعملة الهندسية ، وقد يحصل على ثمنها ثلاثة آلاف فورنت ، من أجل الدفن. خطت هانيلكا إلى النافذة. سحبت الستارة القماشية الصفراء. كان الثلج يندف ، ويغطى الأرصفة.

- لا تذهب، يسقط الثلج جنونيا ويغطى الشوارع. لا تذهب، ستتزحلق قدماك، أضع لك مرق اللحم ، ومرق الديكة الساخن، على طريقة أمي، والملفوف المحشى....... وتأكل الفطير مع الشاى بالروم.

- سأذهب إلى البيت، وسأكون حذراً فى الشارع ، وفى البيت لن يهددنى أحد. لا أقوى حتى على الشرب ، فى جيبى خمسة فورنتات ، وإذا أرقت ، ولم أستطع النوم ، ستسلينى صورة ابنتى المعلقة على الحائط قرب السرير.

قبّل هانيلكا وصافح عازف السكسوفون ورحل. ولم تمض عشر دقائق حتى عاد.

- أخاف.

ضحك. كانت قهقهة عالية منه ، أجفلته ، فسكت. ثم جفف وجهه المبلل بمنديل فى جيبه.

- اهزآ منى. قسماً بالله أننى مدعاة للضحك. لكن هذا ما جرى.

قدمت له هانيلكا مرق اللحم ، وملفوفًا محشبيا . أكل بصمت. استماحهما العذر للحالة العصبية المخبولة التى تنتابه. وبهدوء تمنى لهما ليلة سعيدة ودخل إلى الغرفة الأخرى لكنه لم يخلد إلى النوم ، بل ظل يقوم ، ويقعد.

أنصتا له طويلاً ، حتى جلست هانيلكا فى سريرها غاضبة ، وأشعلت مصباح الكلوب.

- سيبقى ساهراً حتى الصباح. قدم له الكونياك. يخدر وينام.

لم تعجب الفكرة عازف السكسوفون. تقديم الشراب لزنتاى مسئولية كبيرة. لأنه إذا ثمل عنيف ، كثير التعليق. إما أن يبكى وإما أن يتعارك ، فلا يمكن كبحه. لكنه فى النهاية ناداه. شرب بوقع هادئ نصف لتر الكونياك ، ولم يبد على عينيه أو صوته أثر لذلك. ولم يزعجه أن السكسوفونى لم يسكب ويشاركه الشرب ، بل أجهر أن لا داعى لذلك لأنه سيحتسى الزجاجة بأكملها. جلس بقميصه الأبيض حول الطاولة ، ومجّ السجائر واحدة بعد الأخرى حتى أعقابها وبين الحين والحين كانت تعتذر هانيلكا بابتسامة رصينة وحزينة ، على هذه الليلة المجنونة. استلقت هانيلكا فى السرير وسحبت الشرشف عليها حتى العنق. وأجابت مبدية أسنانها البيضاء ، - بأن لا يتغابى فلا داعى لاعتذاره. وتطرق أيضًا إلى ذكر فنان تشكيلي يدين له زنتاى بمائة وخمسين فورنتًا. ثم تطرق إلى نتائج مسابقات الطيران الفضائى المدوّخة.

- سأحلق يومًا بين النجوم - قال بابتسامة ساخرة من نفسه - لأنه السفر إلى الأعلى لا يحتاج استمارة ، أو جواز سفر. أدفع التكاليف وأحلق إلى كوكب بعيد. وتحدث عن كتاب مهنى يطالعه كل مساء. يتعلم منه دروسًا فى الطبخ.

ملأ السكسوفوني الكأس متعبًا وقال:

– اشرب يا فتى.

وفي الحال كان يتناول الكأس ويتضاحك خجولاً كأنما يقول: لا فائدة من إضاعة الوقت فلن يدوخني الكحول. وبعد حين صار يتلعثم بالكلام ، وينسى تتمات أفكار بدأ الحديث بها. عندئذ يقطب حاجبيه بشدة هازا رأسه هزات ناعمة. شكا بمرارة من رئيس قيم الأحوال الشخصية لأنه لم يسمح له بالانتساب إلى الجامعة. ورأى في ذلك تقصيرًا جائرًا. فهو منذ اثني عشر عامًا في المؤسسة ، وحاز فيها على كثير من الجوائز وأخيرًا يتنطح له بالقول: كن سعيدًا ، يا زنتاي إذا لم تأخذ مكان غيرك من العمال والفلاحين الشرفاء. وهنا تألقت عيناه :

– ألا يعني هذا أنني من غير الشرفاء ، أي من الفاسدين. حين سكب السكسوفوني القطرة الأخيرة من الزجاجة نظر إلى زوجته فرآها تكبو ، ويتعذر عليها أن تفتح عينيها ونظر إلى زنتاي الذي بادره:

– رائحة غاز.

سدى حاولا إقناعه بأن لا وجود لرائحة الغاز هذه. بل فتل رأسه وخرج يتفحص ما إذا كان صنبور الغاز مغلقًا. رجع إلى الطاولة. وبعد حين أمسك الزجاجة الفارغة وأدارها أمام عينيه. ثم ضغط جبينه.

– لقد كان دائمًا يعتني بتسريحة شعره مراقبًا كثافة الشعر على رأسه ، أقسم بالله اليوم رأيته.

دمعت هانيلكا. بينما أخرج السكسوفوني بيجاما نوم سوداء اللون وقدمها له غاضباً.

- وشعرى أنا أيضًا بدأ يخف - التفت الآن إلى هانيلكا حزينًا - قلعت أختك الكبرى ملء قبضة يدها منه. أبى قال لى أن أذهب إليها أقبِّل يدها لأننى لن أرى أشرف منها امرأة. لكننى لن أعود. يكفينى ما حصل لى منها. أفضل لى أن أتعلم الطبخ ، وأنظف الآنية ، من أن أراها أمام وجهى.

- وأنت لا تهمها - قالت هانيلكا

- والآن حان وقت النوم.

استعد زنتاى. قطب جبينه ، وضغط عليه بسبابته. تمتم شيئًا وأجهر أنه لا يريد التحدث عن زوجته. لا شك فى أنه لم يخنها ، خاصة وأنه يخاف الله والعقاب على نحو خرافي ، ويخيفه فى ذلك أن يمرض ، ويموت ابنه الثانى. طبعًا إنه ذو طبيعة حساسة ، وإنه ابن أبيه. فإذا ما ضاجع امرأة ، فسوف يضاجع كل محظيَّة بعدها. على أية حال لا شأن لأحد فى هذا لأنه قضيته الخاصة. ثم طلب من السكسوفونى أن يوصله إلى المرحاض حيث ، عند الباب ، سقط جسداً لا تحمله ركبتاه المتراخيتان مما اضطر السكسوفونى أن يطلب عونه فى قضاء حاجته هناك. خجل من هانيلكا واستماحها عذراً ، وبدأ يبكى ، وطلب منهما إشعال كافة مصابيح البيت أو يلقى بنفسه من النافذة. ركب هانيلكا الغيظ ، فصاحت به أن يسلك سلوكًا مهذبًا وأن يحترم وجوده فى بيتهما ويذهب إلى الغرفة الأخرى ويخلد للنوم. رفع زنتاى قبضتيه، وصاح:

--اسمعي! أرأيت في أي صندوق وضعوه؟ لا يشبه تابوتًا أبدًا. وملوحًا بذراعيه المرفوعين نعت الشرطي بالحيوان لأنه دعاه إلى الهاتف حينما أحضروا العجوز مسجًّى كالمسيح ، وكان مرغمًا على العبور فوقه.

ساد صمت. والآن صار وجهه مذعوراً ، ينظر حوله بارتباك.

– لم ينتحر – اشتد صوته

– قال لي سنمضي رأس السنة أيضًا ، معًا. سيشتري الكونياك ويحضر من الشارع الدائري فتاتين جميلتين ، و(نهيِّص) معهما حتى الصباح. أجل إذا ما كنت عنده في الليلة المقدسة سأستشعر تسرب الغاز... كان ينتظرني... وكان يشوي اللحم لي بالذات.

رفع وجهه الدامع نحو السكسوفوني، كأنما أراد أيضًا أن يقول شيئًا . لكنه اكتفى بأن لوى قسمات وجهه. انتشل البيجاما عن السجادة ودخل إلى الغرفة الأخرى، تناهى إليهما أنه يشعل الأنوار ، ويغمغم ، ويتأوه يضرب الوسادة ، ثم بدأ يصفِّر.."هيه...أيها السمَّاكون ماذا التقطت شباككم...؟"

عند مطلع الفجر دخلا إليه في الغرفة. استند بمرفقيه على النافذة المفتوحة ، وكان يصفِّر. ويغطي جسده العلوي ثلج فضي.

مضى الشتاء سريعًا ، حتى في شباط "فبراير" قيست الحرارة بعشر درجات. وبعد ذلك اعتدل الجو مشيراً إلى قدوم الربيع. وفي مصانع الحديد بدءوا يشرعون النوافذ. تسلَّم هابتلر يانوش الابن الآلة

فى السادسة صباحًا. زيَّتها وبدل سيورها. ثم أدار محركها. وبدأ بخراطة الألمنيوم.

فى الساعة التاسعة جاء إليه غروف ذو الشعر الأحمر والعينين المخبولتين. فالتفت يانى ناحية الضوء مغمضًا رموش عينيه.

– هل تتعهد طلاء غرفة الصف ـ سأله

– أجل – أجاب يانى

– صباح الأحد أبدأ. وأنتهى منها عند الفجر. فكر ذو الشعر الأحمر.

– ليس مجديًا استلام عمل حكومى لأنهم يطلبون الفاتورة.

هزَّ كتفيه ، مجهرًا أنه لا يخاف. لأنهم وعدوه بأن يدفعوا ستمائة فورنت من صندوقهم الخاص ، لقاء أن يقدم لهم عملاً متقنًا. ومن أجل هذا لا يشنقون أحدًا ولا يسجنون.

– قد يسجنونه؟ حرك عينيه الصفراوين.

– يفعلون خيرًا – قال ذو الشعر الأحمر – فى أقصى الحالات يفرضون عقوبة بعض مئات من الفورنتات.

انحنى يانى إلى أمامَ الراديatور ينضِّد الأعمال الجاهزة ، وينظفها مزيلاً نثارها الرطب بالفرشاة ، وخرج إلى الفناء. كانت الشمس تسطع. و"كلاين بيلا" يصرخ فى باب المستودع ، حاملاً بيده قصاصات الورق الزرقاء والحمراء ، وقد لمعت سنُّه الذهبية. يخاطب الجميع بضمير

المخاطب (أنت) دون أن يغضب منه العمال لذلك ، وهو السيد كلاين كما لقِّب ، على سبيل النكتة ، من قبلهم. سألوه ضاحكين كيف تسير تجارة التوابل ، وكم سعر قمع السكر؟ - بعشرين بنغو- أجاب وشتم طرّاد "أورو" لأنه لم يبدأ القصف فى نيويورك. ضحك عمال المستودع عاليًا. تبسم زنتاى جورج. كان يقف بينهم ، مرتديًا بدلة الخاكى الزرقاء الجديدة ، ومستنداً بظهره على جانب من الشاحنة.

كان وجهه قذراً ، ويلمع من العرق ، وشعره موشى بشعرات بيضاء. حين مدّ هابتلر يانوش يده إلى ذراعه، فوجئ. نظر فى وجه صهره. كان صامتًا صمتًا عدائيا ثم صدرت منه ابتسامة الثمل التى أغاظت أستر وأخرجتها عن طورها.

– تحية للبروليتارى – قال هازئًا وتبعها بانحناءة.

مقبرة الصدأ باحة مفصولة بجدار حجرى ، خلف المستودع. تقسمها سكة الحديد إلى قسمين ، تعمها الفوضى وتتراكم فيها الآلات البالية ، والخزانات ، والقطع المعدنية المتنوعة وتغرق عميقًا فى الطين الأسود ، مترعة أذرعة ثقيلة نحو السماء فى انتظار الموت الجهنمى. فى نهاية الباحة باب شبكى عال يسمح أن يصل سكة الحديد بالشارع الخارجى المرصوف بالحجارة.

جلس زنتاى جورج فوق حافة معترضة طويلة ، واضعًا ساقًا فوق ساق. ومستنداً بظهره على الجدار الحجرى. عرف أن يانى يمر فى

الحالة التي يفقد فيها عقله. فمن الذكاء أن يظل صامتًا ولا يتفوه بشيء ، كي لا يخطئ طريقه إلى كل ما هو خطير. وإلا سيضرب كما ضرب من قبل رجال الأمن في حانة الشرب في ساحة كالفاريا لا يجوز العبث مع ياني ، الذي يتابعه بالنظرات ولا يبعد عينيه الصفراوين عن وجهه. فتجاهله.

ارتجفت السيجارة بين أصابعه. رسم ابتسامة عريضة وأجهر بسخرية حادة.، أنه سيجنب صهره ظنونه. إنه يعترف أنه في حالة انتشاء في هذا اليوم الربيعي الجميل ، بين مجموعة الأقارب الجميلين ، بعد اجتراعه ثلاث كئوس من النبيذ وسبب خوفه الوحيد أن يفقد ذاكرته الحالمة ، ومزاجه الطيب مما يتيح لأفكاره المخبولة أن تتلبسه. وحينها سيكون هو مضحكًا تمامًا ، ميالاً إلى العراك.

– في رأي الأطباء أن سكر الدم ينخفض بعد الشرب إلى أدنى قيمه – قال بصوت مربٍّ ، رافعًا إصبعه عاليًا

– لذا يلجأون إلى شرب البيرة في صباح اليوم التالي. أنا لا يناسبني هذا ، أنا أشرب بطريقة قديسية لكي أتجنب وسطي الاجتماعي وتعليقاته الجارحة.

– لست مريحًا حتى وأنت ثمل – قال ياني رافعًا سلسلة صدئة من تحت حذائه. أدارها على كفه ، ثم رماها بين الحطام

– أمضيت حياتك هكذا. تعاطيت الشراب والعاهرات ، والمشاجرة. حتى إنك لم تستطع الاستمرار ضمن عائلتي.

– ألا تعرف أن تقول شيئًا آخر. وهذا عازف السكسوفون لم يشرب ، ولم يتعاط النساء العاهرات ، ومع ذلك فقد هجركم دون متاع سوى ما يرتديه من ثياب ، وحذاء مثقوب. رمق صهره بنظرة متحدية. انتظر قليلاً. لكن الأخير بقى صامتًا كالأخرس. جالسًا قبالته محنى الظهر على صندوق مقلوب يحدق فى نعل حذائه. عندئذ بادره بغتة ، رمى سيجارته ، وسحب أوراقًا من جيبه ، وأشار بيده وصار يتحدث عن أمور أخرى. روى بصوت هادئ أنه فصل من عمله على آلة "مالوم" من قبل رئيس قسم الأحوال الشخصية فى المؤسسة عملاً بالفقرة الثالثة. وهذا بالنظر إلى حالته غير قانونى.

ذهب إلى جسر الشعب "ينبسابدشاغ" وطلب مساعدتهم هناك ، قائلاً إن حالته نوقشت بالمؤتمر الثانى والعشرين ، على نحو ممتاز وبنتائج طيبة. لكن لم يرجع إلى العمل على آلته بناء على نصيحة من صديقه الصحفى. كى لا يلووا عنقه ثانية. لكن هذه المرة بشكل أكثر دهاء. وبحث عن عمل فى مكان آخر فوجده لدى مؤسسة ممتازة للصناعة الثقيلة ، باعتبار أن اسمه متداول ومعروف بالنزاهة.

أشعل سيجارة ، وقد ازدادت ثقته بنفسه. أوضح أنهم وعدوه بألف وثمانمائة فورنت دخلاً شهريا له. ولقد وافق بعد دراسة متعمقة للموضوع على الشروط ، والفقرات المنصوص عليها فى قانون العمل لعام ١٩٦٢ وهى: مراقبة العمل ، مراقبة وقت العمل ، إعداد شروط العمل النهارى ، فحص واختبار صلاحية الآلات ، تخفيض ساعات العمل ، رفع ساعات

الأجـور حـسـب الاسـتطـاعـة. إعـداد الشـروط الناظمـة الضـرورية ومتابعتها ... إلخ .

– كل شيء صار بين أصابعي. وكما تنص وثيقة عملي وملحقاتها الصادرة عن هذه الشركة الطيبة لن تستمر عبوديتي هنا أكثر من أيام. حيث أبدأ عملي لا مكان للأصول والشهرة ، بل للكفاءة فقط. وحتى آب القادم أكون على استعداد للعمل الإضافي وعوائده البالغة أربعة آلاف فورنت.

أغمض هابتلر يانوش عينيه قائلاً: ـ آمين ـ ولكن كم ستطلب بطاقتك الشخصية وأنت ثمل في حانة من الحانات. وسيتبين أنك في حالة مرضيةٌ. وسيبلغون مؤسستك وعندها ستبدأ البحث عن خط جديد في جسر "سابد شاع".

أزاح زنتاي وجهه عن العينين الصفراوين ، عابثًا بأظافره القذرة. تبسم. ثم قال بصوت أجش ، إنه في ليلة رأس السنة اشترى زجاجة شمبانيا ، وأراد أن يصطحبها معه إلى المقبرة ولكن لم ينفعه وعده أن يعطي سائق التاكسي مائة فورنت لقاء "التوصيلة" لكن السائق رفض طلبه قائلاً:

– باب المقبرة مقفل. ولا داعي لإزعاج الأموات في ليلة كهذه. فاتجه إلى بوفيه آدم وطلب امرأة رخيصة لتشرب معه. وبعدها ألقى بالقدحين ، والزجاجة أرضًا ، فاستدعوا الشرطة.

كان مريضاً وعولج فى قسم العصبية. ولكن ذراعه خدره حتى الآن ، ولا يستطيع النوم ليلاً ، يتقلب ويتفكر. ويستقبل الصباح كالمصعوق.

وقف يانى. نفض مؤخرته.

– لا تشرب! فى جوفك الآن ستة ديسيمترات من النبيذ. ووجهك مزرق كالليمون الفاسد.

تبسم زنتاى.

– لأنى أعيش على الخبز والدهن ، يا ابن العم.

وبغتة تلبسه الغيظ. فشحب لونه ، لف ساقيه ورفع عينيه مقهقهاً فى الوجه الآخر. لم يستطع ولم يشأ أن يكبح جماح نفسه. ومثلما اختلطت الأفكار وتزاحمت فى رأسه ، أطلقها خارجاً. أشار بيديه وأخذه البكاء بين لحظة وأخرى ، فاستبدَّ به الإحساس بالسدى ، واللا معنى. رفع قبضته إلى أمام فمه ، وسعل سعالاً مرا. وأضفى الحقد قوة على عباراته المتطرفة. وسواء رفع صوته ، أو أخفض من نبرته ، فإنها برقت مثل عينيه. وفى النهاية أبى على نفسه أن يتقبل أى وجه من وجوه الاستعباد ، واعترف أنه مخلوق تافه ساقط ، لا يساوى حفنة يد صغيرة ، ولكن دعوه وشأنه ، لقد ودَّع هو العائلة الكريمة وترك وراءه البيت. والأثاث والغسالة. وإذا كانت رغبتهم أن يسترجعوا الراديو فإنه يعيده لهم. وإنه على استعداد أن يظل بثوب وحيد ، أو يمشى عارياً ، مقابل أن يخلصوه من ثرثراتهم معه حول الاستقامة ، وألا يرموه بحجر الحكمة ، وألا يقولوا لابنته إن أباك شخص تافه ومستهتر.

وقال إنه يدفع شهريا ثلاثمائة فورنت دون أن يخطر لواحد من العائلة الكريمة أن هذا العامل البسبط سيبقى دون طعام. لكن كل هذا لا يهم. البرنامج واحد. الرجال الثلاثة يدفعون. والنساء الضحايا بقين في بيوتهن الجميلة ، ويرتدن أفخم محلات تصفيف الشعر ، وفى النهاية يتشدقن بأنهن سيئات الحظ فى هذه الحياة.

اسكت!– قال يانى وثبت عينيه الصفراوين فى الشخص الذى يومئ بيديه. ومرة أخيرة ، حذره بصوت هادئ:

– اسكت!

لكن زنتاى استأنف ضحكاته الساخرة. كان وجهه أبيض من الشحوب، وتلألأ العرق فوق جبينه. عيناه جافلتان. أجهر بصوت مثار: إن له رأيه الخاص فى العائلة الكريمة ، وفى العجوز القابع على شفا الموت ، والذى بعد عشرين عاماً حتى استطاع أن يسوى طقماً لأسنانه والذى لايفوته يوماً زيارة قبر زوجته الفقيدة حليق الذقن ، ببنطاله المكوى وحذائه اللماع.

– أليس شيئًا رائعًا؟ بدلاً من أن يذهب إلى "الساعة الخامسة" يذهب إلى المقبرة لمغازلة النساء الأرامل. نزل عن الحافة واقترب من يانى.

– أتسمع؟ ولم لا تقول إننى أكذب ؟

– أنت حقير – قال يانى بهدوء

- عشت بيننا عشر سنوات... كم خدمتك أمي!

صمت زنتاي لحظات ثم قال بابتسامة حزينة :

- تتعلق بأمك؟ وبهدهداتها "من فراشة إلى بابا..." ... لكنها رحلت أيضًا ...

ظهر أحد العمال قادمًا من الطرف الآخر للفناء. فتح صنبورًا ومال بفمه تحت خيط الماء. شرب ثم اختفى. رسم زنتاي تكشيرته البشعة.

- أنا حقير؟

- وأنتم كيف تعيشون؟ هانيلكا أطاحت بزوجها الثاني ، وتسلب الأول الفورنتات الأربعمائة. غيزيكا مجنونة ، تسرح أمامها على الدوام ، أحلامها كوابيس ، تتباكى لأن أمها ليست على قيد الحياة ، لكنها تتخذ عشيقين وتصاحب بشرًا غريبين ، يواسونها بالثياب ، والحذاء ، كرامة ، أخلاق ... كن على علم بأنها خانت زوجها. هيرش أشتفان وحده أكثر غرورًا ، وعمقًا من ميلكوت سوها. صامت كالقبر.

- اخرس.

- أخرس؟ - ضحك مثارًا

- لم لا تقدم لي المواعظ؟ شربت هذا صحيح ومازلت أشرب. عالم بأكمله يضغط علي ، تفاهات رخيصة تتدلق أمامي ، موظفون تافهون يلوون عنقي لمجرد عدم رضاهم عن شكلي فكيف تجرءون على تقديم النصائح لي؟ أنتم الذين خلفتهم ورائي حتى في هذا النظام ، أتعلم حتى لو اضطرني الأمر لأتشاجر مع كل موظف على حدة. أنتم تجرءون على نصحي؟ بأي حق؟ هذا النظام يقبل أعناقكم ، يجهد ويتوسل لكي تذهبوا

إلى الجامعة ، وتكونوا أطباء ، مهندسين ، محامين ، رؤساء أقسام ، ضباط شرطة ، ضباط قياديين ، وأنتم قد خرجتم من البراكات وعشتم كالجرذان. جاز ، رقص ، "هاى را"(*) تلتهمون ، وتحشون بطونكم وتندسون فى أسرتكم أيها الرفيق هابتلر!

أشعل سيجارة بيد مرتجفة.

– لا تنظر إلى هكذا!! – ضحك ساخراً

– كيف تعيش أنت؟ هل يزيد راتبك عن ألفين. ألا تعمل دهانًا أيضًا ، تغسل وتطبخ ، وتشطف ، وتقبل ولدك الصغير. هل رأيت مسرحًا من الداخل؟ هل قرأت كتابًا؟

بينما أنت صاحب هذه السلطة ، خرَّاط من الدرجة الأولى ، أسير حرب ، أحرقت حبيبتك ثمنًا لسهوة بسيطة فى "أوشفيتز"

لكمه يانى. لكم وجهه. وقع بين حطام الآلات وفارق الحياة على الفور. تجمدت عينا الخرَّاط الصفراوين على المشهد المريع. ثم رفع كفيه الضخمين إلى وجهه وصرخ مثل حيوان وظل يصرخ حين التف حوله العمال وقادوه.

عمت الفوضى ، وكان الجو فى بيت هانيلكا ساخنًا ، متوترًا. أغلق هابتلر يانوش العجوز الحقائب وكانت أستر تلبس ابنتها الثياب وهانيلكا تجلس على كرسى ، مائلة برأسها إلى الوراء ، شاخصة فى الثريا

(*) عبارة تشجيعية من جماهير كرة القدم لأنديتها .

المودرن وقد مطت شفتيها. وكانت غيزيكا بفرشاة صغيرة مغموسة بحمض الملح تنظف أسنانها.

كان تموز "يوليو" لاهبًا. استجمت آغوثا في"شيوفوك" في معسكر طلابي، وابن هانيلكا الصغير اصطحبه ميلكوت سوها في عطلة صيفية. هانيلكا وأستر استعدتا للذهاب إلى ميشكلوتس – تابولتسا ، إلى منتجع المؤسسة التي تعمل بها أستر. بقي أكثر من ثلاثة أرباع الساعة لانطلاق القطار.

سلقت غيزيكا البيض وأعدت لهما فطائر النقانق . غسلت الفاكهة ، وغلفتها في كيس من النايلون ، أودعته هانيلكا حقيبتها السياحية المودرن المخططة بالأزرق والأحمر. تصرف هابتلر العجوز كالطفل ، أراد أن يتحدث مع محام ، لأن ابن عم زوجته المدعو ستادينفر يوجف وجد مقتولاً في شارع "كومون". وعليه أن يثبت بطريقة ما أنه خدم ، هو أيضًا ، في الجيش الأحمر.

– هذا يتطابق مع الحقيقة التامة – قال

– وأنا لم أعرف الكذب في حياتي وإذا أثبت زعمي فإن راتبي التقاعدي سيزيد مائتين على الأقل. بعدئذ تلفنوا لـ (التاكسي). ودعت البنات أباهن دامعات. وساعدت غيزيكا في حمل الحقائب الثقيلة إلى الأسفل. أمضى العجوز وقتًا وهو يحدق في تمثال بوذا البرونزي، ثم نفض الغبار عن جسد التمثال الممتلئ وخرج إلى المطبخ. ملأ زجاجة بالماء وراح يسقي الأزهار.

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز

الإشراف الفنـــى : حســن كامــــل



مقبرة الصدأ باحة مفصولة بجدار حجرى خلف المستودع
تقسمه السكة الحديد إلى قسمين، تعمها الفوضى وتتراكم
فيها الآلات البالية، والخزانات، والقطع المعدنية المتنوعة
وتغرق عميقا فى الطين الأسود، مشرعة أذرعا ثقيلة
السماء فى انتظار الموت الجهنمى. فى نهاية الباحة
شبكى عال يصل السكة الحديد بالشارع الخارجى الم
بالحجارة.

تصميم الغلاف: نسرين